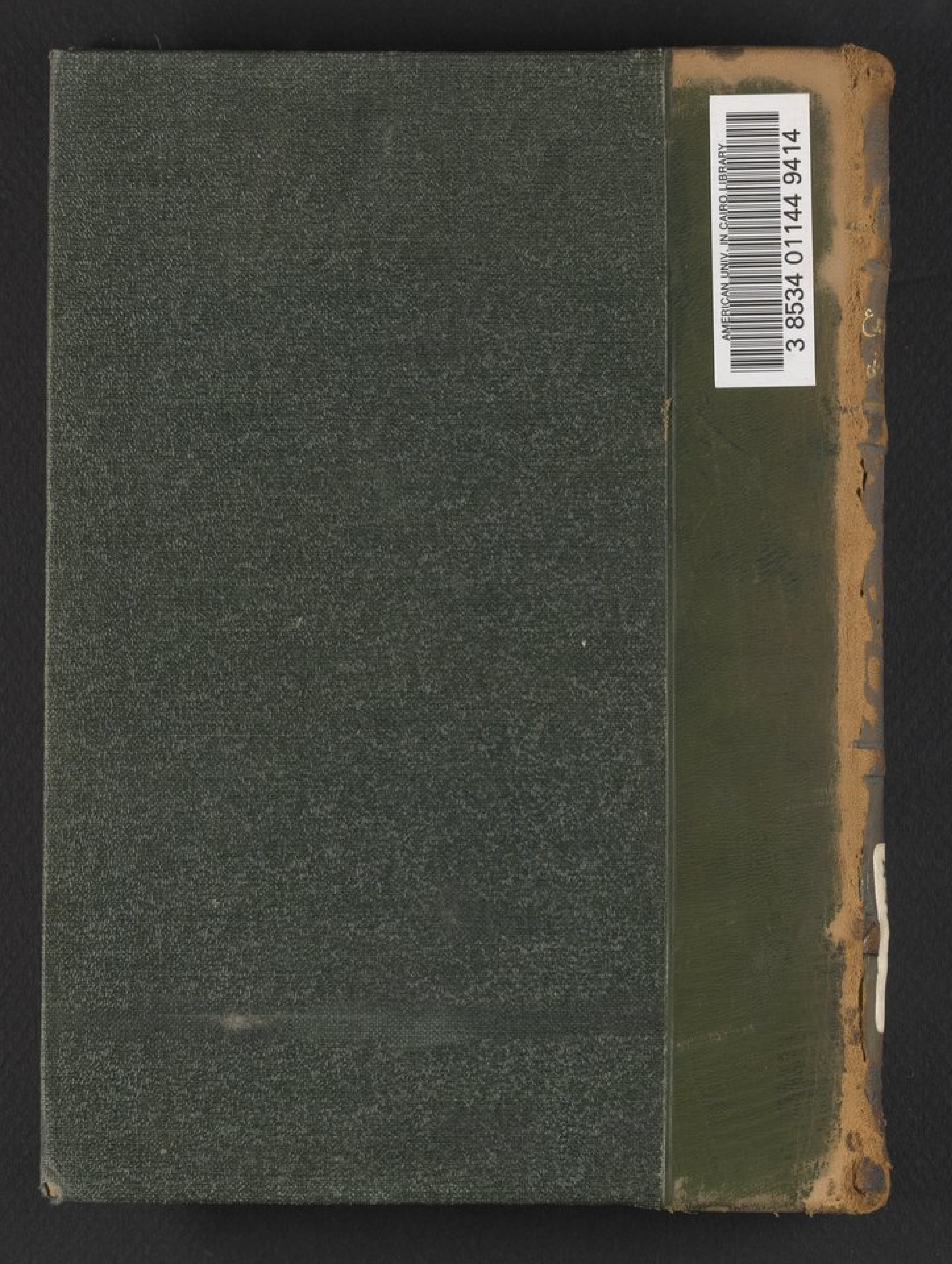
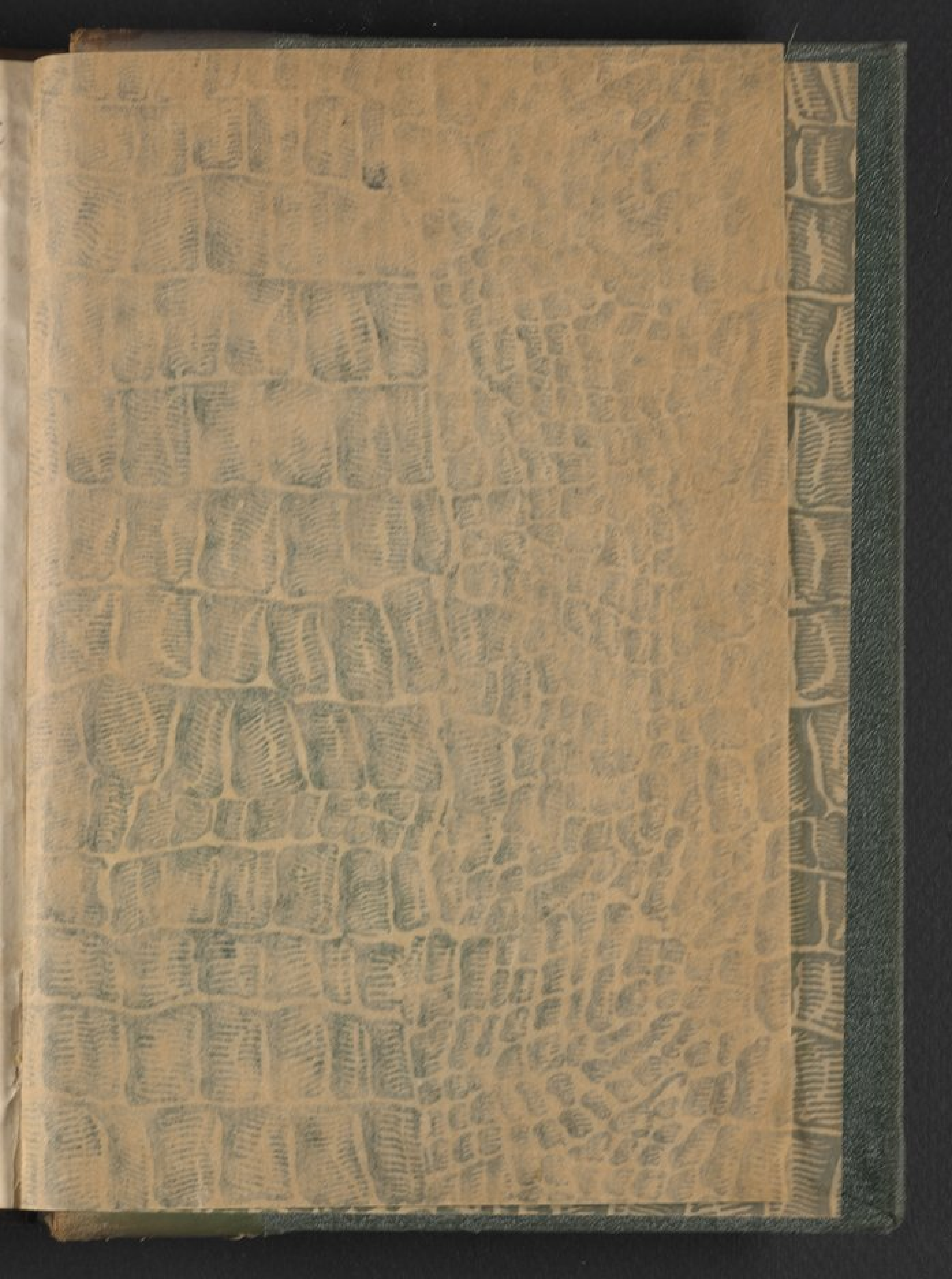

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01144 9414





جولة في ربوع الشرق الأدنى

بين مصر وافغانستان



من مشاهدات سائح مصرى

محمد ثابت

مدرس الآداب بمدرسة الامير فاروق الثانوية

سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م

مطبعة سعد مصر بالفجالة تليفون ٤١٤٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

كانت جولتى هــذا العام فى ربوع الشرق الادنى تلك الاقطار التى تربطنا بها روابط وثقتها أواصر التاريخ والاجتماع والدين . وزادتها رسوخاً صلة رحم قديمة واخلاص عميق وعطف متبادل تذكى ناره رغبة مشتركة فى النهوض وطموح متأجج للخلاص بأوطان مهددة ظلت ولا تزال تئن تحت أخطاء أبنائها ونهم الطامعين فيها

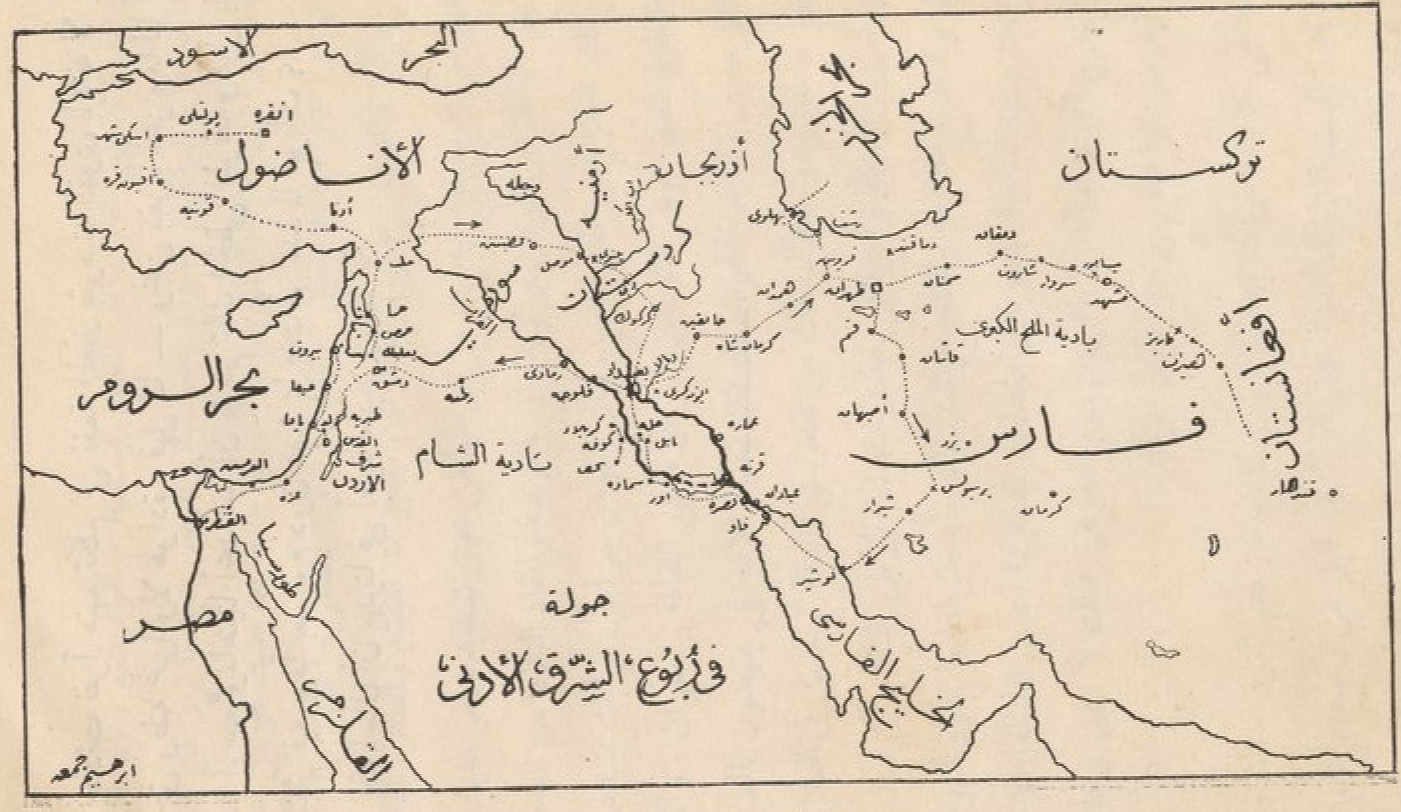
جبت أرجاءها فى جولة عاجلة كانت أجدر بالمقام الطويل والدرس العميق لكنى رغم ذلك قد وقفت من أمرها على الكثير مما يروقنا شأنه ويهمنا خبره . ولقد لمست بعض معانى التأخر الذى طالما عيرنا به الغرب حتى أضحى لديهم الشرق مثلا فى التدهور والامتهان . مما كان ينغص علينا عيشنا ويزهدنا فى الحياة . لكنى الفيت خلال ذلك قبساً من نور النهوض ترفعه فى تلك الظلمات يد قيضها الله لكثير من نواحى هذا الشرق فبدأت تعمل على تبديد ظلم الاجنبى ومحو سيطرته السياسية والمالية تلك التى كانت

ولا تزال تتآمر على أخماد عناصر التقدم فيـــه ثم تعود فتعيره بأنه ناشئ تعوزه الكفاية فى القيام بشئون نفســه وتفرض عليه ما ترى من نفوذ وسلطان هو آيل به لا شك إلى زوال القومية والبقاء به حيث هو من خمود ذكر وجمود عقل وقناعة بقليل . ولشد ما كانت دهشتى واعجابى لما تأتيه كل من تركيا الناهضة وفارس الناهضة من معجزات التقدم والطفرة بالبلاد الى العلى من جميع نواحيه رغم ما يحوطها من عوز شديد وفقر مقيت . لكن هو الاخلاص للوطن والاعتزاز بالقومية وانقاذ البلاد من الدخيل كل اولئك اخذ بناصر القوم فعدوا الى النهوض سراعاً . وانك لتدهش لمدى التطور الذى تم فى تلك الفترة الوجيزة فى الثقافة والعمران . وأنت لا تراهم يعنون بالمظاهر الجوفاء تاركين لباب الامر بل ينهضون بالصميم منه رغم ما قد يبدو خلال ذلك من نقص فى الدقة وحسن فى الطلاء . وعندى أن العجلة واجبة فى الخطوات الاولى من التقدم كى تكسب الشعب قوة الدفع اللازمة والتشجيع الذى لابد منه حتى اذا ما تذوق للنهوض معنى انتعشت فيه الناحية المعنوية واضطلعت نفسه بما أعدت له . أما الاخذ بسنة التدرج الوئيد والعناية بالعرض دون الجوهر فتلك لا تتفق وحركة العصر الحاضر العاجلة وروحه المادى الوثاب

حقاً هى ظروف تهيأت فتحينها القوم وكانت لهم نعم العون . استغلوا خيرها لخير البــلاد وتساندوا تحت أمرة نفر قليل ممن رجحت عقولهم واسلموا لهم القياد مضحين مؤيدين فى غير تحفز لنقد ولا أهبة لهدم. كنت

كلما حادثت نفراً منهم تكلم فى نغمة المعتز بقوميته القوى بإيمانه لا يقبل فى حق وطنه غمزاً ولا هوادة . فهل لنا — ونحن بنفرنا أعز وما لنا أوفر وعلمنا أوسع وماضينا أمجد — أن نترسم تلك الخطى الموفقة ونقيل بلادنا مما تتعثر فيه يوماً بعد يوم دون عبرة بما فات أو عدة لما هو آت ؟

الله أسأل أن يهدينا فى أمرنا سبيلا رشدا ؟



خط السير والبلدان التي حللناها

جولة فى ربوع الشرق الأدنى

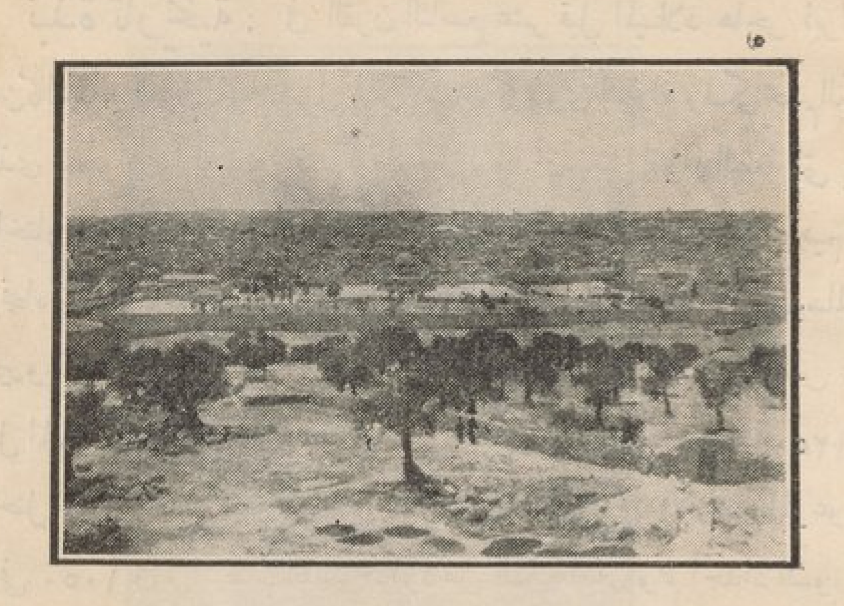
الى فلسطين الارض المقدسة

كنا فى القنطرة السادسة مساء وعبرنا قناة السويس فى سابحة بخارية صغيرة أعدتها الشركة ليعبر الناس عليها القناة إلى أرض طورسيناء وفى القنطرة الشرقية أقلنا القطار فى منتصف الليل وأوغل بنا فى الصحراء وفى باكورة الصباح تفتحت عيوننا على :

غزة : مولد الامام الشافعى وهى بلدة صغيرة قامت حولها بعض المزارع الفقيرة ثم أخذ الزرع يتزايد فى بقع متناثرة فى الصحراء حيث تكثر العيون وخصوصا على المنحدرات التى كان يكسوها شجر الفاكهة فى صفوف منسقة بديعة تمر خلالها مجارى الاسمنت للرى وقد كانت ثمرة الشجر خير مؤيد لما نعرفه من شهرة المكان بالفاكهة. ثم وصلنا محطة :

اللد : وكان الشجر حولها وفيرا وهنا غيرنا القطار الذى قام بنا صوب القدس فأخذنا نوغل فى وديان ملتوية معقدة آخرها بالغ الامتداد غير ذى زرع وكان القطار يجد صاعدا خلال كل أولئك فى جهد كبير وقد زود بقاطرتين معا وفى منتصف العاشرة دخلنا :

بيت المقدس : فآويت الى نزل (أوليفيت) الجميـــل يديره صاحبه الوطنى الذى شراه من الانجليز ويقوم عليه خير قيام . اما القدس فبلد كأنه أقيم على مجموعة تلال فى ارتفاع ٢٤٠٠ قدم طرقه تسير فى ليات عجيبة وتهوى آنا وتصعد آنا فى منحدر وعر وقد يرتقى الواحد من طريق الى آخر بدرج مرتفع يناهز الخمسين سلما والمدينة جد نظيفة وساعد على ذلك أن تربتها صخرية مجدبة لا تكاد تجد أثرا للتراب فى أرضها وبيوتها من صخر الجير يبدو فى الوان طبيعية أبيض وأحمر وأخضر وللقوم مهارة خاصة فى نحته واقامته بحيث يبدو فخما جذابا رغم أنه لا يغشاه فى ظاهره ملاط وغالب المساكن من طابقين الا بعض المنشئات الحديثة . وكم كان يدهشنى اختلاف الازياء والاجناس بكثرة لم أعهدها فى أى بلد آخر مما أيد أن ذاك المكان المقدس أضحى بلدا عالميا فالناس من مذاهب شتى وديانات مختلفة ولكل زيه الخاص فالعربى القح يلبس الصوف وعلى رأسه العقال وسواد الناس يلبسون الطربوش وسراويل تحبك حول الساق وتنتفخ حول العجز والبعض يلبس القفطان وعليه الحزام المعوج الجذاب نساء ورجالا ولعل أعجب الازياء تبدو فى طائفة من اليهود الرجعيين فتراهم يرسلون لحاهم وشعر رؤوسهم ويدلون منه ذؤابتين طويلتين أمام الاذنين فى شكل يسترعى الانظار والنساء يخرجن وعلى وجوههن قناع أسود ثقيل ومن أخص ما ترى فتيانهم الذين يحملون وراء ظهورهم سلالا كبيرة تكاد تخفى قامة الغلام منهم ويسيرون على غير هدى علهم يجدون مرتزقا فى حمل متاع الغير فى تلك السلال ونغمة

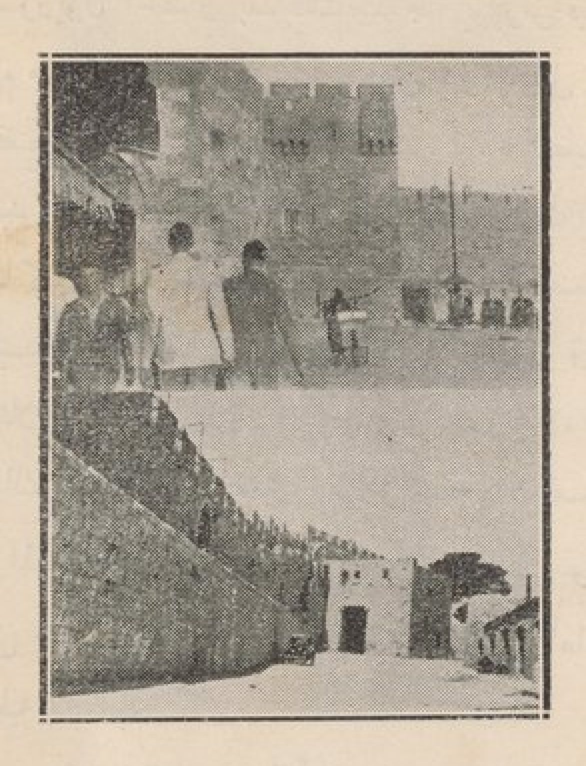


منظر عام للقدس من جبل الزيتون

الحديث عجيبة قد تثير الضحك إذ يميلون الحروف ويمدونها ويتصرفون فى حروف الجر تصرفا مدهشا وبخاصة (الباء) فيقولون أن فلانا نزل بيافا وسمعت أحدهم يقول لرجل زلت قدماه أمام حانوته (ليش بتوقع بيمكن العمى بيصيبك) فى مد عجيب فتقبلها المخطىء ومضى فى سبيله لأنى لاحظ أنهم لا يميلون الى النزاع والمشاكسة وهم كرام النفوس وديعون مؤدبون فما سألت أحدهم شيئا الا وحاول أن يهدينى فى رغبة وبشاشة فان قلت (متشكر) أسرع قائلا (أستغفر الله) وهم يودون المصريين ويذكرونهم بخفة الروح حتى سمعت أحدهم يقول لجاره (أين خفة الدم المصرى يجتمع الى الجمال الشامى)

نبذة تاريخية : فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد هاجر ابراهيم من كالديا أو العراق موطنه الى أرض كنعان كما روى التوراة ولكى يحسم النزاع الذى شجر بين آله وبين قوم لوط خير لوطا أن ينتقى لقومه البقعة التى يريد فاختار أرض الاردن الخصبة فهاجمه أهل البلاد وأسروه فسارع ابراهيم اليه ونجاه ولما عاد الى معسكره قدم له حليفه الكنعانى ملك سالم (أو اوروسالم أو جيروسالم) الخبز والنبيذ وقد ورد ذكر أوروسالم فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى الواح خطت بالبابلية عثرنا عليها فى تل العمارنة وفى سنة ١٢٥٠ ق م احتل بنو اسرائيل القسم الاكبر من أرض الميعاد أو (الارض الموعودة) وفى ١٠٥٠ ق م اغتصب القدس داود من الكنعانيين وهم أجداد السوريين الحاليين، واتخذها عاصمته ومحا اسمها الكنعانى وأسماها مدينة داود وقد زاد فى تجميلها سليمان وبنى فيها معبدا فاخرا بمساعدة صديقه (حرام) ملك (صور) وغزاها شيشاق فرعون مصر سنة ٩٧٠ ق م ثم تتالت الغزوات وحملت كنوز المعبد الى بابل وأسر ملك القدس وفى ٧٢٢ ق م دمر ملك بنى اسرائيل هناك وفى ٥٨٦ ق م حوصرت المقدس ودمر المعبد وأخذ اليهود أسرى الى بابل بأمر بختنصر وبذلك انتهى ملك يهوذا

ولما هزم كورش الفارسى بابل أعاد لليهود أملاكهم سنة ٥٣٨ ق م وبعد هزيمة دارا أمام الاسكندر الاكبر اجتاح جيش مقدونيا سوريا وكتب الاسكندر لقساوسة القدس يدعوهم الى تقديم الطاعة فرفضوا لكنه لما تحرك نحو القدس لاقاه شيخ القسس فيها محتفلا مرحبا فدخلها فاتحا



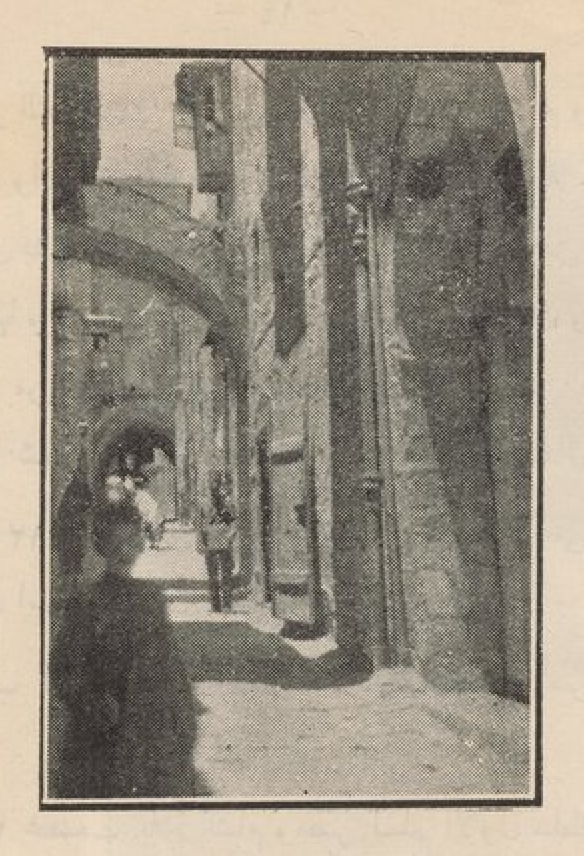
سور القدس

وترى باب الخليل وتحته باب يافا أو برج داود وفى مكانه كان يقوم قصر هيرود

وبعد موت الاسكندر ظلت الثقافة الاغريقيـــة هى السائدة زمنا وحلت اللغة الآرامية وهى لغة السوريين الاقدمين محل العبرية وما لبث ملك سوريا أن باغت المدينة سنة ١٦٨ ق م ودمرها ودنس المعبد لانه الزم اليهود أن يذبحوا الخنزير فى المذبح المقدس فأهاجت تلك الاهانة اليهود وحفزتهم أن يثوروا على سادتهم ملوك سوريا وكان قائدهم يهوذا الذى هزم جيوش سوريا سنة ١٦٤ ق م

عاود السوريون الحصار بعد ذلك ولما جاء يوليوس قيصر فى طريقه الى مصر أقام من قبله ملكا عربيا على أرض يهوذا فقتل ثم أعقبه ابنه (هيرود) ففتح القدس بمعاونة الروم واشتهر بمبانيه العظيمة وبخاصة لما أعاد بناء المعبد وفى عهده بلغت القدس أوج عظمتها لذلك سمى (هيرود الاعظم) وبينا كانت القدس تتيه فخاراً تحت ملكها العربى وضعت مريم المسيح بمعجزة فى فندق حقير من بيت لحم وكان ذلك سنة ٤ ق م وكان ذلك فى الثالثة والثلاثين من حكم هيرود الاعظم ولما ذهب عقلاء القوم يقدمون خضوعهم لذاك المولود غضب هيرود وأمر بجميع الاطفال أن يذبحوا ليتخلص من المسيح فأوحى الى يوسف أن يهرب بالطفل وأمه الى مصر فظلوا بها حتى مات هيرود وفى سنة ٣٠ م حوكم المسيح أمام خليفة هيرود الذى قضى عليه بالصلب

لبث الروم يقاتلون القدس مراراً ليقمعوا ثورة اليهود بها وكان أشد حصار وقع زمن تيتوس حتى قيل أن الحاجة دفعت بالامهات أن يأكلن أطفالهن ولما دخلها تيتوس دمر المعبد أولا والمدينة كلها تدميرا تاماً فحقت كلمة المسيح فيها (لن يستقر حجر على حجر فى القدس الخبيثة) وفى ٣٣٠ م لما أن أصبحت النصرانية الدين الرسمى لروما بنى قسطنطين كنيسة فى مكان كنيسة القيامة واخرى فى مكان الصلب وثالثة فى بيت لحم وبعد ذلك حاول اليهود اعادة معبدهم لكنهم فشلوا واصبحت القدس مزارا الحجاج من المسيحيين وفى سنة ٦١٤ فتحها كسرى وذبح تسعين الف مسيحى لكنه



وسط طريق الآلام حيث سار المسيح عليه السلام يحمل الصليب

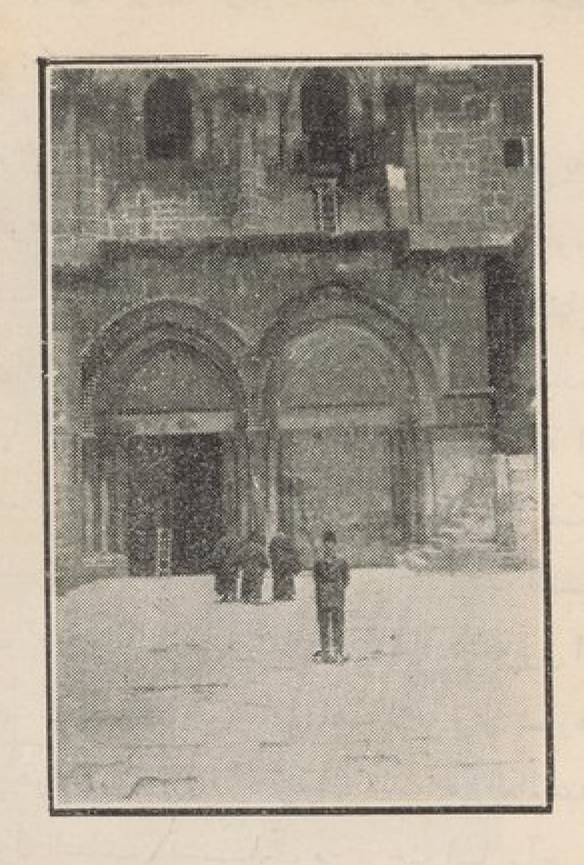
هزم ووقع فى الاسر وما لبث أن داهمها الاسلام فى واقعة اليرموك وأمن عمر النصارى وبنى مسجد الصخرة وسمى البلدة بيت المقدس وفى عهد عبد الملك بن مروان اقيم المسجد بشكله الحالى (سنة ٦٩١) لينقص من نفوذ مزاحمه عبد الله خليفة مكة ولا يزال المسجد يحمل اسم عمر. اعقب ذلك نفوذ الفواطم الذين قسوا على المسيحيين ثم جاء بعدهم السلاجقة ثم العباسيون وفى ١٠٩٣ عاد الفواطم واستبدوا بالنصارى فكان ذلك سببا فى بدء الحروب الصليبية

ولما انتصر النصارى فى الحرب الاولى اقتسموا الغنائم وكان أفخرها كنوز المسجد والصليب الاول وفى الثانية تغلب بطل الاسلام صلاح الدين وأسر النصارى بشهامته وحسن معاملته وفى الثالثة هلك من خيرة شبان أوروبا وملوكها وأمرائها نحو نصف المليون أمام المسلمين ولم يستطيعوا انتزاع القدس من صلاح الدين . ولعل أغرب الحروب الصليبية حرب الاطفال وفيها شحن الاوروبيون سبع سفن كبيرة بالاطفال اقلعت من مرسليا سنة ١٢١٢ الى الاراضى المقدسة لكن خمسا منها رست على الاسكندرية فأخذ الاطفال اسرى واثنتان كسرتا وغرق من فيها .

وفى الحرب السابعة كانت خسارة النصارى بالغة اذ أسر ملك فرنسا نفسه فى مصر

وفى ١٥١٧ خضعت بلاد الشام ومصر لسليم الاول سلطان تركيا وظلت القدس ملكا للاتراك الى سنة ١٩١٨ حين فتحها لورد اللنبى فاضحت انجليزية فكأن الحكم الاسلامى ساد البلاد بين ٦٣٦ ، ١٩١٨

وفلسطين اليوم قسمان : شرق الاردن وعاصمته عمان وهى فيلد لفيا القديمة ويحكمها الامير عبد الله . وفلسطين ويحكمها مندوب سام وعاصمتها القدس التى يبلغ سكانها نحو الخمسة والستين الفا ومجموع سكان البلاد كلها دون المليون منهم ٦٧٠ الفا من المسلمين و ١٧٥ الفاً من اليهود و ٩٠ الفا من المسيحيين أما سكان شرق الاردن فدون ثلث المليون رغم أن مساحتها ضعف مساحة فلسطين وأغلبيتهم الساحقة من المسلمين



امام كنيسة القيامة

فى القدس : بدأت زيارتى بباب الخليل وهو أجمل ابواب أسوار القدس وسمى كذلك لان الطريق الى الخليل يبدأ منه وقد كتب على مدخله (لا إله إلا الله ابراهيم خليل الله) وكان يسمى قديماً باب المحراب أى محراب داود ويعتقد الكثير أن المسيح الدجال سينهزم ويذبح تحت هذا الباب وبعد أن جزت الباب سرت فى درب حجرى منحدر كثير الليات يسمونه

(سوق البازار) ويحكى أسواق الغورية عندنا الا فى أرضه الحجرية المدرجة ومنه عرجنا على :

طريق الآلام : وفيه حمل المسيح الصليب الكبير وقطع به الطريق كله وقد أعياه ثقله فوقف أثنتى عشرة مرة متوجعاً وقد عرف القوم تلك النقط ووضعوا علامات تميزها وفى الموقف الرابع قابلت العذراء ابنها المسيح وهو يسير الى القتل وفيها أقام الارمن كنيسة وفى المحطة السادسة تقدمت القديسة فيرنوشيا فمسحت عرق المسيح وفازت بطابع وجهه المقدس على منديلها وفى الثامنة خاطب المسيح بنات القدس قائلا : لا تبكوا علىّ بل أبكوا ضحايا القدس من الشباب وفى الحادية عشرة أمر المسيح أن يخلع ثيابه قبل الصلب ثم وثق الى الصليب ودقت فيه أطرافه وفى الثانية عشرة رفع الصليب وثبت فى الحائط بثقوب رأيناها واضحة والى يسارها شق طويل ملىء بالنحاس ويقولون أنه من أثر الزلزال الذى هز العالم عند ذاك وفى الثالثة عشرة أنزل الصليب وتسلمت مريم جثة ابنها وآخر النقط وهى الرابعة عشرة فى قلب كنيسة القيامة حيث دفن المسيح ومدخلها ناعم زلق من كثرة ما لمسها من أرجل الحجاج على كر السنين وحارس الابواب مسلم بيده مفاتيحها ليحسم النزاع بين الطوائف المسيحية المختلفة التى تنازعت الامر طويلا وقد شاهدنا داخل الكنيسة الصخر المقدس الذى غسلت عليه جثة المسيح وفى مقصورة الى جواره يضيئها خمسة عشر مصباحا من فضة حجر الرخام الذى كان يغطى القبر فدفعته الملائكة الى مكانه هذا



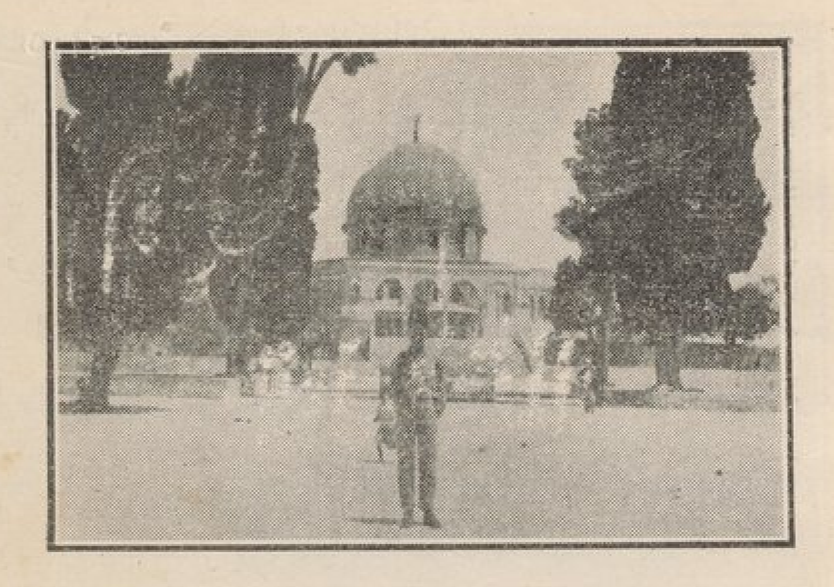
قبر المسيح عليه السلام داخل كنيسة القيامة

والى اليمين المقبرة يغطيها حجر يستخدم الآن مذبحاً للقرابين وثم هيكل النشور الذى تجلى فيه المسيح لأمه ومما راعنا منظر مغارة غائرة يسمونها سجن المسيح قيل أنه سجن فيها وأجلس فوق صخرة بها ثقبان أدخل الفخذان منهما ووثقا ثم شحذ الذراعان الى ثقبين رأيناهما وراء ذلك وبعد تلك المغارة مغارات عدة سجن فيها أتباعه وكلها مرطوبة مظلمة رهيبة

وهناك هيكل السخرية سخر الجند عنده من المسيح وتوجوه بتاج من شوك تهكما وتقريعا . ويزين المدينة :

الحرم الشريف : أو مسجد عمر أقيم على أنقاض معبد سليمان فوق تل زيون الشهير وفوق أطلال قصر هيرود الاكبر والمسجد فى متسع ذرعه ١٤٥ الف متر مربع على جبل (موريا‌ه) الذى كان ملكا لأروانا ومنه شراه داود وهنا شرع ابراهيم فى ذبح ابنه ضحية على الصخرة الموجودة هناك وقد بنى الهيكل داود بأمر سليمان وارشاده حوالى سنة ٩٦٦ ق م واستحضر له المهندسين والاخشاب من لبنان وتم بناؤه فى سبع سنوات ونصف وقيل أنه كلف خمسين مليون جنيه وفى سنة ٥٨٨ ق م خربه بختنصر لكن اليهود أعادوه لما أن عاد لهم الامر سنة ٥٢٠ ق م ثم حوله جستنيان الى كنيسة وأقام المسلمون عليه بعد ذلك المسجد الاقصى ولما دخل عمر القدس كان موضع المعبد أطلالا مطمورة فأزاحها وأقام مسجدا مؤقتا للعبادة أعقبه مسجد الصخرة . وللحرم الشريف سور يطوقه (١٦٠١ قدم فى ١٥٣٠ فى ١٠٢٤ فى ٩٢٢) وفى داخله رأينا ثلاثة أبنية رئيسية : قبة الصخرة وقبة السلسلة والمسجد الاقصى وهناك كثير من الأسبلة والمصاطب والمحاريب والقباب منثورة فى غير نظام

قبة الصخرة : تقام على مثمن قطره ١٧٧ قدما ولها سبعة أبواب تولى شطر الجهات الاربع والغربى منها يسمى باب الجنة ويصلى على الاموات فيه عادة . بناها مروان خليفة دمشق ليظهر على خلفاء مكة منافسيه سنة ٦٩١



قبة الصخرة الشريفة ومنها كان معراج النبي عليه السلام

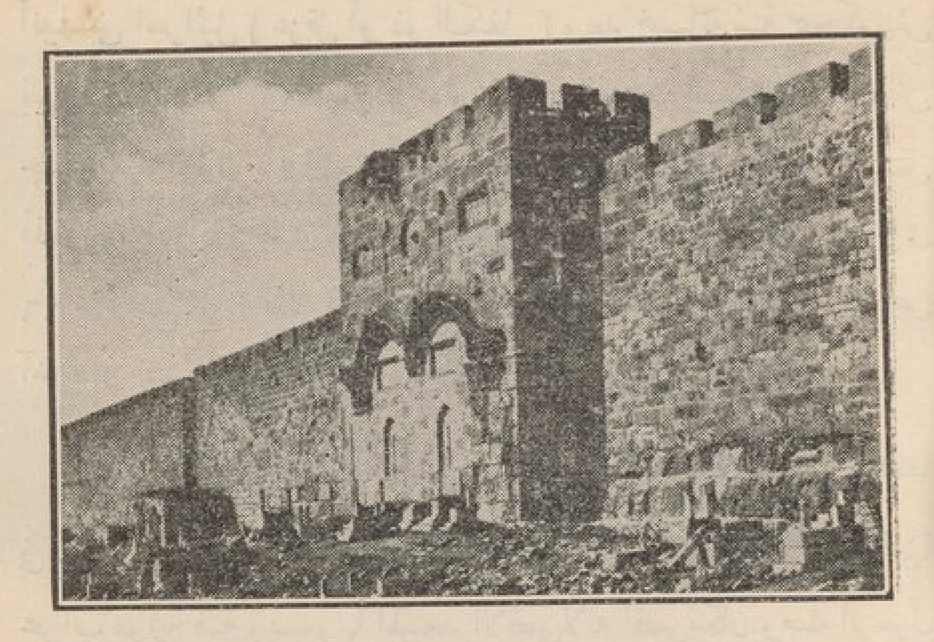
وقيل أنها كلفته سبعة اضعاف خراج مصر. أما صفحات ذاك المثمن من الخارج فيكسى نصفها الاسفل بالرخام المجزع والنصف الاعلى بالقيشانى فى ألوان عدة أظهرها الأزرق والأخضر فى ابداع دونه كل وصف وتزين الأعلى آيات الذكر الحكيم بالخط الكبير وبخاصة سورة (يس) وقد جمل ذاك القيشانى سليمان القانونى وأقام القبة نفسها الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢٢ من خشب مرصع علوه ٩٦ قدما وقطره ٧٥ وتكسى من خارجها بالرصاص وترفعها من داخلها أعمدة تيجانها ورؤوسها بيزنطية ونوافذها مخرمة فى أشكال هندسية جذابة يغشاها الزجاج بألوان تبهر النظر تتجلى من الظلام الرهيب الذى يسود داخلها وفى جانب منها كتب بالخط الكوفى أن

مؤسسها هو هرون الرشيد سنة ٧٢ هجرية مع أنه حكم بين سنتى ١٩٧و٢١٨ ولذلك ظن أنه محا اسم مروان بانيها الاصلى ونقش اسمه وغفل عن التاريخ

والصخرة المقدسة ذات شكل غير منتظم طولها ٥٨ قدما وعرضها ٤٤ ويقال أن النبي لما عرج الى السماء على البراق من فوق تلك الصخرة التصقت بحوافر جواده ، وأخذت تصعد معه حتى جاء جبريل ودفعها الى الوراء وقد أشار الدليل إلى موضع أصبع جبريل واضحاً هناك والى جوارها صخرة عليها طابع قدم الرسول وفوقها شعرتان من لحيته وبجوار ذلك سيفه وعلمه وعلم من أعلام عمر . نزلنا تلك الصخرة فبدا جوفها كأنه مغارة مظلمة فى تجويف وسط الصخر يرن عالياً اذا ضرب باليـــد ويخال القوم أن ذاك المكان ملتقى الارواح بعد الموت ومن ثم أسموه بئر الارواح

وبناء قبة الصخرة فوق مرتفع من الصخر نعلوه بدرج محيط بها من جميع نواحيها وفى أعلى كل درج أقواس الموازين ويقولون أنه فى اليوم الآخر ستعلق الموازين فيها لتزن أعمال الناس جميعاً فمن رجحت موازينه فهو فى عيشة راضية

أما قبة السلسلة فتجاور قبة الصخرة بناها مروان كانموذج للقبة الكبرى وهى تقوم على سبعة عشر عموداً رتبت فى دائرتين متحدتى المركز بحيث يمكن أن ترى كل الاعمدة فى وقت واحد ويقولون أن سليمان الحكيم علق فى هذا المكان سلسلة لكشف شهود الزور الكاذبين فالصادق يستطيع أن تمسك بها أما المزور فلم يكن يمكنه ذلك : ومن ثم سميت قبة السلسلة



الباب الذهبي أو محبس الجن يجاوره عرش سليمان الحكيم وبينه وبين جبل الزيتون قبالته سيمد الصراط يوم القيامة

وذاك النجد الذى أقيمت فوقه القبتان لاشك كان موضع ضرب الغلال (لاروانا) وفوقها أقام داود مذبحه وأعقبه سليمان وهى مقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين معا وقد شراها داود بخمسين (شكلا) من فضة من أروانا الجبوسيتية والجبوسيت أول قوم حلوا القدس وقد بنى داود مذبحه فوقها شكراً لله الذى دفع عنهم شر طاعون كاد يودى ببنى اسرائيل وقد أرسل سليمان الى حيرام ملك صور فأمده بمهندسين من فينقيا وزوده بالاحجار وخشب الارز وأقام أول معبد ثابت لليهود كان آية فى الفخامة يمثل حقا عظمة سليمان وظل حتى كانت سنة ٥٨٦ ق م حين أغار على القدس ملك بابل بختنصر

فأحرقها ودمر المعبد عن آخره ونقل نفائسه غنيمة الى بابل وممن أسر من أنبياء بنى اسرائيل (عزقل أو ذو الكفل) وبعد خمسمائة سنة سمح كورش لليهود أن يعودوا الى القدس ويحملوا نفائس معبدهم القديم ويقيموه من جديد ففعلوا وفى ٤٠ ق م جاء هيرود ملكا على أرض يهوذا من قبل أنطونيوس وأقام المعبد ثانية ارضاء لليهود واستغرق اتمامه ثمانين عاماً وفى ٦٦ م قامت ثورة هائلة فى القدس وفى سنة ٧٠ أحرق المعبد ودمر عن آخره فى نفس اليوم الذى دمر فيه معبد سليمان من قبل

المسجد الاقصى : الى جنوب قبة الصخرة زرنا قبة أخرى دخلناها فى بهو من أعمـــدة عظيمة الامتداد أدى بنا الى قبة فاخرة مزركشة تحتها محراب هو آية فنية ويسمونها المسجد الاقصى لانه أقصى مكان وصله الرسول بالبراق وصعد الى السماء وافدا من مكة الى الاراضى المقدسة ليلا وذاك المحراب مطعم بالعاج ترصعه اللآلىء أقامه السلطان نور الدين سنة ١١٦٨ وجمله صلاح الدين والى جانب من المنبر قبلتان واحدة للمسيح ويظهر فيها أثر قدمه والثانية لموسى عليهما السلام وعلى كل جانب من مدخل المنبر عمودان قريبان كان يعتقد الناس أن من يمر بينهما يدخل الجنة والا فهو من أهل الجحيم وحدث مرة أن جاء رجل بدن كبير الجثة وحاول المرور من بين العمودين فحشر ومات ومن ثم سد ما بين الاعمدة ليمتنع وقوع ذلك

والى جوار الاسوار فى الجنوب الشرقى اسطبل سليمان نزلناه بدرج تحت أرض الحرم واذا به مجموعة من أبهاء وأقبية تقوم على أعمدة كان



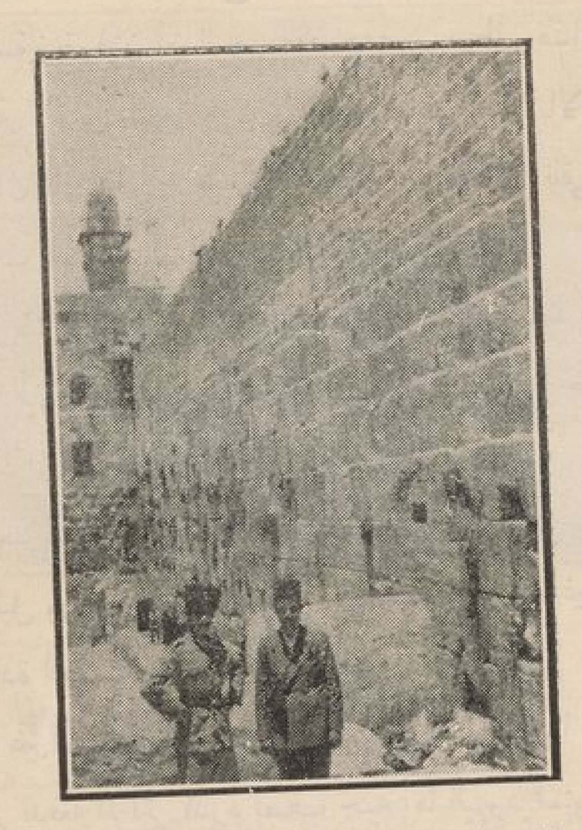
جماهير الاتقياء من اليهود يبكون الى جوار الحائط المقدس

سليمان يربط خيله فيها وقد قلده الصليبيون ففعلوا ذلك فيما بعد ويخال البعض أن البناء من عهد هيرود الاكبر وفى غرفة مجاورة مهد المسيح قيل أن مريم عرضت ابنها فى المعبد عليه والى جانب الاصطبل فيما جاور قبة الصخرة الباب الذهبى أو محبس الجن كان يحبس سليمان فيه الجن متى شاء ويظن أنه أقيم فى مكان باب شوشان الذى بناه هيرود ولقد سده المسلمون لان هناك خرافة تقول بأن النصارى سيغزون الحرم يوما ويدخلون من ذاك الباب ويجاور ذلك عرش سليمان الذى كان يجلس عليه وقبالته من الخلف جبل الزيتون الذى كان يأوى اليه المسيح للتعبد بين أشجار الزيتون ويقول الناس أن الصراط سيمتد يوم القيامة بين هذا المكان وبين قبة

الصعود قبالته فوق جبل الزيتون وسيمسك النبي بطرف الصراط من فوق صخرة رأيناها بارزة على سور الحرم والطرف الثانى للصراط سيمسكه المسيح ثم يمر الناس جميعا من فوقه فمن جازه نجا وإلا فالويل لمن هوى

مبكى اليهود : ويسمونه أحيانا البراق حائط هائل خارج الباب الاوسط للحرم الشريف أقيم من كتل الصخر الكبيرة ينبت العشب خلال شقوقها وهو الحائط الوحيد الذى بقى من معبد داود القديم لذلك يتخذه اليهود مبكى لهم يأوون اليه وبخاصة يوم السبت والجمعة عند الغروب وكذلك فى أعيادهم ويقف الرجال فى ركن والنساء فى الآخر وهم يبكون ويرتلون ويندبون ملكهم القديم الزائل ويسألون الله أن يعيده الى مجده السالف ومنظرهم وهم خشوع رهيب ويزيدهم رهبة أن غالب القوم يلبسون قبعات من وبر أسود فاحم كأنها حلقات غليظة وتتدلى شعورهم من رؤوسهم ولحاهم فى جدائل تسترعى النظر ويقف جندى البوليس هناك ولا يبرح المكان لا ليلا ولا نهارا لأن الحائط مبعث نزاع متواصل بين المسلمين واليهود إذ كل فريق يدعيه لمذهبه ويقدسه

بيت لحم : قمت اليها فى سيارة لأرى قرية المسيح التى ولد فيها هو وسيدنا داود . أهلها جلهم من النصارى الذين يفاخرون بأنهم يمتون بصلة القرابة الى المسيح نفسه . وبيت لحم قرية صغيرة وسط الجبال تقوم بيوتها من حجارة بعضها فوق بعض وأقدس مكان بها كنيسة مريم أقدم كنائس الدنيا



نقف الى جوار البوليس الذى يحرس مبكى اليهود صباح مساء

مدخلها وطىء لا يكاد يسمح بالدخول إلا فى انحناء شديد وذلك اتقاء هجمات العرب والاتراك الذين طالما دخلوها بخيلهم ودوابهم وفى قلبها مغارة تجانبها صخرة مثقوبة فى شكل نجم كبير وتضىء من فوقها المصابيح ابدا وهو مكان ميلاد المسيح عليه السلام ويراقب هذا الموضع حارس مسلم ليمنع تعدى الطوائف المسيحية بعضهـا على بعض اذ كثيرا ما يشجر النزاع بينهم . هنا عطرنا القسيس بماء الورد المقدس الذى تبركنا

به وانعشنا فى ذلك الحر اللافح والى جانب المكان بئر كانت تستقى منها العائلة المقدسة ويقولون أن النجم الذى هدى مريم الى هذا المكان هوى الى تلك البئر . والى اليمين رأينا درجا نزلناه الى هيكل الابرياء حيث ذبح هيرود أطفال بيت لحم جميعا . والى اليسار الغرفة التى تلقى فيها يوسف الوحى ليهرب بالمسيح الى ديار مصر

وفى طريقنا الى بيت لحم زرنا مقبرة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق التى شراها اليهود من المسلمين وهى المكان المقدس الوحيد الذى ظل فى أيدى اليهود الى اليوم

وعلى بعد عشرين كيلومترا من بيت لحم بلدة الخليل وفيها مدفن ابراهيم الخليل وزوجه وأولاده ويوسف الصديق وكثير غيرهم من الاطهار على أن البلدة الفيناها قذرة متربة ومدفن ابراهيم داخل المسجد الذى لم يكن يدخله غير المسلمين الى أمد قريب لكنهم اليوم أباحوا للنصارى الدخول مقابل رسم يدفعه الزائر قدره نصف جنيه أما اليهود فممنوعون من دخوله رغم أن البلدة كلها من بلدانهم المقدسة

جبل الزيتون: أحد الجبال التى تحيط بالقدس ويقع شرقها ويبلغ علوه ٢٦٨٠ قدما كان المسيح يتريض فيه ويخلو بنفسه ليتعبد ويناجى ربه ومنه دخل المقدس يمتطى حماره فانتصر وتوج ملكا وفى حدائق الجبل خرج عليه تابعه (يهوذا) ودل اليهود على المسيح سيده ومن ذروة هذا الجبل صعد المسيح الى السماء . سرنا الى ذاك الجبل المقدس صعدا على

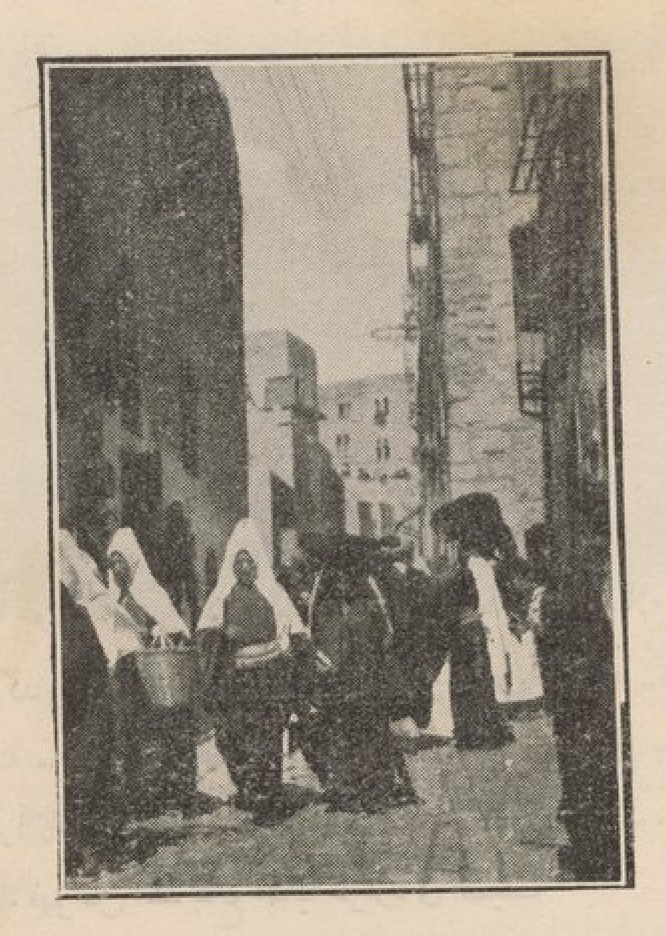


قبر راحيل ام سيدنا يوسف الصديق فى الطريق الى بيت لحم

أقدامنا وفى طريقنا اليه زرنا مقبرة مريم أم المسيح فى مغارة سحيقة نزلنا اليها بدرج عظيم رهيب وقد أقيمت فوقها كنيسة وقد شربنا هناك من مياه بئر مريم الطاهرة ثم مررنا بعد بمقابر لثلاثة آلاف جندى بريطانى ماتوا فى الحرب الكبرى وبعدها زرنا كنيسة ألمانية فاخرة حديثة البنيان وفى ذروة الجبل وصلنا الى مسجد صغير الى جواره قبه تحتها موطىء قدم المسيح يوم صعد الى السماء من هذا المكان وتصف خارج القبة مذابح متعددة للطوائف المسيحية المختلفة يتسلم مفاتيحها حراس مسلمون خشية النزاع الطائفى وفى هذا المكان يقيم النصارى شعائر (تقديسهم) وينصبون خيامهم فى الموسم ويقيمون فيها حول القبة أياماً ولن أنسى مشهد مدينة

القدس كلها من خارج تلك القبة ومن قمة مئذنة المسجد اذ تجلت فى رواء وروعة دونها كل وصف وفى أسفل القبة على منحدر الجبل بستان ناجى فيه المسيح ربه وتعبد بينما كان صحبه نياما وهنا قبض عليه اليهود وتكاد تكسو الجبل غابة من شجر الزيتون العتيق المتفرق وقد وقفنا تحت شجرة منه يقولون عنها أن عمرها يزيد على تسعمائة سنة وتسمى شجرة الآلام وفوق الجبل عدة كنائس فاخرة لم يتح لى الوقت زيارتها

الى البحر الميت : أو بحر لوط . أقلتنا اليـــه سيارة الامنيبوس فأخذنا نسير فى طرق ملتوية تعلو وتهبط فى مهاوى مخيـفة وكانت تحوطنا الربى المجدبة الى الآفاق وبعد أكثر من ساعة ونصف بدا البحر الميت على بعد تحده من شرقه جبال (مواب) المقدسة . تجلى فى بساط أملس من الماء الازرق القاتم وكان الاغريق والرومان يسمونه بحر الاسفلت لكثرة ما أمدهم من تلك المادة . امتداده ٤٨ ميلا وعرضه عشرة بحيث يعادل فى مساحته بحيرة جنيف ومستوى مائه دون مستوى البحر بمقدار ١٣٠٠ قدم فهو بذلك أحط منخفضات العالم أجمع وأعماقه سحيقة تبلغ فى بعض جهاته ٢٣١٠ قدم ويصب فيه من جنوبه نهر الاردن ويسميه الناس (نهر الشريعة الكبرى) ورغم أنه يغذيه بنحو ستة ملايين ونصف مليون طن من الماء فى اليوم فأن أملاحه آخـذة فى الزيادة السريعة لشدة البخر حوله حتى بلغت نسبة الملح فى مائه ٢٥ ٪ ومن هذه الاملاح ٣٤ ٪ من ملح الطعام و ٦ ٪ كلورور البوتاسا و ١ ٪ بروميد المغنزيوم وقد حسب مقدار ما يحوى من أملاح



لا تزال تحتفظ بيت لحم بالقديم فى الطرق والابنية والازياء

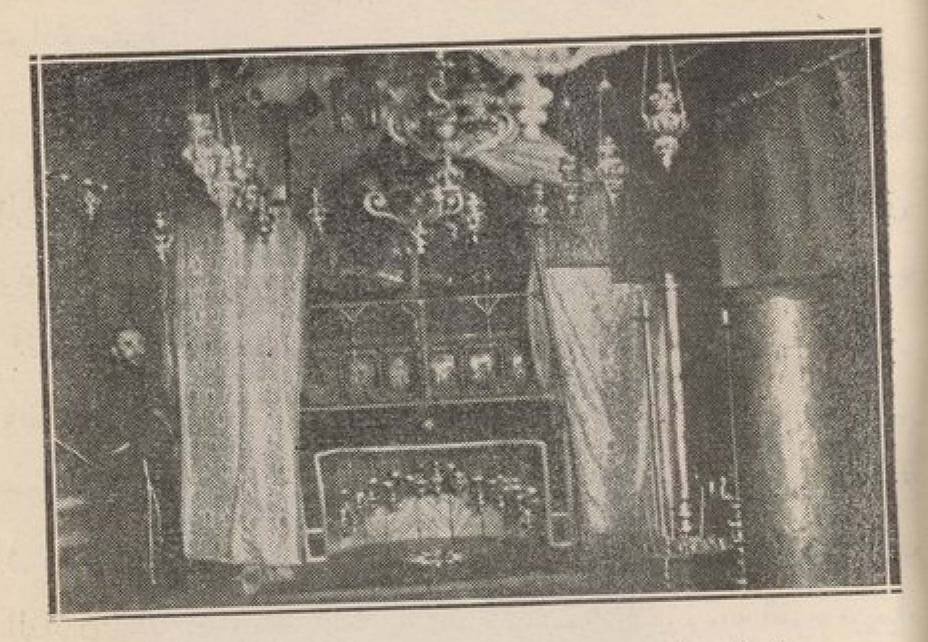
وقدر بنحو ثلاثين الف مليون طن منها ١٥٠٠ مليون طن من البوتاسا ومن ثم عدت فلسطين من أغنى بقاع الدنيا بتلك المادة ولما ذقت ماءه كنت وكأنى وضعت فى فمى حفنة من ملح وملمس الماء لبك . ولقد أخذت امتياز استغلاله شركة من يهود الانجليز وقد مهدت النقل اليه

بالاوتوبيس وأقامت هناك مقصفين ومسبحين وهى تعد نزلا فاخرا . نزلت البحر لأسبح قليلا فكان يضايقنى ملح الماء جدا إذ كان كأنه مادة كاوية فى العين والفم وكلما حاولت الغوص لم أستطع بل كان يدفنى الماء الى سطحه ولما شحذت جسدى لبثت طافيا فوقه زمنا طويلا وكلما حاولت السباحة مالت رأسى الى الغوص وظل الجسد طافيا وهذا خطر السباحة فيه ويحق لهم تسميته بالبحر الميت لان الحياة لا تكاد توجد به قط فبمجرد دخول السمك من نهر الشريعة اليه يموت ويجده القوم طافيا ونهر الشريعة ينبع من جبال لبنان ويدخل فى طريقه بحيرة جليلى ثم يخرج منها ليصب فى البحر الميت وفى هذا النهر عمد يوحنا المعمدان المسيح عليه السلام . ويوحنا هذا هو المعروف عندنا باسم يحيى بن زكريا عليهما السلام

وماؤه كدر اللون مبيض حتى بعد ترشيحه وطعمه لابأس به سقانا غلام المقصف منه ماء مثلوجا وقد أقمت على ضفاف ذاك البحر وفى جوار نهر الشريعة نهاراً كاملا استمتعت خلاله رغم شدة القيظ ووهج ضوء الشمس المحرقة حوله فهو من أشد بقاع الدنيا حرارة فى الصيف

عدت إلى القدس وقد عرجت على مدفن داود فى مقبرة غائرة تحت الارض وسط مسجد داود الذى لايدخله إلا المسلمون ويقال أن سليمان مدفون معه وقد نقشت حول القبر الآية الشريفة (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الارض)

ومن أعجب ما أذكره للقدس شح مائها وندرته فاهم مستمد للماء هناك أحواض يستقبل فيها مطر الشتاء لامداد البلدة فاذا ما أقبل الصيف نضبت



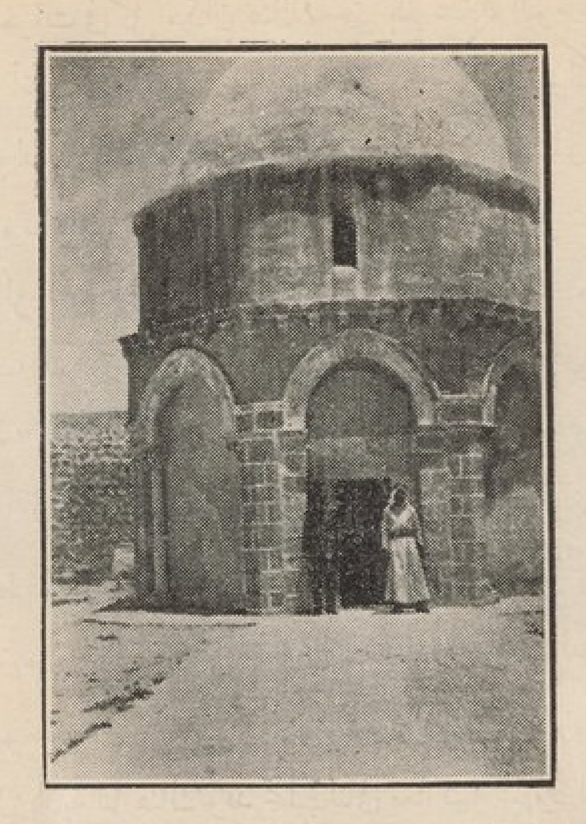
فى مكان تلك النجمة الوضاءة التى تغشى فوقها المصابيح صباح مساء ولد المسيح وحول البقعة تقوم كنيسة مريم اقدم كنائس الدنيا

تلك الاحواض فكان المستمد الوحيد (برك سليمان) الى جانب بيت لحم تطلق منها المياه مرتين فى اليوم لتسير فى أنابيب تؤدى الى صنابير الطرق فى القدس وكنت أدهش لتزاحم القوم حولها قبل ميعاد فتحها بساعات وبيد كل منهم (تنكه) ينتظر ليملأها بثمن يكاد يفوق ثمن النبيذ الرخيص هنالك وكثيراً ما سمعتهم يقولون أن النبيذ أرخص لديهم من الماء العذب وفى كل بيت تجد موضعا لادخار ماء المطر شتاء وفى البيوت الكبيرة يبتاعون الماء بسعر المتر المكعب ثمانية قروش لذلك اعتاد القوم الشح الشديد فى الماء وعدم الاسراف

فيه حتى أن متوسطيهم لا يغتسلون إلا مرة فى كل شهر مما جعل رائحة سوادهم منفرة

الى يافا : أقلني اليها الاوتوبيس فى نحو ساعة ونصف أو يزيد فسرنا فى طرق معبدة جميلة تلتوى فى صعود وهبوط لا يكاد يتصوره العقل والطريق رغم طوله الهائل ولياته التى تكاد تكون معقودة على بعضها فى مواضع عدة كله بالاسفلت وجوانبه بالحجر وله حواجز بالبناء مما يشهد للانجليز بالفضل الكبير والعناية الفائقة فى تعبيد الطرق فكأنهم الرومان فى زمانهم حين عرفوا أن الطرق خير وسيلة ترتبط بها أطراف امبراطوريتهم وبخاصة فى زماننا الذى سادت فيه السيارات . ولما أن قاربنا جانب يافا كثرت منابت الزيتون والفاكهة وبعض الغلال كالذرة والشعير الذى يرويه القوم من مياه الامطار والينابيع وكنا نشاهدهم يدرسون الغلال على الطريقة المألوفة عندنا . وكانوا أحيانا يسوقون طائفة من البهائم تدور حول الجرن وهى تدوس السنابل بحوافرها

واسترعت أنظارنا بلدة (الرملة) الكبيرة . اسمها القديم (أرام) ويقال أنه مدفون بها ثلثمائة من الانبياء والصديقين وبعدها غصت المزارع بأشجار البرتقال فى كثرة هائلة أيدت شهرة يافا به . وأخيرا دخلنا المدينة واذا بها ربوة مشرفة على ميناء آمن لكن تعوزها النظافة والجمال ورغم قدم البلدة لم يبق الزمن بها من أثر وهى فى الاقاصيص المكان الذى ابتلع فيه الحوت سيدنا يونس وهى التى وهبها انطونيوس لكليوباترة دليلا على



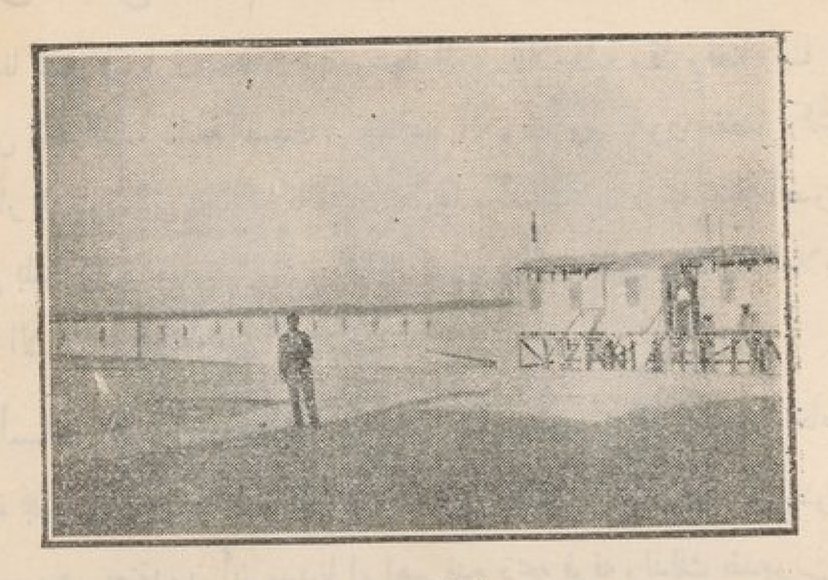
على باب قبة الصعود فوق جبل الزيتون وفيها (يقدس) المسيحيون

حبه لها وكان لها شأن مع صلاح الدين وقلب الأسد وكذلك مع نابليون بونابارت

وجل سكانها من المسلمين وتجاورها ضاحية جديدة تسمى « تل أبيب » فى فلات أنيقة وتؤدى طرقها فى منحدر خفيف الى البحر حيث أقيمت الحمامات وكل سكانها من اليهود ولقد طنطنوا فى وصفها نخلتها جنة نادرة المثال على أنى ألفيتها عادية

ولقد استرعت نظرى حركة هجرة اليهود الى أرض فلسطين ونشاطهم

فى إقامة مستعمرات فى كل مكان هنالك حتى بلغ عددهم اليوم هنـــاك مائة الف نفس مع أنهم منذمائة سنة لم يزيدوا على ثمانية آلاف ولقد نبتت فكرة الوطن القومى لديهم منذ ذاك الحين فأخذت الهجرة تزيد الى فلسطين من جميع الآفاق وساعدهم كثير من مموليهم أمثال رتشلد على شراء متسعات من الارض الزراعيه حتى زادت مساحتها اليوم على مائة وعشرين الف فدان فى الريف لكن لا يزال سوادهم فى المدن الكبيرة ففى القدس ٣٥ الفا وفى يافا ٢٠ الفا وكثير منهم فى حيفا وطبرية وصفد والخليل وفى تل أبيب وحدها أكثر من عشرة آلاف على أن اليهود لا يكونون أغلبية الا فى القدس فقط أما فى سائر البلاد فهم أقلية بالنسبة للمسلمين وانجلترا اليوم جادة فى خدمتهم ومعاونتهم على جعل البـــلاد وطنا لهم لكن ذلك دفع المسلمين والمسيحيين أن يتضامنوا لمقاومة ذلك وكانت روح الكراهية والاهبة للقتال بادية لنا هناك وقد تجلت لنا فى معاكسة اليهود للمعرض العربى الذى أقيم هناك وكانوا معتمدين على الحراب الانجليزية لذلك لم أعجب لما قرأته عن الانفجار الاخير الذى رج البلاد وهدد بمتابعة الثورة حتى توقف حركة اليهود لكنها سياسة التفريق والتظاهر بمعاونة الاقلية هى التى تلعب دورها فى الشرق الادنى كله خصوصا وان أمل انجلترا معقود على المقام فى فلسطين بعد أن بدا الضعف فى مركزها بمصر والعراق فقامت تشيد الحصون وتقيم المين للاساطيل وبخاصة فى حيفا وتحرض اليهود على الهجرة الى هنالك لأنهم أطوع لها من الاعراب الذين أوتوا من العصبية وروح

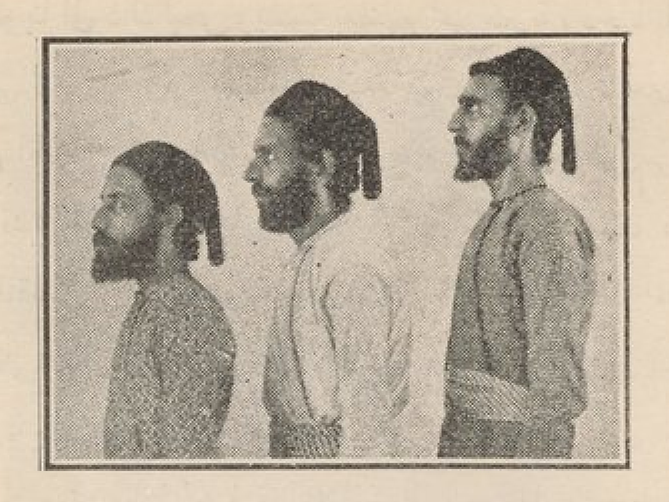


على شواطىء البحر الميت أوطأ منخفضات الدنيا وأملح بحارها

المقاومة شيئا كثيرا ولقد اتبعت الحكومة خطة اجلاء الاعراب عن أملاكهم بالقوة وهم يبيعون أطيب الاراضى لليهود بثمن بخس . وكانت تلك المستعمرات تبدو فى حدائقها ومزارعها اليانعة طيلة طريقنا الى شمال فلسطين والحكومة تأتمن اليهود وتطمئن لهم فى غالب الوظائف والشئون الحربية وهى لا تتوانى فى منحهم كثيرا من الامتيازات المالية والتجارية وساعدهم على ذلك كثرة أموال اليهود واستعدادهم لانفاقها فى هذا السبيل لكن المسلمين والنصارى حانقون جد الحنق على ذلك والحكومة تحاول إغراء العرب أن يتوطنوا فى شرق الاردن تلك الجهات المجدبة التى هى الى البادية القاحلة أقرب .

إلى دمشق الشام: قمت اليها فى سيارة قطعت بنا ٣١٥ كيلومترا فأخذنا نسير فى طرق معبدة جميلة وسط الربى اللانهائية وقد وقفنا زمنا فى نابلس تلك البلدة ذائعة الصيت فى صناعة الزيوت والصابون بفضل كثرة أشجار الزيتون التى بدت لنا كالغابات حولها وكذلك لان تربتها غنية بالصودا وهى بلدة كبيرة تقوم مبانيها بالحجارة كسائر مبانى فلسطين والمدينة اسلامية بحتة الا أن بها طائفة من اليهود هم:

السامريون: ويدعون أنهم من نسل يعقوب ولهم مذهب خاص ولغة عجيبة يؤدون بها صلواتهم فوق جبلهم المقدس (جريزيم) فى جنوب نابلس وهم يعتقدون أن سيدنا ابراهيم قدم ذبحه فوقه ولذلك يقدمون الذبائح من سبعة حملان ذات لون أبيض وعند سلخها ترش بالملح لان القرابين لا تقبل فى زعمهم دون أن تكون مملحة وتشوى شاة فوق البقعة التى قدم فيها ابراهيم الخليل ذبحه وهم يحرمون الانصاب والصور التحريم كله والعجيب أن عددهم لا يزيد على مائة وخمسين وقد لبثوا محافظين على شخصيتهم ومذهبهم من عهد سيادة مملكة بنى اسرائيل منذ ٢٥٠٠ سنة ولعلهم أقدم الفرق الدينية فى العالم وقد أبوا أن يختلطوا بالمصاهرة مع غيرهم من اليهود فحفظوا سحنهم الخاصة التى رأيناها فى شوارع نابلس وكاد يؤدى بهم ذلك الى الانقراض وهم يقولون بأن مدينة القدس هى نابلس ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه ولهم توراة غير التوراة التى بأيدى سائر اليهود ويبطلون كل نبوة كانت فى بنى اسرائيل بعد موسى عليه السلام وبعد



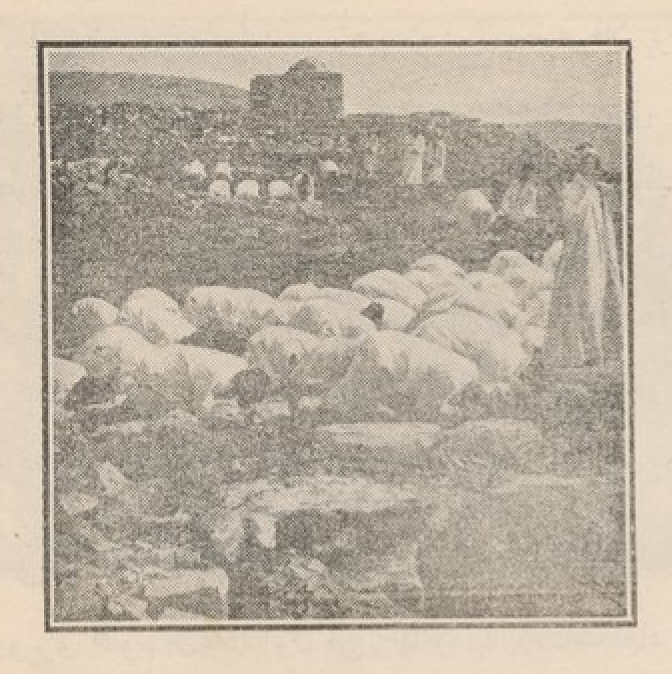
قسس السامريين

يوشع عليه السلام فيكذبون بنبوة داود وسليمان مثلا ولا يقرون بالبعث البتة وهم لا يستحلون الخروج من الشام أبداً وهم يزعمون أن التوراة التى بأيدى سائر اليهود محرفة أما تلك التى بأيديهم فأصلية على أنهم لا يخرجونها للناس أبداً ويقولون بأن الله أمر داود أن يبنى بيت المقدس فى جبل (غريم) أو جبل نابلس وهو لديهم الطور الذى كلم الله فيه موسى فخالف داود الامر ويقولون بأن التوراة نزلت بلغتهم وهى قريبة من العبرانية ثم نقلت الى السريانية

عرجنا بعد ذلك على الناصرة وهى البلدة التى مضى فيها المسيح طفولته لذلك كانت مقدسة عند المسيحيين وكثرت فيها الكنائس وكان سواد سكانها منهم وبعدها أخذنا نتسلق ربى كانت تشرف على البحر الجليلى العذب وفيه يصب

نهر الشريعة من جانب ويخرج من الآخر وهو النهر الذى عمد فيه المسيح عليه السلام . هوينا الى ذاك البحر ويسميه بعضهم بحر طبرية ودخلنا بلدة طبرية التاريخية التى تقع عليه وهى مدينة رومانية أقيمت على تلك البحيرة وغالب مبانيها من الحجر الاسود الذى يكثر حولها وكانت من الحواضر الرومانية وبها قلعة قديمة رأيناها مشرفة ولقد تناولنا الغداء على ضفاف ذاك البحر التاريخى المقدس . ثم قمنا مودعين أرض فلسطين تلك البلاد المقدسة التى لايكاد يمضى فيها أسبوع بدون أن تقام بها حفلة دينية للمسلمين أوالمسيحيين أو اليهود وبعض تلك الاعياد مشتركة اذكر من بينها زيارة النبى موسى الذى يحج أهل جميع الاديان اليه فوق التلال شمال البحر الميت حيث مات سيدنا موسى والبلاد لا تكاد تخلو يوماً من الغرباء الذين يحجون اليها من كافة الاديان حتى عاون ذلك كثيرا على ماليتها الفقيرة . وأول ماعرف الانسان تلك البلاد كانت تحمل اسم (بليشيت) فى نطاق ضيق بين جبل الكرمل (غرب حيفا) والساحل وحدود مصر وكان يقطنها شعب غير سامى اسمه فلشتم أو فلسطين ثم أطلقت الكلمة على البلاد التى نزلها اليهود

اجتزنا نهر الشريعة عند منطقة الحدود بين فلسطين وسوريا والنهر نحيل ماؤه ضحل جلسنا على ضفافه حتى فتشت امتعتنا وفحصت جوازاتنا وبعدها كنا نسير فى أرض سوريا شبه الصحراوية التى كانت تنتثر بالحصى الاسود ولا يكاد ينبت بها زرع لذلك بدا الاقليم أكثر جدبا من سابقه وهنا أخذنا نجوز تلال حطين التاريخية ثم تلال :



السامريون يقيمون صلاتهم فوق جبلهم المقدس

الدروز: وتزينها قراهم الفقيرة وهم قوم شدادالبأس غالبوا الفاتحين وآخرهم الفرنسيون ويقال أنهم يعبدون الشمس ويعتقدون فى تناسخ الارواح وان روح القتيل تدخل جسداً غيره وهذا ماشجعهم على لقاء الموت وقد حدثنى القوم أنهم كانوا يهاجمون المدافع ويمسكونها بأيديهم مستهينين بالموت وهم لايحزنون عند موت أحدهم لاعتقادهم فى بقاء روحه ويقول البعض أنهم يعبدون الحاكم بأمر الله ويرون أن الله خلق عدداً محدوداً من الارواح الآدمية تحل بعــــد الموت أجساد المواليد الجديدة

ولا يشربون إلا الماء واللبن ولا يأكلون إلا ماينتجونه من أرضهم وقطعانهم ويلبسون من غزل أيديهم وهم يتعبدون خفية فلا يراهم أحد وينتشرون فى قراهم الممدودة بين جبل الكرمل والبحر الجليلى

بدا الطرف الجنوبى لجبال لبنان فى ربى جافة مغبرة وقد لمحنا بقعاً منثورة من الثلج الابيض فوق الذرى وهو الذى يغشى الجبال كلها فى الشتاء ومن مصهور الثلج لاقينا جدولا نحيلا كأنه الثعبان فى لياته المعقوفة وهنا بدأت الخضرة وعمت المزارع ثم باغتنا منظر دمشق الى شرق الجبل وكأنها غابة مغلقة فى وهدة تقوم من حولها النجاد الجافة وبخاصة من الغرب

دمشق : دخلنا الشام كما يسمونها وهى أقدم مدن الدنيا إذ لايعرف متى بدأت ويرى القوم أن عادا أول من نزلها وأنها إرم ذات العماد ومنهم قائل بأن منشئها نمروذ أو دمشاق بن كنعان وبعضهم قال أن أول من بناها دمشقس مولى الاسكندر وبعضهم ينسبونها الى الروم وهذا يكذبه ورودها فى التوراة على لسان موسى الكليم على أنها قديمة صحبت ملوك كنعان والروم وآل جفنة وبنى أمية وقد هدم أبو جعفر كل مخلفاتهم فيها فلم يبق إلا النادر

وأول ما استرعى أنظارنا فيها كثرة المعسكرات الفرنسية التى تحوطها هذا الى كثرة أنواع الجند وفضلا عن أبناء البلاد رأينا جنود الفرنسيين والسنغاليين والمغاربة مما يشعر بأن فرنسا لا تزال قلقة على مركزها فى تلك البلاد المضطربة يؤيد ذلك ما سمعناه مرارا من أن فرنسا تفكر فى التنحى



بعض الدروز يملأون جرارهم من احواض الماء

عن الانتــداب لأن بقاءها يكلفها غاليا فأغلبية البلاد الساحقة تقاوم الانتداب ولا ترغب الا فى الاستقلال ولقد انفجرت البلاد فى سنة ١٩٢٢ محاولة طرد الفرنسيين فأعمل الفرنسيون قنابلهم فى البلاد وهدموا منها الكثير وفى دمشق حى كامل متهدم يسمى (الميدان) كان مخبأ الدروز والمسلمين وقد اتفقوا على محاربة الفرنسيين وظلوا يقاومونهم اربع سنين كلفت فرنسا مائة الف جندى ومبالغ طائلة من المال وتد قص القوم على عجبا فى مقاومة الدروز لفرنسا . حدث مرة أن القائد الفرنسى قام بعشرين الف جندى ليؤدب الدروز فى جبالهم فلم يرجع من الحملة جندى ولا دابة ولم تستطع فرنسا أن توغل فى البلاد بعض الشيء الا باستهواء طائفة من المارقين

وجلهم من غير المسلمين وأخذت تساعد على نشر الملاهى وتستميل القوم بالمال والنساء ولقد حدثنى شيخ عن مبلغ الفساد وانتشار الرشوة وقال بأن صاحب الحاجة لا يقضى طلبته إلا بأحد أمرين المال والنساء وقد لاحظت كثرة المراقص ودور الملاهى الفرنسية فى كل أرجاء البلاد

والشبان مندفعون فى تيارها وتلك طريقة لاشـــك تنال من الاخلاق كثيراً وتنسيهم واجبهم القومى ولقدبدا الفرق عظيما فى تلك الناحيةبين دمشق والقدس ففى القدس لا يباح التبرج ولا البغاء مطلقاً ودهشت مرة لما رأيت دلالا فى سوق البلدة يطوف (بفنوغراف) ليبيعه فاستوقفه رجل البوليس وخبره أن ادارته فى الطريق أمر غير مباح فى ذاك البلد المقدس

حللت نزلا وسط الميدان الرئيسى لدمشق يسمونه (ميدان مرجه) يتوسطه عامود تذكارى والى جانب منه نهر صغير يشق البلدة ويسمونه بَرَدَى أو (أبانا) ماؤه ضخل آسن ولا يلبث النهر أن يختفى بمائه الضئيل منسابا تحت أرض المدينة وشوارعها مسافات طويلة وقد رصفت جوانبه الظاهرة بالحجارة وأطلت عليه فخر المبانى وبخاصة الحكومية والميدان يعد مركز حركة النقل من ترام وغيره والى ورائه شارع النصر وكان اسمه من قبل شارع جمال باشا يتوسطه متنزه مزدوج تصف فيه المقاعد ويؤدى أحد طرفيه الى سوق الحميدية ولعله أجمل نواحى المدينة وأكثرها حركة يحكى الموسكى عندنا وسقفه مقبي فى بوائك من حديد يكسوها الزنك وقد عرجت هناك على فرع بنك مصر لاصرف بعض النقود . والسوق ينتهى



نهر الشريعة حيث عمد المسيح عليه السلام وعند القنطرة الحد الفاصل بين فلسطين وسوريا

يبعض البوائك الاثرية فى الهندسة البيزنطية التى أدت بنا الى :

المسجد الاموى : دخلته فراعتنى فخامته وفسيح أبهائه ودقيق نقوشه فهو حقا مفخرة فنية اسلامية تتوسط فناءه الرئيسى نافورة أنيقة للوضوء وفى جانب منه مدفن رأس الحسين تجاورها شعرتان من لحية الرسول وخارج الحجرة طاقة من فضة مزركشة يسمونها خزانة يزيد بن معاوية وما أن دخلت الليوان الرئيسى الداخلى حتى وقفت مبهوتا من عظمة ما رأيت بوائك

شاهقة تتوجها أقبية أخرى صغيرة كسيت بالقيشانى الازرق البديع تمتد الى قصارى مسارح النظر وتزين الجدران نقوش يحارفيها اللب أما المحاريب والمنبر فمن مقصوص الرخام المطعم فى أسراف كبير . وفى وسط كل هذا مدفن سيدنا يحيي والمسجد أصله معبد رومانى حوله المسيحيون كنيسة مارى حنا ثم جاء المسلمون فأقاموه مسجداً تزينه عدة منارات مختلفة الهندسة وكان ذلك فى خلافة الوليدبن عبد الملك كلفه ١٤٤ قنطاراً من الدنانير أى نحو عشرة ملايين دينار وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة وكان فى ذلك المسجد ستمائة سلسلة من ذهب تعلق فيها المصابيح وزينت جدرانه بالفصوص والذهب الخالص وقد كتب عليه بالذهب على اللازورد (ربنا الله لا نعبد إلا الله . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين) ويقولون أن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة

قبر صلاح الدين : فى ناحية منزوية من الحى الذى يجانب المسجد الاموى قادنى الغلام وسط ازقة حقيرة الى قبة غير ذات بال حولهـــا مجموعة من شجر فى غير تشذيب لا تكاد تسترعى نظر المارة قط وقال هنا مقر صلاح الدين بجانبه قائده نور الدين فوقفت خجلا مبهوتا وقلت فى نفسى اهذا الضريح يناسب مقام بطل الاسلام الذى اعترف له بالفضل حتى ألد أعدائه وضربوا المثل بعظمته وشهامته ! انها والله لوصمة عارفى جبين الاسلام أن يكون جزاء حاميه هكذا . وممن يدفن فى دمشق معاوية نفسه



وسط ميدان مرجة الرئيسي فى دمشق

المتحف . والى جوار المسجد الاموى دار قديمة أقيم بها متحف الآثار وهو على صغره مقسم الى ثلاث غرف الاولى للآثار العربية وبها مجموعة قيمة من أسلحة وأحجار ولعل أجمل ما بها مجموعة النقود التى أهداها تيمور المصرى وتحوى نماذج من أغلب نقود الخلفاء كلهم وقد استرعى أنظارنا دينار هرون الرشيد وصلاح الدين وعبد الملك بن مروان وأعجبها دينار فيصل الذى سكه يوم حكم سوريا وظن أن ملكه سيدوم ولم يظهر من هذا الدينار سوى أحد عشر فقط إذ لم يدم ملكه أكثر من ستة أشهر

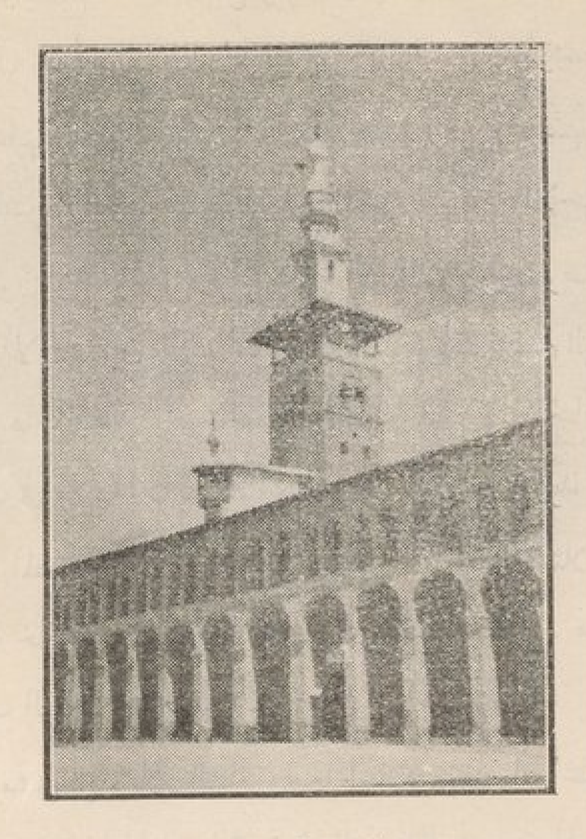
وفى الغرفة الثانية مجموعة من الآثار الاغريقية والرومانية . وفى الثالثة خليط من آثار بابل وأشور والكلدانيين وغيرهم وأمام المتحف دار الكتب العربية وبها مجموعة قيمة من المخطوطات رتبت فى

صنوف مختلفة من التفسير والتوحيد والحديث والجغرافيا والكيمياء الخ وبها حجرات أعدت لمن أراد الاطلاع من الناس جميعاً

وفى المدينة كثير من البيوت الاثرية القديمة على الطراز العربى والتركى أجملها دار العظم فناؤها فسيح تتوسطه نافورة جميلة وتطل عليها حجرات وليوانات من رخام رصع فى نقوش عربية ساحرة

ومن الطرق التى تروق السائح كثيرا الشارع المستقيم سمى كذلك لانه يمتد وسط البلدة القديمة كلها من باب الشرق وهو جزء من السور القديم الى مايجاور سوق الحميدية ولكنك تدهش إذ تجده ملتويا وفى غير استقامة ويسميه الناس أحيانا شارع مدحت باشا ونصفه المجاور لسوق الحميدية شبيه بالسوق فى تقوس سقفه وانتظام المتاجر حوله أما باقيه فأزقة لا شأن لها إلى أنه يروقك ما فيه من بيوت قديمة وصناعات يدوية دقيقة وفى آخره زرنا مصنع النحاس (للنعسان) وهو أشهر مكان فى دمشق فى اشغال النحاس المثقل بالفضة فى نقوش ومخطوطات جميلة وتلك شهرة لدمشق من قديم وغالب طرق البلدة ترصف بالحجارة الصغيرة التى تؤلم الاقدام فى السير وهى حجارة من بازلت أسود عظيم الصلابة يكثر مستمده حول المدينة

وفى دمشق خمسة خطوط للترام واحد يؤدى الى الميدان، وهو اليوم مكان خرب من أثر قنابل الفرنسيين وآخر الى ناحية يسمونها (دوما) على بعد خمسة عشر كيلو مترا نصفها الاخير بساتين يانعة ممدودة ثمارها دانية تتوسطها المقاهى ولك أن تتناول من الفاكهة ما طاب لك بدون حساب أو رقيب وكان شجر المشمش إذ ذاك مثقلا بثمره فى أنواع قد تفوق الاثنى عشر فى



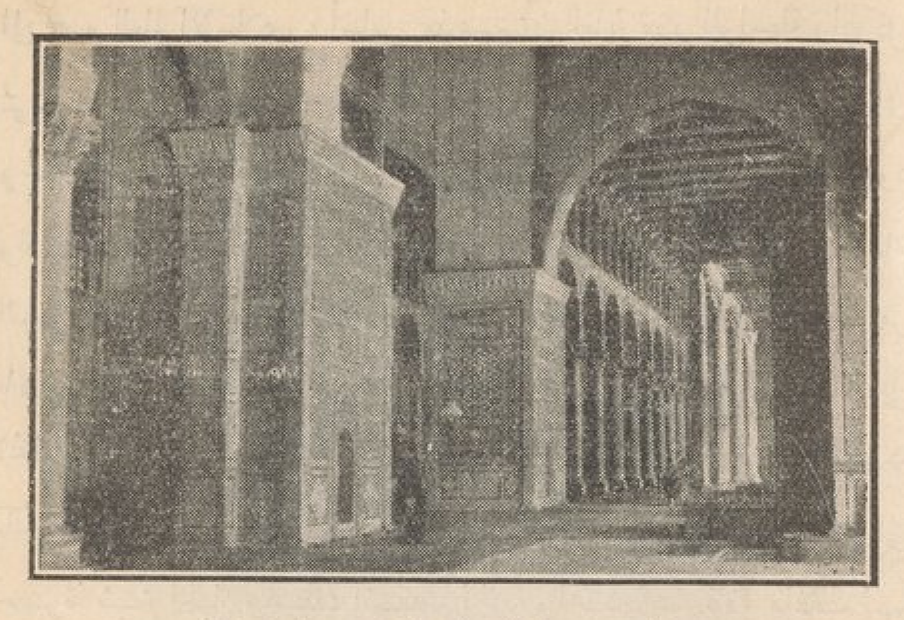
مئذنة المسجد الاموى فى دمشق

حلاوة ومذاق شهى . ولعل أجمل ناحية (المهاجرين) وهى على ربوة تشرف على دمشق كلها فيبدو المنظر ساحرا . هناك جلست على مقهى فأسرع الرجل الى يقدم كوب ماء مثلوج والى جانبه كأس صغيرة (بيشة) فى قرارها قطرات من القهوة (السادة) وتلك من آدابهم فى تحية القدوم ثم طلبت الشاى الذى أنعشنى وسط تلك الجنة الخلابة والحى مسكن الطبقات الراقية كله بيوت مشيدة من الاحجار فى جمال وجدة والمارة يسيرون فى وقار

والنساء محجبات بتناع أسود ثقيل ، يرتدين ملاءات على النظام المصرى السابق والرجال مختلفو الأزياء المتقدمون فى السن مطربشون يلبسون (القفاطين) عليها (الجاكته) والشبان فى حللهم الغربية بعضهم بالطرابيش والبعض بالقبعات . والعامة فى سراويلهم الثقيلة المنتفخة والاحزمة العريضة والكل مؤدبون وهم أهل كرم وميل الى اللهو وخصوصا يوم السبت والاحد حيث لايشتغلون الا بالمجون والتهتك وتلك سمعة البلدة من قديم حتى منذ عصرها الذهبي وهو العصر الاموى فهى كانت عاصمتهم ولما انغمس أولئك فى ملاذها دالت دولتهم على يد الوليد بن يزيد

وهم يحبون المصريين الا أن فى حديثهم شيئا من الجفاء فمثلا سألت أحدهم عن ترام لجهة خاصة وكان قريباً فنظر الى مقطباً وقال : هيك بتشوف الرقعة بتشوف الرقعة ! فى نغمة آلمتنى

ومظهر دمشق بل وبلاد الشام جميعاً اسلامى بحت اذ أغلب القوم من المسلمين وقد تجلى هذا المظهر ليلة مولد النبى فلقد قصدت المسجد الاموى لصلاة العشاء فكان غاصا بالناس على سعته وبعد الدعاء خرج الجميع فى مظاهرة يتقدمها الشباب يحملون السيوف والاعلام والعصى وكان بعضهم يصيح بالادعية الدينية والبعض بالنداءات الوطنية مثل (ابن سوريا مايهان! الحرية والاستقلال!) وانتهوا الى ميدان مرجة ووقفوا يهتفون طويلا أمام دار الشرطة ثم ساروا الى دار مجلس الوزراء وهتفوا طويلا ولم يتدخل البوليس حتى انصرفت المظاهرة بسلام وكانت تزين أضواء الكهرباء دور

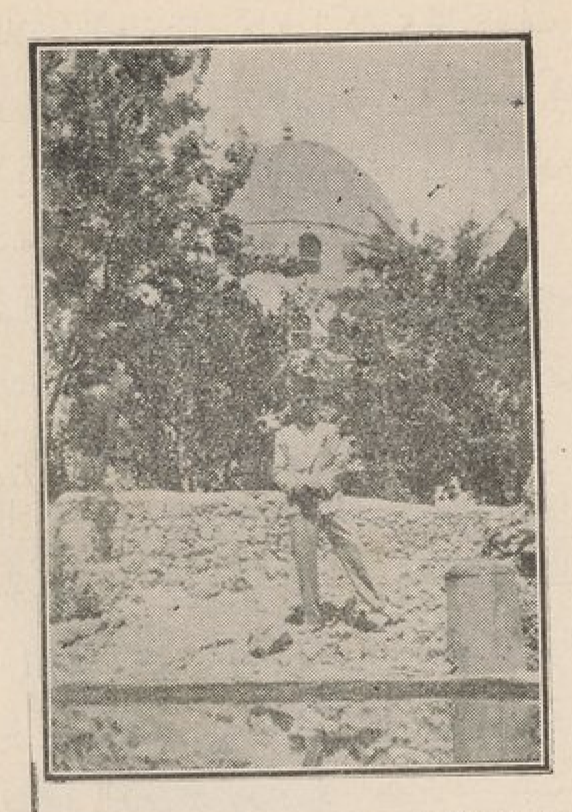


المسجد الاموى من الداخل آية فنية ومفخرة اسلامية كبرى

الحكومة كلها وتطوق ابواب المتاجر اقواس من اغصان الشجر وسطها الثريات وتكسى الجدران كلها بالبسط (السجاد) فى كثرة تسترعى النظر وفى التاسعة مساء آويت الى النزل واذا فيه مهرجان لقراءة قصة المولد وكان يحضرها حفل حاشد وتلك عادتهم فى كل بيوتهم وغالب فنادقهم فاعجبنى ذاك المظهر الاسلامى وشدة محافظة القوم على تقاليدهم اكثر مما نراه عندنا وفى آخر الحفلة طافوا علينا يرشون ماء الورد ويقدمون اكياس الحلوى

ومن المسلمين هناك اقليات غير سنية وبخاصة طوائف الشيعة الدينية رأيت بعضهم هناك وعلمت أن جلهم يقطنون قرى الجبال الغربية وجلهم من فلول طائفة الاسماعيلية وهم من غلاة الشيعة قاموا لهدم الاسلام فى فارس وامتدوا

الى جميع العالم الاسلامى ، أساس مذهبهم أن الغاية تبرر الواسطة وان كل شىء مباح ويرون أن روح الانسان من روح الله العليا ويشكون فى وجود الله وكان الاغتيال المنظم مرماهم يدبرون لقتل الخلفاء وذوى النفوذ والسلطان من المسلمين وهم الذين نظموا طائفة (الباطنية) نسبة الى الامام الباطن المستور وفئة (الفـــدائية) يلقون فى افهام بنيهم أن الدين يأمر بالاستهانة بالحياة نظير المتاع الكامل فى الآخرة فكانوا يربون الاطفال على المخاطرة والقتل فى غير خوف وكان لهم معاقل فوق رءوس الجبال يحوطونها بالحدائق الغناء بشلالاتها وجداولها وقطوفها وزهورها ويدعون الفتيان الى حضرة شيخ الجبل وهنـاك يسقيهم الخمر والمخدرات فاذا ماغاب لبهم نقلوهم الى تلك الحدائق ومقاصيرها التى زودت بالرياش الفاخر وهناك تشجيهم انغام الموسيقى فاذا ما أفاقوا لمسوا نعيم الجنة فى القطوف الدانية والكؤوس الذهبية والغيد الحسان وبعد أخذهم بقسط من هـــذا المتاع يسقون المخدر ثانية فتغيب عقولهم ثم ينقلون ثانية الى حيث أتوا ويوهمون أنهم لم ينقلوا من مكانهم وأن ما رأوا طيف الجنة التى وعد الله بها من ضحى بنفسه ولقد قال البعض بأن الذى كانوا يسقونه هو (الحشيش) يزرعونه بكثرة فى تلك الجهات ولقد أطلق الاوربيون على تلك الفئة من السفاحين الذين كان لهم شأن فى الحروب الصليبية فئة الحشاشين (Assassins) ولا تزال منهم بقية فى جبال الشام ومعنى تلك الكلمة الافرنجية اليوم (السفاحون)



تحت تلك القبة المتواضعة يدفن صلاح الدين بطل الحروب الصليبية

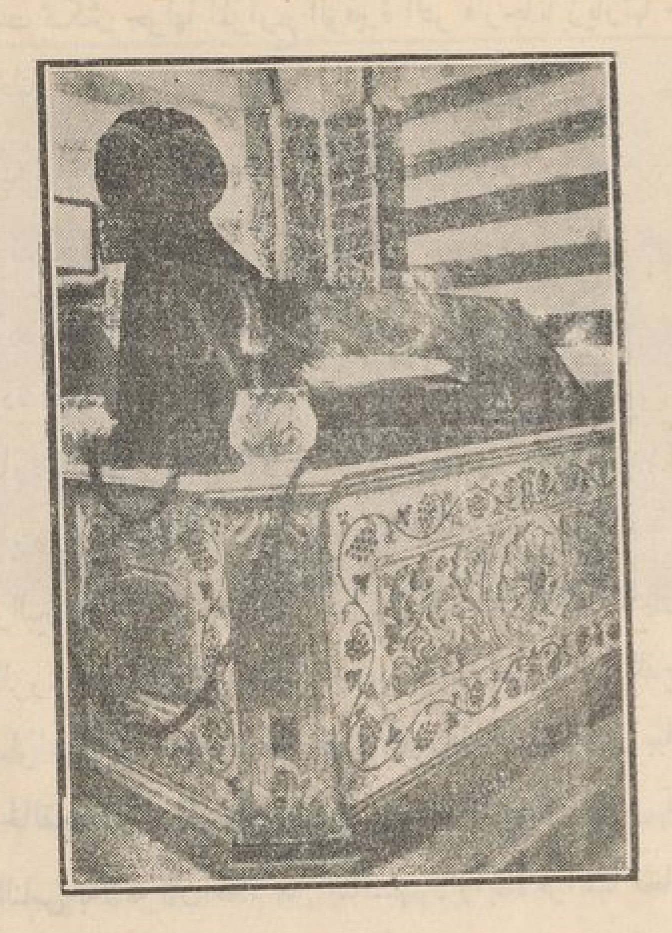
والمعيشة فى بلاد الشام رخيصة ولعل الاجنبي يلاحظ ذلك أكثر من ابن البلاد لان الجنيه الانجليزى كان يساوى ٤٣٠ قرشا سوريا أى نحو أربعة ليرات سورية وربع ووجبة الطعام التى كنت أدفع فيها عشرة قروش مصرية من أفخر الاكلات الشهية، حدث مرة انى اشتهيت (الكباب) فدخلت أحد المطاعم وجاء الغلام يقول : طلبك خيو فقلت : كباب وكفتة ولعل الكفتة عندكم شهية قال : أكتير شلبية ! قلت هات لى نصف رطل فوقف

الرجل دهشا فكررت عليه الطلب لجاءني يكدس أمامي مقداراً هائلا من اللحم هو رطلان ونصف فقلت ما هذا كله ؟ قال نصف رطل وعلمت أن الرطل السوري يقارب خمسة أرطال مصرية فأكلت ما يقارب أوقية على حسابهم وتركت الباقي وهو ثلاثة أرباع ما قدم لي ولم يكن ثمن كل هذا كبيرا اذ طلب مني اثنى عشر قرشا مصرياً

وفي مطعم آخر قرأت قائمة الاطعمـــة فتخيرت الاسماء الغريبة التي لا أعرفها كي أجربها فكان الصنف الاول (مألوبي شامي) أي مقلوبة شامي لجاءني الرجل بطبق من الرزاغرق في لبن حامض وفي وسط ذلك نثير اللحم فذقته واذا به منفر وكان الصنف الآخر (بقلى) واذا بها الباقـلة الحمقاء (الرجلة) التي لا أحبها فوليت صوب الحلوى وطلبت صنفاً اسمه (بوظة شامي) فاسفرت عن (دندرمه) من الفستق والشمام والبطيخ مختلطة فكانت منعشة نوعا ولو أني لا أشتهي (الدندرمة) كثيراً فقلت في نفسي كفاني فأنا اليوم غير موفق في الطعام فلأطلب بعد اليوم من الاصناف ما أعرفها

غادرت دمشق تلك البلدة التي تموج بنحو ربع المليون من السكان في أزيائهم المختلفة وسحنهم الجميلة وأن أفسد من هذا الجمال منطق منفر ممطوط وروح تعوزها الرشاقة والخفة . قمنا صوب :

بعلبك: مسيرة مائة وعشرين كيلو مترا بالسيارة سلكناها في طرق ملتوية واسترعى نظرنا في الطريق قبر (العظم) من قواد السوريين الذين

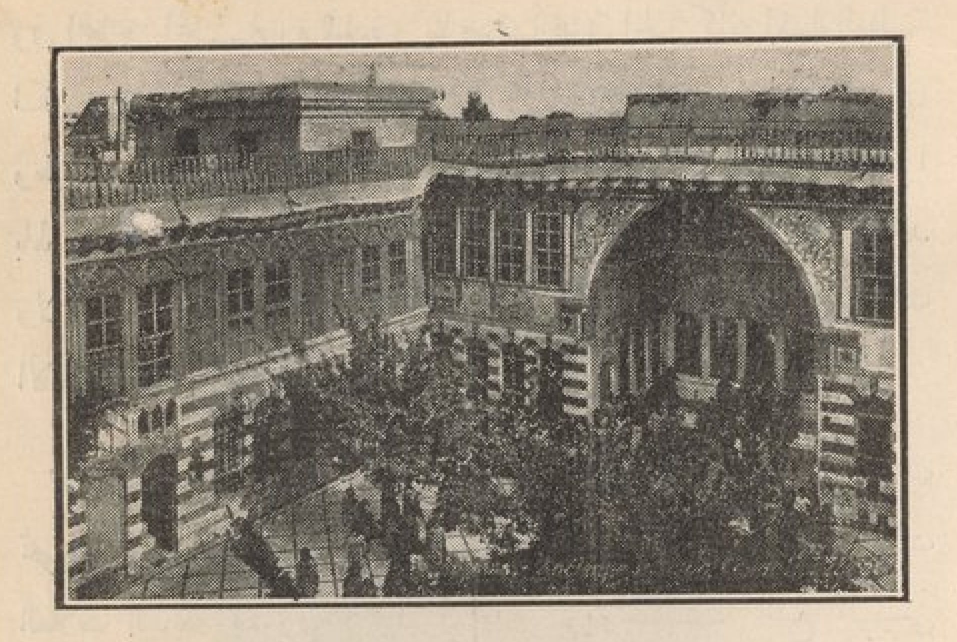


ضريح صلاح الدين الايوبى

قتلوا فى الحركة الوطنية فى هذا المكان ، هنا دخلنا حدود لبنان الكبير وفرنسا
تقسم ادارة البلاد قسمين : سوريا وهى جمهورية لها رئيس وطنى تحت اشراف
فرنسا وتلك خطوة ارغمت عليها فرنسا لما رأت من شدة مقاومتهم لحكمها
أما القسم الثانى فلبنان وعاصمته بيروت وتلك ولاية فرنسية لم تعط من المنح
ما أخذته سوريا وفى اكثر من نصف الطريق مررنا برحله احدى المصايف

الهامة وكانت تكثر حولها المزارع الوفيرة الثمر فأرجأنا زيارتها حتى نعود وأخيراً دخلنا

بعلبك: آخر الآثار العظيمة لروما الوثنية وعلى مقربة من نهر العاصى وهى قرية قديمة ليست بذات بال اتخذها الروم محلة لان موقعها صحى الى جانب نبع ماء كبير يتفجر من تحت شرفات الصخر فى غزارة هائلة فيتجمع فى نقيعة ممدودة اقيمت عليها المطاعم التى تناولنا فيها الغداء الشهى واستمتعنا بهوائها البارد المنعش العليل لان البلدة تعلو البحر بنحو ١١٢٠ متر تقريبا وأجل ما يزوره المرء بها الآثار الرومانية التى أقاموها فى هندسة خليط من الرومية والبيزنطية ويقولون أن الذى بنى المدينة فى الاصل سليمان بن داود ولما جاء الروم جددوها وكان (بعل) معبودا فيها من الصابئة الذين بنوا هذا الهيكل ليدلوا على اقتدارهم وهو الذى يقول الله تعالى فيه (اتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) ولما ظهرت المسيحية وأيدها الروم أخذوا فى تخريبه مخافة أن يفتن الناس به لانه كان أفخم من كنائسهم ، رأيناه فراعتنا فخامته وبخاصة معبد (جبتر بعل) بقى من عمده الاربعة والخمسين ستة فقط تشمخ فى الجو فى علو ستين قدما ومحيط تيجانها ٢٢ قدما وقد نقلت صخورها من محاجر البلدة التى تبعد عن المكان بنحو كيلو متر وهناك بعض أعمدة من رخام استحضرت من مصر مما أيد مبلغ جبروت القوم وتقديسهم لآلهتهم وكم قاست المعابد من مغيرين حاولوا تدميرها وزلازل أوشكت أن تدكها لكن مابقى من تلك الآثار يؤيد صمودها لمختلف الديانات التى تعاقبت



اقدم بيوت دمشق واجملها فى الحى الاسرائيلى

عليها فى أزمنة كانت العصبيات الدينية آخذة من الناس كل مأخذ ولقدأشار قدماء المصريين والاشوريين الى بعلبك فى آثارهم وأسموها (بلبيكى)مقر عبادة (بعل) وجاء الاغريق والفوا بين الاله بعل وآلهتهم (هيليوس) وأسموها (هليوبولس) ولما تملكها الروم الفوابين (هيليوس) ، (جوبتر) ومن ثم خصوا المعبد الرئيسى بجوبتر آله هيليوبولس وانتشرت عبادته حتى فى ايطاليا نفسها والذى شاد تلك المعابد التى أثارت أعجابنا هو (أنطونيوس يوس بين ١٣٨ ، ١٦١ م) ولقد أذكرتنى تلك الآثار الشامخة بمخلفات أجدادنا التى نطاول بها الامم ففى جدران البناء رأينا صخوراً هائلة طول الواحد ٦٤ قدما رفعت الى علو ٢٣ قدما فعجبنا كيف أمكنهم رفع هاتيك

وفى المحاجر المجـــاورة للبلدة رأينا صخراً قد فى الجبل كأنه المسلة العظيمة لـكن لم يتم القوم استخراجه كالمسلة التى رأيناها فى محاجر الجرانيت باسوان وطول هذا الصخر سبعون قدما وزنته الف طن ولما جاء العرب أقاموا بالمدينة عدة مساجد من الصخور والاعمده التى انتزعوها من تلك المعابد ولا يزال جانب من المسجد الـكبير يرى ببوائـكه وأعمدته الى جوار تلك الآثار وفى قرية بجوارها اسمها (كرك نوح) قبر سيدنا يعقوب

زحلة : مدينة انيقة من اشهر مصايف لبنان تحل مأزقا من وادى تحوطه الجبال وتتدلى منها سيول الماء فى كل مكان وتقوم على المنحدرات الفلات البديعة بسقوفها الحمراء المنحدرة ويتوسطهـــا النبع الرئيسى وقد قدت فى الجبال طرق ملتوية بعضها يعلو البعض حتى يبلغ بنـــا الذرى ويكاد الشجر والنبت يسد الوادى سدا وأينما سرت أو جلست اطربك خرير الماء وراقك منظر هداراته ومن النبت البرى ما له زهور جذابة ورائحة عطرية واسترعى نظرى شجر الجوز الضخم عريض الورق فـكان يحكى شجر المطاط وكان يحمل وسقا ثقيلا واذا نضج ازاح القوم قشره الخارجى لتتخذ منه الاصباغ وما بقى هو الجوز الذى يباع فى اسواقنا ولورقه رائحة عطرية هادئة تعطر اليد اذا لمسته وتعبق المـكان اذا وضعت فيه وقد نسق القوم جوانب الوادى وضفافه وأقاموا عليها الانزال التى يبلغ عددها أربعة عشر والمطاعم والمقاهى التى لا يحصيها العد وتفننوا فى حبس الماء الدافق وتحويله الى قنوات تسير يمنة ويسرة فأينما

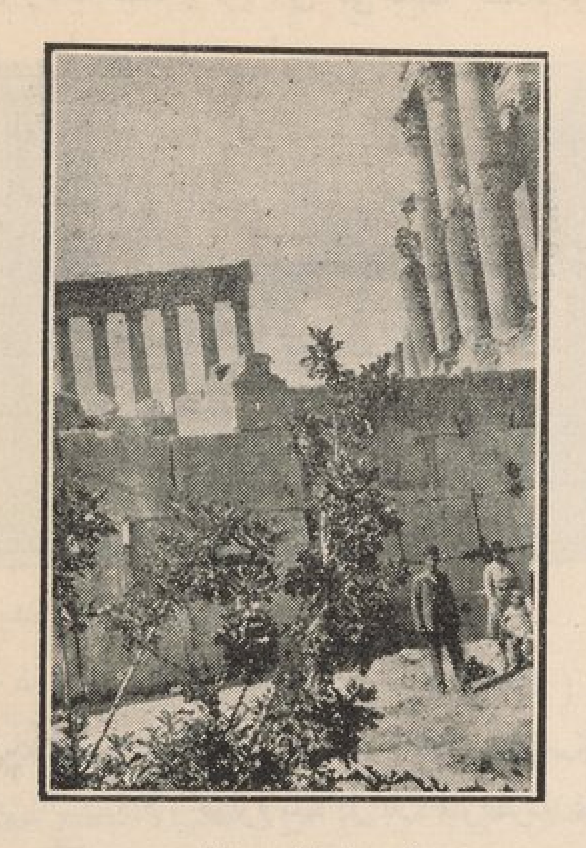


سوق الحميدية فى دمشق ويؤدى الى المسجد الاموى

جلست كانت المساقى تنساب تحت قدميك وطعم مائها لذيذ كأنه مثلوج وأنت تشرب منه المرة تلو الاخرى دون أن تشعر بامتلاء . ويقولون أنه مصلح للمعدة لما حوى من المركبات الجيرية المفيـــدة . وكم أعجبنى نشاط القوم وعصبيتهم فكل المشروعات فى أيديهم قاموا فحبسوا الماء فى جهات عدة وأداروا به الهدارات المولدة للقوة بعضها يستخدم لطحن الغلال والبعض للاضاءة الكهربائية والبعض لعمل الثلج والبعض للسقى ولا تكاد ترى

وسطهم أجنبيا وقد كان الوادى مهملا وهو من أملاك اليسوعيين شروه بجنيهات قليلة لكنهم اليوم يستغلونه استغلالا مدهشا فايجار الفندق الواحد قد يناهز الف جنيه فى العام وغالب سكان البلدة من المسيحيين والتعليم فى أيدى المبشرين . وجو البلدة منعش اميل الى البرودة حتى كنت أشعر وكأنى فى شتاء مصر لان علو البلدة فوق تسعمائة متر والمعيشة فيها رخيصة فلو انى أرغب فى مقـــام هادىء لما آثرت على زحلة غيرها لما فيها من طبيعة غنية وهدوء شامل وجمال ساحر وهواء منعش وماء شاف سلسبيل . ولرواد الجبال هناك مجال عظيم فللتسلق غرام لايقدره الا هاويه . علمت بأن النبع الرئيسى للجدول (ويسمونه أم العين) يهوى فى شلال علوه ٢٤٠ متراً فقصدته واذا المرتقى اليه وعر يكاد يكون عمودياً لكن منظر الماء وهو يهوى ويتعثر على نواتىء الصخر فى شلال هائل أغرانى أن أصعد وبعد لأى كنت فى ذروته وأذا به يخرج من قلب الصخر السماوى فى اندفاع مخيف

الى حلب : غادرنا زحلة بالقطار الساعة العاشرة صباحا صوب حلب فوصلناها فى ثمان ساعات وكانت الطريق أشـــبه بسهل جاف الا فى بقاع نادرة يزرع القوم فيها الغلال وبخاصة الشعير والقمح وأكبر البلدان التى مررت بها : حمص : وهى مدينة كبيرة متحضرة بها مسجد عظيم بناه خالد ابن الوليد والسهل حولها خصب كثير المنابت وبجوارها قبر خالد بن الوليد ثم تبعتها فى الاهمية : حما : وتقع على نهر العاصى الذى يصب فى البحر الابيض عند انطاكية وقد بدا جدولا صغيرا كان يتلوى أمامنا فى



الى جوار انقاض بعلبك

ليات عجيبة وقد أقيمت عليه النواعير التى تدور بدفع التيار لرفع المياه الى الاراضى المجاورة ويرجع بعضها الى زمن الرومان وفى المساء دخلنا :

حلب : فجبت بعض أرجائها فبدت مدينة كبيرة صبغتها اسلامية بحتة بمساجدها المتعددة غالبها على الطراز التركى بمنائره الدقيقة وقبابه المتكررة وقد زرت من بينها المسجد الجامع ويعدونه المسجد الخامس فى الشرق الادنى وهو عظيم الامتداد ترصف أرضه بألوان الرخام المنسقة وتحوطه

البوائك ويضم رفات سيدنا زكريا أبي يحي عليهما السلام وأعجب ما فيه مئذنته المربعة ويرجع عهده الى بنى أمية

وبالمدينة قلعة قديمة تشرف من ربوة شاهقة بنيت فوقها من أحجار ضخمة وحولها حفرة كأنها الخندق العظيم نجتازه بقنطرة ويحتل القلعة جنود فرنسا وفى أقاصيص العرب أنها أقيمت على ثمانية آلاف عمود ولعل أعجب شيء فى البلدة أسواقها فهى واطئة مغلقة تحت قباب حجرية كأنها السراديب المشعبة وهنا قلب المدينة النابض من الناحية التجارية إلا فى بعض الحوانيت الحديثة التى صفت على جانبى الشارع الجديد وهو يصل المدينة بمحطة الشام وهو أكبر الشوارع وأجملها وكثير من الدور أقيم على النمط التركى يبدو كالمساجد وتطل منه المشربيات العديدة . ومياه حلب رديئة شحيحة غالبها من الآبار تباع بسعر قرش (للتنكة) ويشق البلدة نهر جاف تقوم عليه القناطر العدة وكان غامرا بالماء ابان حكم الاتراك ثم قطعوه اليوم عن البلاد وحولوا ماءه الى بلادهم والمدينة غاصة بالمقاهى ودور الملاهى فى قسمها الجديد وغالب الملاهى مراقص بعضها عربى والبعض فرنسى شهدتها فكان الرقص شائناً تكشف الراقصة عن فخذيها وصدرها فى شكل ينافى الآداب والشعب يهتز لتلك السخافات ويهتاج . ويظهر أن موارد البلاد محدودة لدرجة أن الحكومة توقفت قليلا عن دفع المرتبات أول هذا الشهر (يوليه) على الرغم من أن أنواع الضرائب كثيرة متعددة ومن أعجبها ضريبة المتعة وهى ليرة وربع فى العام على كل راشد بين ١٦ و ٦٠ سنة فقيرا كان أو غنيا وكذلك ضريبة النشر فكل اعلان يخرج للناس يلصق



وسط بقايا المسجد القديم فى بعلبك

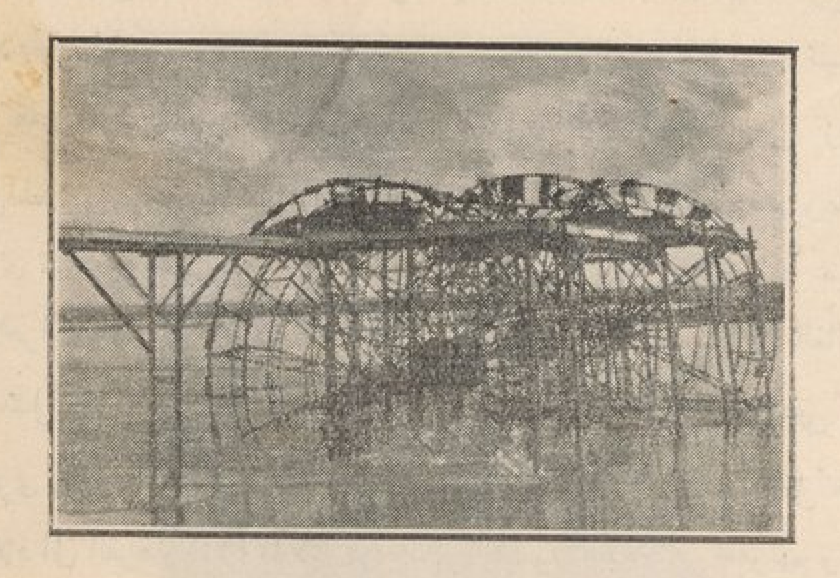
عليه طابع الضريبة حتى أعلانات السينما ترى طابعاً بربع قرش سورى عليه فانظر كيف يحصلون على الاموال ونحن فى مصر لانستطيع تحصيل شىء من الضرائب ونتساءل فيقال الامتيازات البغيضة فهلا تكاتفنا على الغائها فنوفر مبالغ طائلة ننفقها فى رفع الامية ونشر الثقافة فى البلاد

ويظهر أن العصبية الدينية شديدة هنالك فكل طائفة تحاول الاضرار بغيرها وهم متفرقون يكيدون لبعضهم على أن العنصر الاسلامى هو السائد وفى البلاد حركة للتخلص من كل ما ليس سوريا فى الوظائف والاعمال الحرة والجرائد ناشطة فى الكتابة تشجيعاً لتلك الناحية ولو أفسدها اتهام كل حزب الآخر بالتعصب وقدما كانت بلاد الشام نكدة الحظ رغم

كثرة خيراتها وذلك لانها عرضة للغارات بين الشرق والغرب وهذا ما يقوض من عمرانها ويزيد تدهورها ما هم فيه أبدا من شقاق وتحزب فكأن ظهور المرسلين فيهم هو الذى دعا الى هذا التحزب المقيت

إلى الاناضول : قمت مبكراً فى قطار ٦٫٤٠ صباحاً الى أنقرة فسار بنا القطار وسط سهول ممدودة غالبها صخرى شبه صحراوى مهمل ولما دخلنا الحدود التركية بدأت الجبال والربى المعقدة وأخذت تتلوى سكة الحديد ودخلنا انفاقاً لاحصر لها وكلما واصلنا السير أخذنا فى الصعود لنغالب ليات الجبال وارتفاعها المتزايد وأخذت تكسوها الشجيرات ثم أوغلنا فى تيه من الانفاق بعضهــا كان القطار يستغرق فى اختراقه ربع الساعة وكانت المناظر حولنا ساحرة خصوصا كلما فاجأتنا الوديان السحيقة تتلوى فى قيعانها الغدران النحيلة أما الاهلون فنادرون فى تلك البقاع فلا يكاد البصر يقع على القرى الا الصغير النادر وتلك هى مجموعة جبال طوروس بصخورها الجيرية وبين آونة وأخرى كانت طيات الصخر تبدو فى ألوان قاتمة أو براقة مما يشعر بقدم الصخر وكثرت ورقائق الشيست ولذلك لم نعجب لما سمعنا بكثرة المعادن هناك مثل الحديد والنحاس والفضة والكروم والميكا.

وحوالى الرابعة مساء دخلنا سهولا أختفت من حولها الجبال وزاد النبت وكثرت مسايل الماء على أن ماءها كان ضحلا شحيحا فكان المنظر شبيها بمصر المحبوبة وفى وسط هذا السهل وقفنا على :



نواعير الماء التي شهرت بها حلب

أدنا : من كبريات مدن جنوب تركيا وبعدها عادت الجبال وانفاقها ومناظرها الساحرة . والحق أن سكة الحديد هناك تدل على مبلغ جبروت القوم فى مغالبة القوى الطبيعية الهائلة ويفاخر الاتراك أن هذا الجزء المعقد كله أقيم بمجهود أبنائهم ولم يكن للاجانب فيه دخل قط وسكة الحديد كلها بيد الحكومة التركية بعد أن كان جلها لشركة فرنسية وقدشروا كل المشروعات الاجنبية فى سائر بلاد الاناضول فاضحت تركية بحتة . ظل القطار فى صعوده ولياته وانفاقه حتى أقبل على سهل فسيح تتوسطه قونيه : وكان وقوفنا بها الثانية صباحا فبدت مدينة ممدودة هائلة تحكى احدى البنادر الرئيسية عندنا

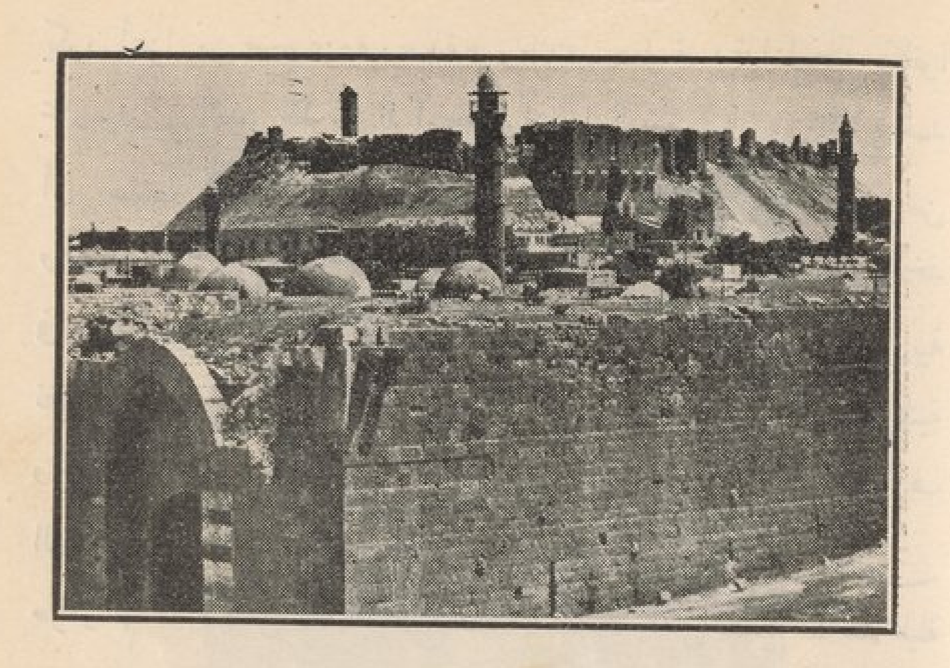
وكانت أضواؤها الكهربائية منورة وضاءة وقد علمت أن فيها مدفن أفلاطون الحكيم وقبر جلال الدين الرومى المعروف بمولانا واليه تنسب طريقة (المولوية) ولبثنا نسير فى تلك السهول الخصبة طويلا وهى تزرع على المطر ويعوزها المران المصرى الزراعى كى تغل اضعاف ذلك فمشروعات الرى تكاد تكون معدومة والايدى العاملة نادرة وأدوات الزراعة عتيقة كالمحراث المصرى يجره البقر، والشادوف ينزل دلوه الى الآبار الغائرة وينتشل منها باليد أو الدواب ومظهر البلاد كلها يبدو اسلاميا بحتا ففى كل القرى تبدو المآذن التركية الدقيقة ولم نلمح كنيسة واحدة فى كل تلك البلاد الى انقرة وكثيراً ما كنا نمر بالناس يقيمون الصلاة فى حقولهم وعلى رءوسهم قبعاتهم فى كثرة أشعرتنى بأن النزعة الدينية مازالت قوية . وكانت تحصد الغلال كالقمح والشعير أما المراعى من البقر والضأن فلا حصر لها اذ هى المورد الرئيسى وكان اللبن والجبن يبيعه الصبية فى كل المحاط وبخاصة اللبن الحامض الذى يشربونه بدل المرطبات جميعاً . والخيل مطيتهم الرئيسية وبيوت القرى بالحجارة الصغيرة متحدرة السقوف لكن طرقها ضيقة مهملة رديئة والاهلون يرتدون حللهم الافرنجية وعلى رؤسهم القبعات (فى شكل الكسكت) والنساء سافرات لا يفترقن عن الافرنجيات وقد ساغ هذا الانقلاب الاجتماعى اليوم للناس بعد أن كان معارضوه كثيرين فى بدئه شأن كل جديد وشتان بين حالتهم يوم زرتهم فى اسطنبول سنة ١٩٣٠ وبينها اليوم . دخلنا أفيون قره حصار : ومعناها (قلعة الأفيون السوداء)



مقبرة سيدنا زكريا داخل المسجد الجامع فى حلب

لان أحسن منابت للافيون تقوم حولها ولان قلعتها تحلو فوق ربوة سوداء هائلة (٨٠٠ قدم) جعلتها منيعة والمدينة كبيرة وتقوم وسط سهل تربته مختلفة بعضها فى لون أسود والبعض أصفر والبعض جيرى يكسوه الحصى ولا تقوم المدن الكبيرة هناك الا وسط الوهاد المبسوطة التى تنأى عنها الجبال وعند ماوصلنا

اسكى شهر : أخذت سكة الحديد تتفرع الى عدة نواح وهى مركز زراعى وتجارى هام وبها مصنع لسكر البنجريمون قسما كبيراً من البلاد وبيوتها حجرية ومن طابق واحد وبجوارها رأينا مدرسة الطيران التى لا يزال البناء فيها مستمراً وفى جوار المطار هناك استشهد فى حرب الاستقلال خمسة آلاف تركى سفك اليونان دماءهم ظلما فأقامت الدولة لهم مدفنا فاخراً كتب عليه (مدفن شهداء الوطن) وكان يرمقه المسافرون جميعاً بنظرات الأكبار وعند الاصيل قبيل دخولنا انقرة بساعتين وقفنا بمحطة كبيرة اسمها : بولاتلى وهنا كانت الموقعة الفاصلة بين الاتراك والاغريق الذين اجتاحوا البلاد من أزمير الى هنا وكانوا يطمعون فى احتلال انقرة ومحو تركيا من الوجود وكانت تعاونهم على ذلك بعض الدول العظمى وامدتهم بالمال والاسلحة ولكن بفضل وطنية الغازى وسحر بيانه استحث الحماسة التركية فاستمات الاتراك فى الدفاع عن حوزة الوطن نساء ورجالا فسحقوا فى هذا المكان الجيش اليونانى عن آخره وقد حفزهم على ذلك ما كان يأتيه اليونان من الفظائع فى قتل أهل القرى واحراقهم وهنـــاك أيضا أقاموا مدفنا فاخرا للشهداء سرت اليه وانحنيت اكبارا وقرأت لاولئكم الابطال الفاتحة وقد نزل معى من القطار أغلب ركابه وهم يشيرون اليهم قائلين هؤلاء بقيادة الغازى هم الذين طاردوا العدو واكتسحوه حتى القوه البحر وراء أزمير وطهروا البلاد منه وكان عدد العدو الذى هلك ٢٤٠ الفا مع أن عدد الاتراك لم يزد على ٤٥ الفا . ذكريات خالدة كان يقصها على بعض أبناء



مدخل سوق القبلن فى حلب وتشرف عليه قلعة المدينة وكأنها الطود الشامخ

الاتراك والوطنية تكاد تنفجر من وجناتهم وكان الغازى يأخذ نصف أملاك الناس ومتاعهم جميعا للانفاق على الجيش على أن يردها اليهم بعد النصر وكان القوم يقبلون ذلك قبولا حسنا ولا تزال الدولة تسدد لهم ديونهم هذه الى اليوم . وبعد أن أجلوا الاغريق ومكنوا لانفسهم فى الجهات الغربية ولوا وجوههم صوب الحدود الداخلية فطاردوا الارمن الى ماوراء أرضروم وبحيرة فان وأخذوا بلاد الاكراد وأعادوها لحظيرتهم وانمحت دولة كردستان من الوجود ثم طاردوا الفرنسيين والزموهم حدود سوريا الطبيعية وراء جبال طوروس . دهشت من هذا الفوز فى اناس يكادون يكونون عزلا وكان يطوقهم العالم من جميع جوانبهم ولكن كيف

يكون أعزل من صح عزمه وصدقت وطنيته وجعل نفسه فداء لوطنه . كانوا يحاربون العدو بقلوبهم الراسخة وايمانهم الوثيق نساء ورجالا وبعد أن استتب لهم النظام العسكرى قام الغازى العظيم يصلح البلاد من وجوهها الاخرى اجتماعيا واقتصاديا فبدأ سياسة الانشاء والتعمير وأخذ فى تعبيد الطرق ومد سكة الحديد وهى فى نظرى تعادل أرقى الخطوط الاوربية نظافة ودقة يديرها الاتراك فى نشاط حميد ثم أخذ يمهد للشركات الوطنية ويعاونها بالقروض والتسهيلات حتى كثر عددها جدا وأسس المصارف الوطنية وأخذ يقيم الابنية فى البلدان الكبيرة وبخاصة أنقرة على أحسن طراز ثم أنه لم يغفل حالة الفلاح فقد كانت الاراضى ملكا لطائفة قليلة من الاغنياء فمثلا كانت سهول ادنا الشاسعة ملكا لعائلة واحدة فابتاع كل المساحات الشاسعة وقسمها قطعا صغيرة باعها لصغار الفلاحين بشروط سهلة واتخذ نفسه مثلا حسنا أذ وهب من أرضه الكثير وأعلن ان أملاكه جميعها لن تورث أحدا من عائلته بل سترثها الدولة وهو يكاد يكون معبود القوم جميعا كلما حدثك أحدهم عن البلاد ذكره بالخير وفاخر باسمه وحتى معارضوه قد قل عديدهم جدا وذلك شأن المصلح الذى يغامر ويخدم مبدأه دون خوف وكلما ظهرت ثمرات أعماله أحبه الناس وأيده خصومه ويكاد يتفق الجميع على أنه ليس فى البلاد سواه هو ووزيراه عصمت ورشدى فهم القوة المنشئة المنفذة يرتب الغازى الفكرة ويغامر بتنفيذها واثقاً من النجاح . وفى شئون التعليم قام بقسط من الاصلاح كبير فأدخل فى المدارس أحدث النظم ومحا



سوق حلب كانه السرداب الحجرى

العتيق وسهل اللغة بالحروف اللاتينيةالتى تعلمها الجميع وقد فرضها على الناس
الى سن الاربعين نساء ورجالا ومن زادت سنه فله الخيار وقد علمت
أن الجميع حتى الشيوخ يقرأونها اليوم بسهولة يؤيد ذلك كثرة الجرائد التى
كان يقرأها الفلاحون ويتخاطفونها من القطار على سذاجة منظرهم ورث

ثيابهم ولقد جعل التعليم إجباريا وقسم المدارس الى ابتدائية وثانوية وعليا وجعل برامج التعليم قوميـة وطنيه لا يتعلم الطالب اللغة الاجنبية الا فى المـدرسة الثانوية ولم يختصها بلغة معينة فبعض المدارس تعلم الانجـليزية والبعض الفرنسية وهى الغالب والبعض الالمانية وهلم جرا وهو لايحتم على الطالب اضاعة جل وقته فى اللغات الاجنبية كما نفعل فى مصر لان ذلك لا شك سيكون على حساب التوسع فى العلم نفسه فهو يعلمهم مبادىء اللغة ويترك التبحر لمن تخصص بعد وهناك قسم لترجمة مستحدثات العلم الى لغة البلاد لذلك وجـدنا صعوبة كبرى فى التفاهم معهم لان من يعرف الفرنسية أو الانجليزية لا يجدها قط بل لايكاد يتفاهم بها وهم متعصبون للغتهم جداً لاتراهم يكتبون بطاقاتهم ولا عنوانات متاجرهم الا بها فى حروفها اللاتينية والغازى يتعقب بنفسه الكلمات التى من أصل عربى ويمحوها ويمنع استخدامها منعا باتا ويحل محلها كلمات تركية صميمة وقد كانت الالفاظ العربية شائعة بين الطبقات الممتازة وفى اللغة الرسمية من قبل أما اليوم فيحاول محوها

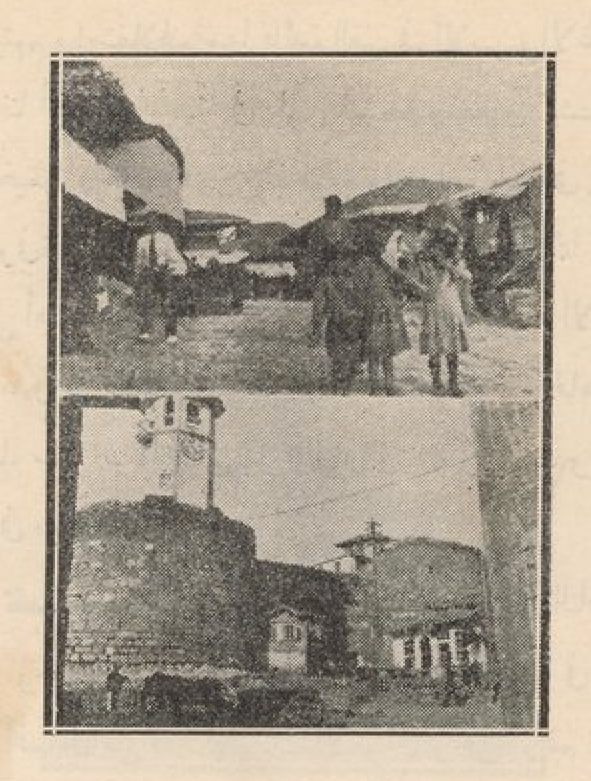
أنقرة : دخلناها ليلا فبدت أضواؤها خاطفة وثريات الـكهرباء بها منثورة على الربى وفى السهول فى مشهد جميل وقد أقيمت قبل أنقرة مباشرة ضاحية (الغازى) حيث يقوم قصره وتمتد حدائقه المنسقة امتداداً فسيحا وهى تكاد تلتهب ضوءاً . حللت نزل (أناضول) وقمت فى الصباح أجوب انقرة واذا بها قسمان قديم وحديث فالقديم فى ازقته الحجرية المتحدرة وبيوته المكتظة الصغيرة المطلة بشرفاتها نصف العربية ولياتها غير المنظمة



الغازى مصطفى كمال باشا بطل النهضة التركية

تشرف عليها قلعة المدينة فى ربوة شاهقة وتقوم كثير من الابنية على منحدراتها وتعوزها النظافة وحسن البناء وفيها يدفن آمرؤ القيس وقد فتحها المعتصم الخليفة العباسى وفيها وقع السلطان (بلدرم بايزيد خان) اسيراً فى يد تيمورلنك سنة ١٤٠٢م. والقسم الحديث يعادل أرقى البلدان نظاما قصوره فاخرة بولغ

فى ضخامتها وتجميلها والطرق به فسيحة ومنابت الكلأ تحفها الاشجار فى امتداد رائع وفى وسط غالب الميادين تقوم تماثيل الغازى ولعل أجملها ميدان (ملت ميدان) والغازى يمتطى جوادا ووراءه تركيا فى امرأة عجوز تحمل قنبلة ووجهها مقطب كئيب وقد أعياها التعب والى جانبها الامامى جنديان باسلحتهما يكشفان الطرق ويتأهبان للفوز . والمدينة على صغرها كثيرة الحركة أهلها أهل نشاط وشعور عجيب بالعزة القومية شأن كل أبناء الاتراك وهم جميعاً مؤدبون كريمو الطبع يزين ذلك وقار ورزانة جعلت لهم مهابة وأنفة وهم فخورون بفوزهم لا يفتأ الواحد يقص عليك نبأ حرب الاستقلال ويمجد لك فى تركيا وما فيها ويعتذر عن بعض النقص والتأخر فى البلاد التربية فحركة الاصلاح لم يمر عليها عشر سنين وقد خلفت الحكومات الماضية للحكومة الحاضرة تراثاً موبوءاً ثقيلا يتطلب الاضطلاع به واصلاحه مجهود الجبابرة وأموال الملايين وكم كان عجبى عظيماً عند ما كنت المس حركة النهوض فى كل شىء وفى سرعة عجيبة رغم عوز البلاد المالى الشديد لكن الاخلاص وخلو البلاد من الدخيل هو الذى اكسب القوم قوة تدفع بهم الى النجاح المتواصل وحتى فى الناحية الدينية هم يمتدحون للغازى تصرفه فقد أوقف كل الترهات والشعوذة التى تحط من شأننا وشأن ديننا كثيرا وحرم الزواج بغير واحدة وأباح للشاب انتقاء خطيبته وحتم على المرأة التعليم على قدم المساواة مع الرجل فما دخلت مكتباً أو متجرا الا وكان للنساء فيه عمل واضح وحتى فى الصلاة تقام الشعائر الدينية ويدخل

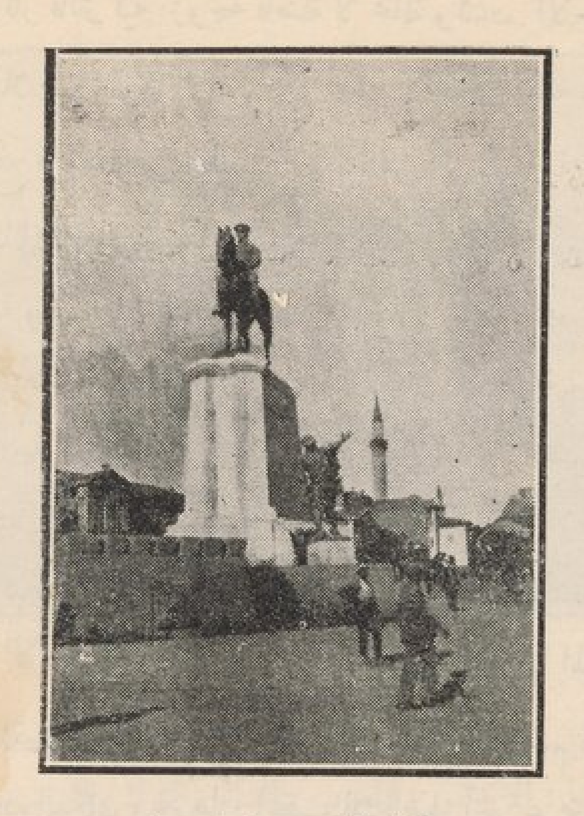


مثل من الاحياء القديمة الاثرية وتحتها القلعة

الناس المساجد بالقبعات ان شاءوا خلعوها ووضعوها على الحمالات فى جوارهم وان شاءوا أداروا أفاريزها الى أقفيتهم وأدوا الصلاة مثبتاً بذلك أن الدين لا يحتم زياً خاصاً قد يقعد بتقدم الشعب حتى عن الحركة والنشاط وكنت كلما جلت فى البلدة وتفقدت مختلف نواحيها زادنى الاصلاح الذى يجرى بها سراعا دهشة واعجابا . صعدت الربوة المشرفة على أنقرة حيث القلعة القديمة ونقبت فى أزقتها التى تضم طائفة من الاهلين فى أكواخ بائسة وكان يبدو على الناس الفقر وهم فى أسمالهم المهلهلة ولكنهم كانوا رغم ذلك

فخورين بتركيتهم واستقلالهم وما فائدة الغنى فى الاسر والاغلال ! وكانت تتجلى من دوننا أنقرة الجديدة فى طرق فسيحة وقصور مشيدة بولغ فى تنسيقها وتضخيمها وبخاصة دور الحكومة والدولة آخذة فى إقامة العمارات فى كل مكان وفى تنسيق المتنزهات للشعب تفتح أبوابها دائما وتعزف فيها الموسيقات كل أصيل وبخاصة فى متنزه البرلمان الذى تزينه الابنية وأحواض من الماء مدرجة صفت المقاعد حولها فكنت أرى الجماهير يغص بهم المكان، والنساء سافرات يختلطن بالرجال فى رزانة وصمت وهدوء حتى كان يخيل الى انى فى مونت كارلو تماماً

والدولة تقصد بعزف الموسيقى هكذا أن تدرب آذان الناس على الانغام الغربية فأذا طوحت ببصرك لمست اخلاص الدولة وتفانيها فى النهوض بكل شىء وكنت أتساءل من أين لهم تلك الاموال ونحن رغم توافر مواردنا لا نفى بالواجب . حقاً أن كل قرش هنالك يدخل خزانة الدولة ينفق فى التعمير والانشاء . ويزيد اعجابنا إذا علمنا أنهم ينفقون على جيش كبير بمعداته وطياراته وبواخره هذا الى الهمة المدهشة التى يبذلونها فى ربط اطراف البلاد بسكة الحديد رغم تكاليفها الباهظة فى تلك البلاد الجبليـــة الوعرة فالخط الى البحر الاسود مد الى طربزون وفى شرق أنقرة كاد يصل الى أرضروم وفى الجنوب وصل البحر الابيض وفى الجنوب الشرقى وصل الى نصيبين . كل هذا كان يدهشنى والحكومة فقيرة والناس معوزون ولكن كفى بالاستقلال معيناً على ذلك فغياب الاجنبى من المجال الاقتصادى



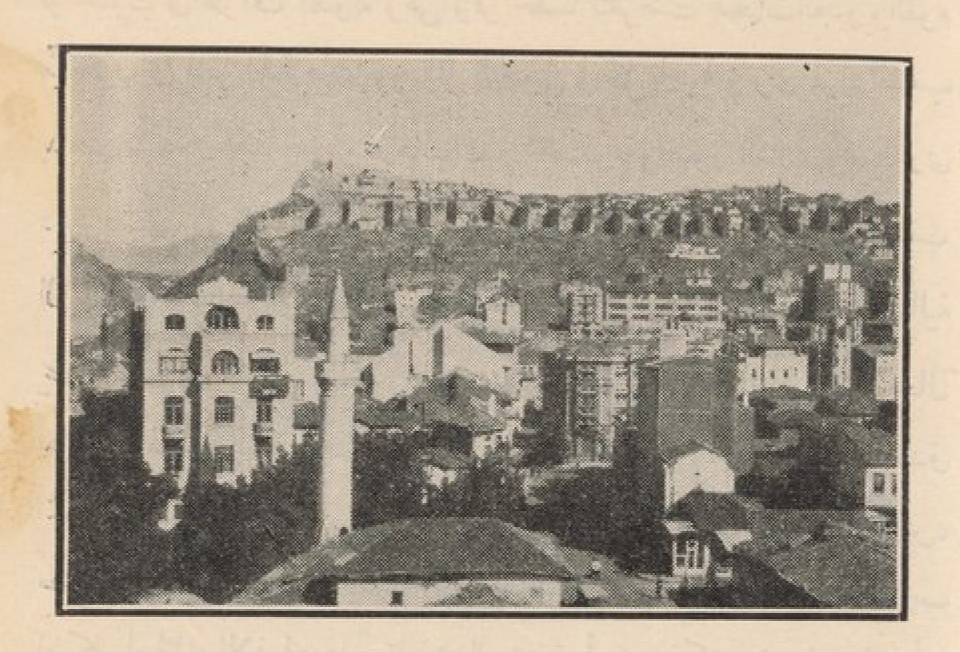
تمثال الغازى وسط ملت ميدان

أفسح المجال لابناء البلاد فعدوا إلى التقدم سراعا وأنت لا ترى اليوم للاجنبي في بلادهم من أثر قط

ونساء الاتراك رغم سفورهن بعيدات عن الخلاعة والاسراف فى التزين فهن يسرن فى وقار وهن فى نظرى لسن ساحرات فى الجمال والجمال الفاتن نادر بينهم فالشاميات أوفر جمالا كذلك تعوزهن الرشاقة ولم يقع نظرى على سيدة تحكى (كرمان هانم) ملكة الجمال لديهم ولذلك لم أعجب لانتخابها رغم أنها دون ذاك المقام فى ظننا لكنى أعود فامتدح فيهن هذا

الاتزان والوقار فالتركية زوجة فاضلة لا محالة وكنت ألاحظ كثيرين منهن يلبسن ملاءات وفوق الرأس قناع أسود كالستار لكنه بدل أن يسدل على الوجه يرفع فوق الرأس فظننت أن هذا من أثر الرجعية الاولى

وتكثر هنالك المقاهى والمقاصف وفى غالبها تسمع الحاكى بانغامه التركية وأغانيها الشجية ويظهر ان الكثير منهم ميال الى المسكرات وبخاصة (العرقى والزبيب) فما يكاد الليل يقبل حتى تراهم عاكفين على شربه ولا يخف قرع النرد ليلا ولا نهارا . دخلت مرة مغنى تركيا شرقيا على نمط (الف ليله) فى مصر فكانت الآلات الموسيقية : الكمان والعود المعدنى والقانون يعرف بالمضارب لا بالاصابع ثم الرق والناى وامام كل أولئك سيدتان فى حشامة ووقار وكانت الاغانى مقطوعات على نمط الموشحات تتقدمها الموسيقى الصامة فى بشارف قصيرة ، مقطوعات مثل (اللونجا) ولم الاحظ بينهم عادة التقاسيم الفردية من العود والكمان وغيرها . اعقب ذلك فاصل آخر عرض فيه العازفون بعض الموسيقى الاسبانية فى شبه طنبورة ومزمار طويل ودف وكان يلبس العازفون اردية عجيبة من سراويل ضيقة (وجكتات) زرقاء ورئيسهم فى معطف اخضر طويل وامام أولئك صف من السيدات تغطى رؤوسهن بمنطقة بيضاء . بدأوا العزف فى دور موسيقى صامت ثم اعقبه مغنى حماسى ثم رقص اسبانى يصحبه تصفيق من الفتيات وصيحات من الرجال فيما يحكى (الرقص البلدى) عندنا فكان الطرب آخذا منا كل مأخذ فقلت فى نفسى لم لا يحاول معهد موسيقانا عرض مثل هاتيك الشرقيات فيعطينا فكرة عن



أول ما بدأ الانشاء فيما جاور القلعة

موسيقى جيراننا : الاندلس والمغرب والشام والترك والعرب وهى اقرب الى اسماعنا من موسيقى الغرب التى لاتروقنا كثيرا ؟

قصدت الى مقر الغازى حيث قصره المنيف يشرف على ربوة حولها حدائقه ودونها حى (تشان كايا) الحديث فى طرقه الممدودة وقصوره الفاخرة وهى مسكن الطبقات الارستقراطية ودور السفارات ومن بينها سفارتنا ، كنت اعجب لاختيارهم انقرة فى ذلك الموقع المجدب الجاف تحيطه الربى التى عريت عن النبت فى منظر غير جذاب على أن موقعها المتوسط من هضبة الاناضول وسهولة تحصينها بسبب ما يحوطها من ربى يبرر فى نظرى هذا الاختيار اذ

لو اقيمت فى اطراف الدولة وهى أوفر خصبا لتعرضت لهجمات العدو والقوم مبالغون فى نشر المتنزهات ووسائل التجميل فى كل ناحية وترى افراد الشعب يدخلونها بدون قيد حتى متنزهات دور الحكومة وقصور الغازى وكنت ارى ديمقراطيتهم بادية فى تجاور الفقراء باسمالهم الرثة وهم الاغلبية الى جانب الاغنياء . وعناية القوم بأطفالهم زائدة فكنت ارى الاب المدقع فى ثيابه البالية يحمل طفله فى هندام نظيف ووجه ابيض ناصع لاتشوبه قذارة قط والرجال يعنون بأطفالهم ونسائهم فترى زوجة هذا الفقير فى اردية نظيفة فلا تكاد تصدق انها زوج ذاك الصعلوك . واجمل ما يروقك هندام الضباط من الجيش والبوليس، مظهرهم مهيب فى ملابس أنيقة على نقيض الجنود فأرديتهم رديئة مهلهلة والغريب ان كل اولئك الافراد على مظهرهم الرث يقرأون ويكتبون وقد علمت أن نسب من يعرفون القراءة من عامة الشعب ٨٩ ٪ بعد ان كانت لاتزيد على ١٠ ٪ من قبل وذلك بفضل الجهود الجبارة التى بذلها الغازى منذ افتتح المدارس الشعبية والليلية فى جميع القرى واجبر الاميين أن يحضروها الى سن الستين ومن تخلف عوقب فهل هذه جهود سنوات عشر؟ ونحن فى مصر الغنية الموارد لبثنا فوق العشر سنوات فى نهضتنا ولم نستطع رفع نسبة القراءة الا قليلا ؟ فهم لم يشترطوا للتدريس مكانا كامل العدد والشئون الصحية كما نفعل ولم يحتم أن يكون المدرسون ممتازين فان ذلك يصعب توافره فى البدء فالامر الهام لديهم أن يصبح جميع الناس ممن يستطيعون القراءة أما المثل العليا فسبيلنا اليها لا يكون الا بعد محو الامية كلها



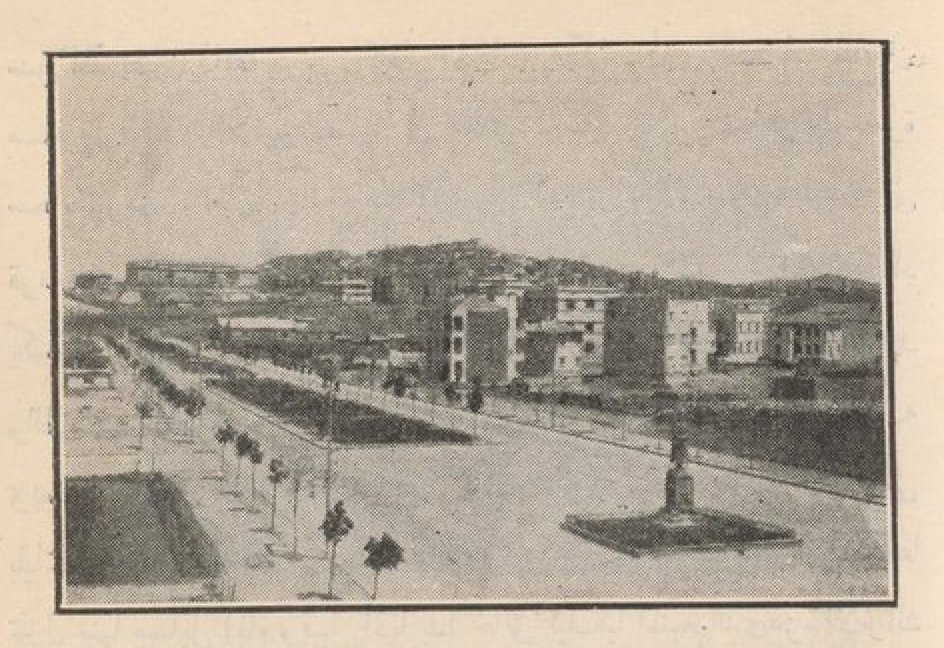
نزل الغازى الى تلك السهول وأقام عليها أنقرة الجديدة

ويحرم القانون التركى الكتابة بغير الحروف اللاتينية وهى أسهل على الناس كثيراً من الحروف العربية كذلك الصلاة لا تكون الا بالتركية فلا يقول المؤذن (الله أكبر) بل يصيح بمعناها التركى وقد ترجم القرآن وتلك الترجمة هى التى تدرس فى المدارس ولمن خالف ذلك وقرأ أو صلى بالعربية سجن ثلاث سنين

والمعيشة فى أنقرة أغلى منها فى البلاد الاخرى لانها تقع وسط اقليم جاف قليل الانتاج وغالب حاجاتها تردها منقولة من الخارج أما الطعام التركى فشهى لذيذ يفوق كل ماتناولته من أطعمة فى البلدان التى زرتها فى

جميع جولاتى وللترك شهرة قديمة فى الطهى على أن الغريب بينهم يصعب عليه التفاهم معهم لانهم لا يكادون يتكلمون سوى التركية وطالما تورطت فى مطاعم كانت تقدم الى قوائم الطعام بالتركية والخدم لا يفهمون غيرها فكنت أتخير الاصناف مصادفة . حدث مرة أنى بعد أن كدت أفرغ من الطعام طلبت صنفا كتب هكذا Cirez Salaten فخيل الى أنه خشاف فاكهة الكريز فجاءنى الغلام به دهشا فنظرت واذا به مجموعة من السردين والفجل والزيتون وموالح أخرى لم أعرف اسمها فأكلته ايهاماً بأن أكل الحوامض عندنا فى آخر الطعام ثم تخلصت من الموقف بطلب القهوة . أما فى النزل فكانت حيرة التفاهم أدهى وأمر وكل يوم كانت لنا فصول كلها تزيد الموقف لذة وتفكهة

اعتزمت السفر الى نصيبين فالموصل مخترقا بلاد كردستان ولم أكن قد بدلت نقودى فقمت مبكراً يوم الجمعة (١٤ يوليه) واذا بالبلدة كلها مغلقة اذ هو يوم العطلة الاسبوعية وكنت أخاله من قبل يوم الاحد ولم أجد حتى صرافا فحرت فى أمرى واضطرنى ذلك أن أسافر فى الدرجة الثالثة حيث لم يكف ما كان معى من نقود ثمنا لتذكرة الدرجة الثانية والحكومة تحتم على الناس جميعا أن يغلقوا متاجرهم كلها اظهارا لقوميتهم وحتى محال البدالة والفنادق كانت تغلق أبوابها وتعلق عليها الاعلام وفى الحق لم أتمالك أن أحترم الاتراك فقيهم وحشية الطورانيين تلك التى هذبها الاثر العربى والدين الاسلامى فالتركى فى أرضه عامل مجد صادق رزين شريف غير



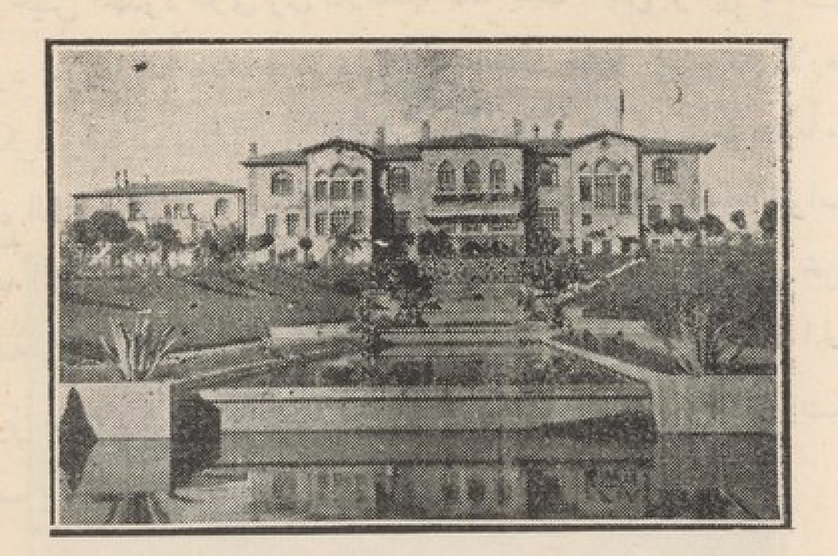
مثل من المبانى والمتنزهات والطرق الجديدة فى انقرة

منافق متقشف يقطن أكواخاً فقيرة من طين ليس بها من وسائل الراحة شيء مظهره جدى مقطب ويكاد يكون فدائياً ورغم حكوماته السالفة التى كانت تستبد به ظل التركى ديمقراطياً فى مجتمعاته وبعيداً عن الاجرام كل البعد وأنت تراهم فى الطرقات يسيرون فى نظام وفى غير جلبة ولا ضحك ففى اخلاقهم شيء كبير من الخلق الانجليزى واليابانى وهم مؤدبون فى الحديث فبدل أن يقول لك الواحد عند لقائك مثلا (مسرور بلقياك) يقول (ان أسعد ساعات السعادة ساعة القاك فيها)

قام بنا القطار ووقف على محطة الغازى حيث مزارعه الشاسعة فكان

سيل المتريضين دافقا من كافة الطبقات فكنت أرى الفقراء المدقعين مسافرين اليها بعائلاتهم ليمضوا فى الخلاء وسط تلك المناظر الساحرة سحابة يومهم والغازى يشجع ذلك تشجيعاً للديمقراطية واصلاحا لصحة بنى قومه . بعد ذلك سار بنا القطار وسط تلك الهضاب الفقيرة التى لا يكاد يكسوها سوى العشب القصير الا فى بقاع نادرة كان بها نبات القمح والشعير والطباق والافيون ومررنا ثانية بأسكى شهر وأفيون قره حصار وقونيه وبعدها أوغلنا فى عقد الجبال وتحسن المنظر لما أن دخلنا عقد جبال طوروس بلياتها وانفاقها المدهشة ثم كساها الشجر وكانت بقع الثلج تكسو ذراها تنزل منها مسايل الماء وقبيل أدنا بدا خانق كيلكيا المنيع الذى هزم الاتراك فيه الجيوش الفرنسية هزائم سجلت لهم بالفخار وكنا نشاهد الاخشاب التى تقطع من تلك الغابات توسق فى تلك المحاط وأخيراً وصلنا أدنا وبعدها (فوزى باشا) حيث غيرنا القطار صوب حلب ثم اخترقنا جبال (انتى طوروس) وهى أقل من جبال طوروس روعة وفى حلب غيرنا القطار ثانية بعد أن مضى علينا ٤٨ ساعة من انقرة وقمنا الى نصيبين فدخلنا الحدود التركية كرة أخرى

فى ارض كردستان: بعد أن قطعنا ثلث المسافة الى نصيبين (مسافة ٤٠٠ ك م) دخلنا أرض كردستان فغابت الجبال الا فى شبح فاتر عند الافق الشمالى وهى الحافة الجنوبية لهضبة الاناضول وكانت السهول مهملة تكسوها أعشاب برية يابسة وعند بلدة اسمها جرابلس عبرنا نهرا باسمها



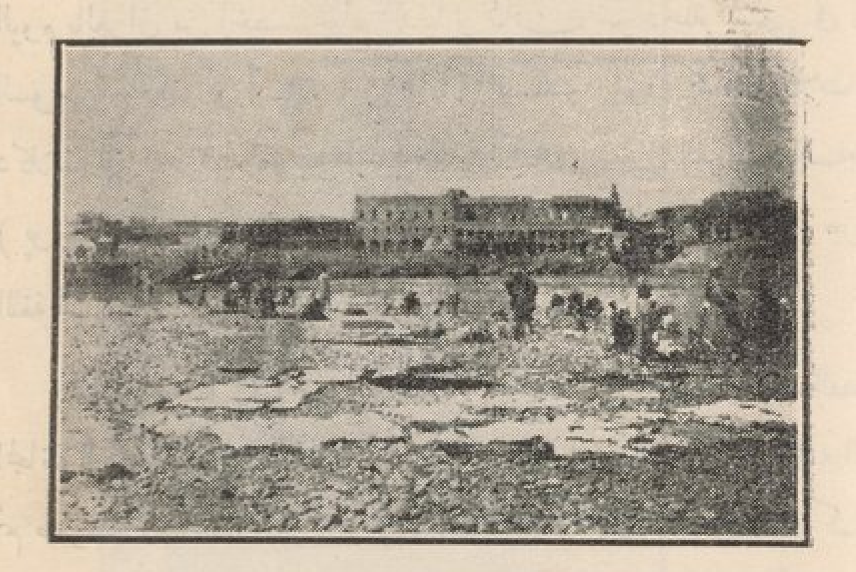
الدار الجديدة للبرلمان ومن شرفته تعزف الموسيقى كل يوم عند الاصيل

عظيم الاتساع وان كان ماؤه شحيحا آسنا إذ هو موسم الجفاف هناك وكان الاقليم شبه صحراوى حره لافح ممض ولم نستطع شراء شيء من المرطبات على المحاط سوى القثاء والبطيخ وكدت أسمى تلك الجهة ببلاد (البراغيث) لانك تسمع تلك الكلمة على لسان الجميع والبرغوت عملة البلاد الرئيسية وهو من بقايا النقود التركية القديمة لذلك كنا نراه ذائعا فى شمال سوريا أيضاً وهنا تغيرت القرى فأضحت بالطين بدل الحجارة وكان المنظر شبيها بمصر فى انبساطه إلا فى عدم وجود شجرة بهقط والناس هناك يتكلمون أربع لغات التركية (ثلثها عربى وثلثها فارسى وثلثها تركى) والكردية (غالبها فارسى) والارمنية والعربية وفى باكورة الصباح وصلنا نصيبين أى بعد سبع عشرة ساعة من حلب فاذا هى قرية كبيرة ليس بها ما يذكر سوى حصن قديم وفيها

يقيم جيش الحدود التركى وفى ملاصقتها تماما يقف جيش فرنسى لأن
حدود سوريا تبدأ بعدها مباشرة والناس هناك خليط عجيب من الارمن
والكرد والعرب والشوام فى أشكال قذرة ومظهر مخيف فكأنهم جميعاً من
قطاع الطرق وكان يسترعى النظر الكردى بعيونه السوداء البراقة الواسعة
وأنفه الاشم وقامته الطويلة وشعره الاسود الغزير ونساؤهم يلبسن خرقاء
مرقعة ويدلين من الصدغين خصلتين ثقيلتين طويلتين من الشعر وتربط الجبهة
بمنديل ملون وكأنهن (الغجر) والبلاد يظهر عليها الفقر والجوع بشكل
مخيف .

إلى الموصل : قمنا بالسيارات مسافة (٢٠٥ ك م) قطعناها وسط
سهول ممدودة الى الآفاق ليس بها نتوء واحد تربتها سوداء يعوزها الماء
وتزرع بقاع منها غلالا وأعشاباً وفى نحو نصف المسافة دخلنا حدود
العراق دون تغير فى تلك المناظر المملة وكم كان يضايقنا فى تلك البلاد كلها
تشديد البوليس فى مراقبة جوازات السفر ففى تلك المسافة فحصت ست
مرات مما أشعرنى باضطراب الأمن فيها

العراق بلاد ما بين النهرين (مسوبوتاميا)



النساء يغسلن الثياب على ضفة دجلة فى الموصل

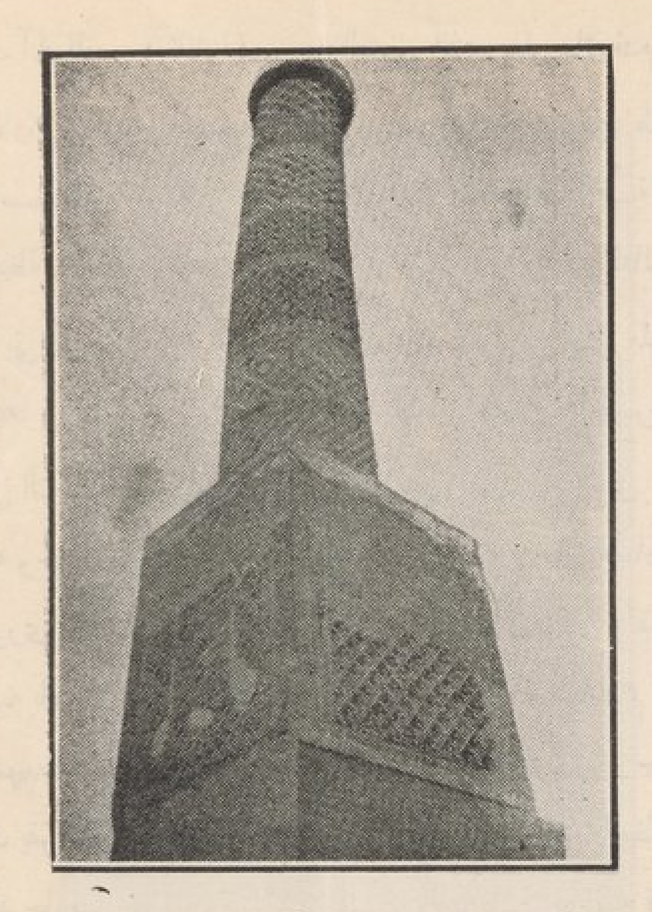
نبذة تاريخية

حوالى ٤٠٠٠ ق م كان الناس يعيشون جماعات فى المدن يروحون ويغدون بين الجزيرة ومصر وكان أولئك المستقرون يسمون السومريين والاكاديين وسميت بلادهم الناشئة سومر وأكاد ولا نعلم من أين أتوا ولكن المرجح أنهم وفدوا من منطقة جبلية متحضرة ولم يجد هؤلاء فى أرض الجزيرة الخصبة المنبسطة جبالا بل ألفوا السكان الاصليين لتلك

السهول من الهمج لذلك أقاموا عددا من (الزجورات) أو البروج وفوق ذراها قامت معابدهم التى قدموا فوقها الضحايا لآلهتهم ولقد استعبدوا أهل البلاد الاصليين . والجزيرة أو أرض ما بين النهرين (مسوبوتاميا) التى تعرف اليوم بالعراق من أخصب بقاع الدنيا وكان نهر دجلة يسمى فى اللغة السومرية أدكنا أو أدكلا ومن هذه أخذ السامريون كلمة أدكلات أو دكلات التى حرفها العرب الى دجلة . وكان يسمى الفرات بالسامرية (پوراتن) أو الماء الوفير وأحياناً يعرف باسم پورا أى ماء ثم حرفتها اللغة السامية الى پورات والعرب الى الفرات

وتشمل العراق اليوم كالديا وبابل وأشور فكالديا كانت القطعة المجانبة للخليج الفارسى وكان الخليج يمتد شمالا الى أبعد مما يصل اليه اليوم ثم طمرت رواسب النهرين جزءه الشمالى وفى شمال غرب كالديا كانت بابل ومعناها (باب الله) والى الشمال الغربى من بابل كانت أشور مقر عبادة الآلهة أشور . والأشوريون كانوا من الشعوب السامية وكانوا مهرة فى القتال والغارات اذ لم يخلفوا الا آثارا حربية فقط . أما البابليون والكلدانيون فمن أصل مختلط من الساميين وغيرهم وهو الذى يسمى السومريين الذين اخترعوا الكتابة المسمارية وكان لهم شغف بالثقافة العلوم المختلفة . ولم نكن نعرف شيئاً عن أشور وبابل منذ قرن مضى لا ما رواه التوراة

وفى سنة ١٨١٨ ظن القنصل البريطانى أن تلال كويونجيك تحتوى على



مئذنة الموصل المعوجة وكأنها برج بيزا المائل

آثار قيمة وفى ١٨٤٢ جاء الفرنسى (بوتا) فكشف مع لايارد الانجليزى مدينة (سارجون) المسماة اليوم (خرسـباد) ونينوى التى تسمى اليوم كويونجيك . وفى الوقت عينه بدأ (تيلر) يكشف أعلى ذرى (أور) لكنه اضطر أن يوقف العمل بسبب مقاومة البدو وفى ١٩١٩ بدأ الدكتور هول يتم هذا العمل ثم جاءت بعثة (ورلى) فنجحت فى كشف مقابر ملوك

أور ومعبد آله القمر (نانار) ببرجه الضخم الذى يعلو مائة قدم وبهو العدل وبعض المخازن ومصنع النسيج والمطبخ ومجموعة أخرى من معابد صغيرة ولعل أهم مستكشفاته الالواح الطينية التى كتبت منذ خمسة آلاف سنة وخطها حفظة معبد أور وهى تعد أقدم الوثائق التاريخية فى العالم

ولقد بنى نمروذ بابل منذ ٢١٠٠ ق م وشاد نينوس بطل ملوكهم مدينة أسماها باسمه وهى نينوى وفى الوقت نفسه ولد ابراهيم أب الجنس الاسرائيلى فى أور من الكلدانيين وهى التى تسمى اليوم (مُقَيَّار) وفى ٢٠٠٠ ق م هجر وطنه وحل جنوب الشام حيث أكرم وفادته (ملك صادق) وهو الملك السورى الذى ولى ملك جيبوس (القدس الآن) . ولقد نما نفوذه ونفوذ شعبه الذين حاربوا أهل البلاد وأجلوهم وحلوا بلادهم حتى تفرق اليهود أنفسهم بالسيف كما فعلوا بالسكان الاوائل وتفرقوا فى أرجاء المعمورة وبعد ذلك بقرن من الزمان ظهر حامورابى ملك بابل العظيم والمشرع المبدع ولقد حارب جيرانه وضم أشور لملكه ولقد كانت قوانينه قيمة تسترعى النظر من بينها : العين بالعين والساق بالساق . واذا تسبب أحد فى فقء عين أحد الفقراء أو كسر ساقه فعليه أن يدفع (مينا) من الفضة واذا أجرى طبيب عملية جراحية بمشرطه البرنزى وتسبب عن ذلك موت المريض قطعت يد هذا الطبيب . واذا شاد بناء بيتا فهوى البناء على ساكنيه وجب أن يقتل

ومن ذلك نستنتج أن القوانين الموسوية قامت على أساس قانون حامورابى خصوصا فيما يتعلق بالقواعد الخلقية والاجتماعية وما ارتبط بالعدالة وقد



الاكراد فى اردية الحفلات

وجد العامود الدى خطت عليـه تلك القوانين مهشما فى ثلاث قطع تراها اليوم فى متحف اللوفر فى باريس

وبين ١٦٠٠ ، ٦٠٠ ق م تحول مقر الحكم والنفوذ الى الشمال اذ ظهر الاشوريون من الساميين ولم يسجل لهم التاريخ سوى الحرب والنضال

لذلك اتخذوا حضارة بابل أساسا لهم ولقد مدوا نفوذهم الى سوريا ومصر والعرب وأرمينية وميديا وبابل وسادت الغلبة حينا والفوضى حينا حتى كانت سنة ٧٠١ حين حاصر سنخريب القدس ودمر بابل نهائياً وزاد فى تجميل نينوى وقد أعاد بناء بابل ومما يذكر له أنه فتح طيبة عاصمة مصر وتقدم له بالولاء من ملوك الارض فى نينوى اثنان وعشرون ملكا ثم أعقبه ابنه : أشور بانيبال الذى كان الى عظمته فى الحروب محبا للعلم والادب أعاد اخضاع الثائرين ومن بينهم مصر وليديا وغزا عيلام وفتح شوشان (سوسا اليوم) وهدأ الارض المجانبة للخليج الفارسى التى كانت مثار اضطراب له وأوفد بعثة حربية الى بلاد العرب ومن أوامره لاهل الخليج الفارسى وقد كتبت فى ألواحه الطينية : (وصية الملك لاهل السواحل والبحار من بنى خدمى — السلام عليكم أرجو لكم الخير — انى أرقبكم بعينى مراقبة دقيقة ولقد فصلتكم عن وجه الشر (نابوبل ذكرى) وانى أرسل خادمى (بل ابنى) مشرفا عليكم وأنى أزوده بأوامرى وقوتى وسأكون معكم أرعى مصلحتكم واضع خيركم نصب عينى)

وفى ٦٠٦ ق م غزا الكلدانيون والميديون نينوى وأحرقوها ومحوا دولة أشور من الوجود وأعاد الكلدانيون بابل التى ظلت الى ٥٣٨ ق م

ولقد بدأ بختنصر حكمه سنة ٦٠٠ ق م ونهب معبد بيت القدس وساق كثيرا من اليهود الى بلاده وهزم نكو فرعون مصر فى قرقميش واليه ينسب (حصن بابليون) فى مصر القديمة وهو الذى أقيمت عليه الكنيسة



زعماء اليزيديين عبدة الشيطان

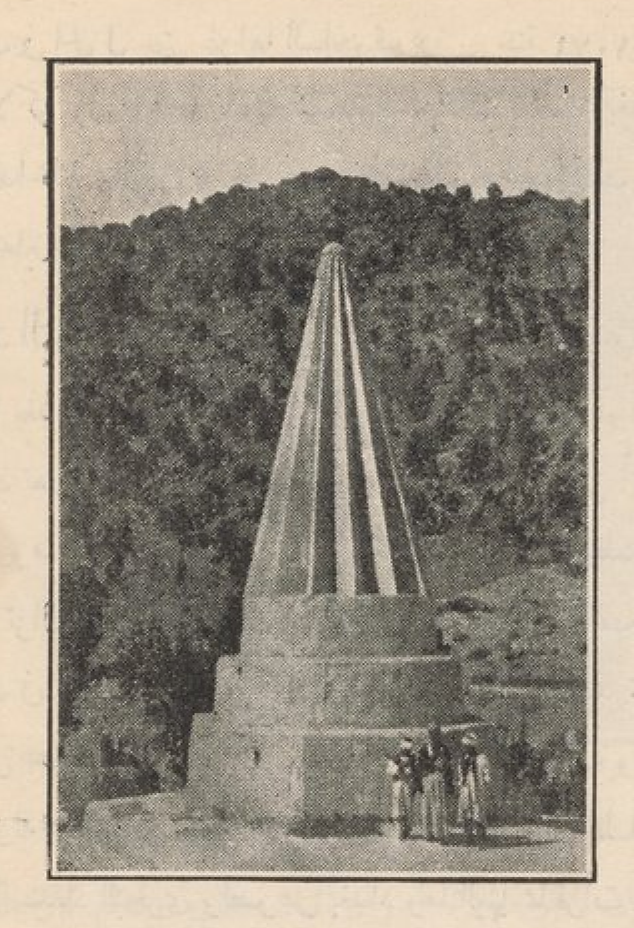
المعلقة وفى ٥٨٨ أسر يهوذا ودمر القدس ثم أخضع فنيقيا وأعاد بناء بابل. ورصف طريق مروره بالصخور وكتب على كل حجر منها (أنا بختنصر ملك بابل وأنا الذى رصفت شارع بابل بحجر الجير لمرور حفل سيدنا الاعظم مردوك . يا سيدنا مردوك هبنا ملكا أبديا !)

وفى ٥٣٩ ق م حارب كورش الاكبر بابل موفدا ولى عهده (بلشازار) فأخذ بابل وأسس الامبراطورية الفارسـية وقد كانت التوراة قد تنبأت بخراب بابل بكلمة نقشت على أحد الاحجار فى قصر بابل الشهير ولقد

أذن كورش لليهود أن يعودوا الى فلسطين وكان خلفه قمبيز هو الذى فتح مصر وفى أبان حكمه أعيد بناء معبد القدس وكانت موقعة ماراتون الاغريقية الشهيرة وفى عهـــد خلفه أجزرسيس دمرت جيوش فارس وأسطولها فى سلامس.

ولقد استخدم الفرس الكتابة البابلية المسمارية وبفضل مخطوطاتهم التى كتبوها بثلاث لغات استطعنا فك رموز الالواح البابلية ومنها عرفنا تاريخ بابل وكان أول من قرأها الالمانى فردرك جروتفند وفى ٣٣١ ق م جاء الاسكندر ودمر جيوش الفرس فى أربيل وفتح فارس كلها والافغان الى نهر السند ومن هنا عاد بجيشه وقد تملل عليه عن طريق البحر وفى بابل وافته الوفود تقدم خضوعها وبسبب اسرافه فى الخمر والمجون التى لم يألفها تدهورت صحته فمات سنة ٣٢٣ فى سن لم تزد على ٣٣ سنة بعد أن فتح كل ما كان معروفا من بلاد العالم اذ ذاك ولما سئل عمن يوصى به خلفاً له على ملكه أجاب قائلا (الملك يكون للاجدر به). ثم نقلت جثته الى الاسكندرية حيث دفنت . وقد تنازع القوم فيمن يخلفه الا أن سليوكوس أحد قواده حكم البلاد من سوريا شرقا وظلت أسرته ١٧٣ سنة وسميت الاسرة السليوسية وقد أقام سلوقية واتخذها عاصمته .

وفى ١٤٠ ق م هزمهم الفرطانيون من الفرس وأقاموا عاصمتهم فى طيشفون فى مجانبة سلوقية وأعقب الفرطانيين ملوك الساسانيين من الفرس سنة ٢٢٦ ميلادية وفى ٢٢٧ هزم هرقل جيوش كسرى الثانى قرب نينوى



حول هذا النصب المقدس يقدم اليزيديون ذبائحهم فى (شيخ عدى) بقرب الموصل

وفى ٦٤١ فتح الاسلام طيشفون وانمحت دولة فارس

وفى ٧٦٢ أقام المنصور مدينته المستديرة : بغداد وكان يواصل العمل مائة الف عامل وقد كلفته تسعة ملايين من الجنيهات وأسماها دار السلام وان ساد فيها فيما بعد اسم بغداد وهو اسم زاهد كان يعيش هناك وقد غطت عظمتها على نينوى وبابل وسلوقية وطيشفون وبلغت أوجها أبان حكم الرشيد وبعد

ذلك أخذت فى الخمول حتى غزاها السلجوقيون سنة ١٠٧١ وفى ١٢٥٨ دمرها هولاكو وفى ١٣٩٣ تيمورلنك وبعد ذلك وقعت بغداد فريسة الحروب الداخلية والثورات حتى فتحها الاتراك وظلت تحت حكمهم حتى احتلها الانجليز فى الحرب العظمى

بغداد اليوم : اقيمت سنة ٧٦٢ فى مكان قريتين من القرى الفارسية (بغداد والكرخ) وقد وضع المنصور نفسه أول لبنة بيده. وتعجب إذ تعلم أن تلك العاصمة — دار السلام — وهى أحدث عهداً من أثينا وروما والقسطنطينية ولندن لم تترك أثراً يدل على عظمتها الاولى . على أنها لا تزال تغص بذكريات الماضى المجيد وخيالات ألف ليلة وليلة . تلمست ذلك فى ازقتها المختنقة التى كان يجوبها هرون الرشيد نفسه متخفيا ومعه بعض صحبه ليقف على شئون الناس ومظالمهم بنفسه وليرى مبلغ صلاح إدارته للبلاد وفى تلك الطرق الضيقة والاسواق الملتوية تذكر شهرزاد والسندباد البحرى ولصوص بغداد وما اليها مما قرأت فى أقاصيص الف ليلة . ولقد اختلف القوم فى موضع بغداد الاصلى بالضبط فبعضهم يرى انها فى مجاورة الكاظمية والبعض عند محطة (بغداد غرب) ولا يكاد يربطها بالماضى سوى أسماء ضواحيها ومدفن الامام الاعظم أبى حنيفة وكان تصميم بغداد على نمط معسكر رومانى ببواباتها الاربع تواجه الجهات الفرعية للبوصلة : باب خراسان والبصرة والكوفة والشام وكان يقوم على كل بوابة بيت مشيد وكان يحب المنصور أن يأوى الى باب خراسان كلما

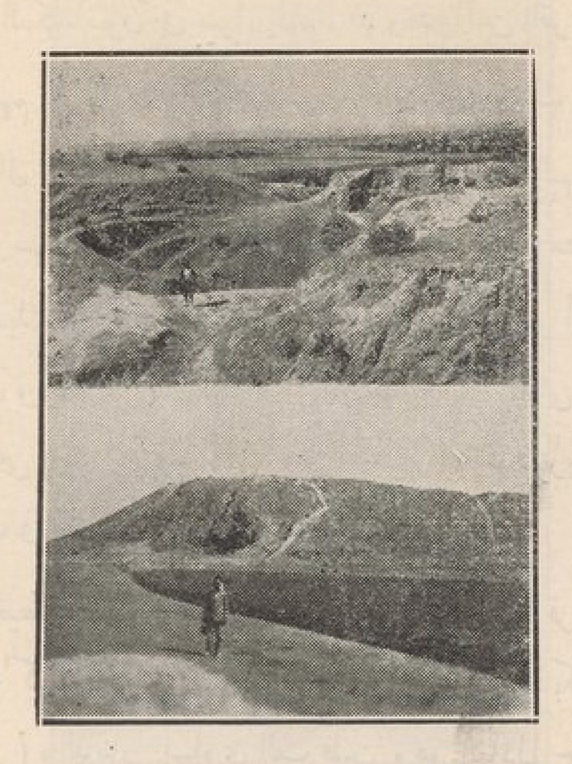


اليزيديون فى حفلة الزواج

طلب الراحة وكان بالمدينة ثلاثة أسوار اثنان متقاربان لدفع غارات العدو والثالث حول دور الامارة والحكم وكان أبو حنيفة ممن أشرفوا على بناء المدينة ولقد جلبوا مهمات البناء من كل فج — فأبوابها الحديدية التى ظن أن شياطين سليمان هم الذين صاغوها — جلبت من واسط . ومن بابل جلبوا الآجر وقد حاولوا هدم طيشفون لهذا الغرض وفى سنة ٧٦٨ بدأوا فى بناء مسجد جديد وضاحية أسموها الرصافة Causeway ولا يزال يطلق على شرق بغداد وكانت تتجمع دور الصناعة والتجارة خارج الاسوار ولقد أدت

كل الطرق الرئيسية العالمية اذ ذاك اليها فمن باب خراسان يبدأ (الطريق الذهبي الى سمرقند وحي الشعراء والمنفذ المؤدى الى ذهب الشرق وعلمه) ومن باب الكوفة يبدأ طريق الحج الى مكة وقد أقامت زبيدة المحـــاط لراحة الحجاج فى مواضع عدة منه وكانت جهات الحركة خارج الاسوار تسمى الكرخ. ولقد عاش المنصور ثلاث عشرة سنة بعد بناء مدينته وأعدوا له مائة مقبرة لكيلا يهتدى أعداؤه الى مثواه الذى لا يعرف الى اليوم وكان المنصور صارما فى العدل شحيحا فى المال حتى عرف بين الجميع بابن دويك أى ابن النقود ولقد ظل سلائله فى الحكم خمسمائة سنة

الموصل: مثوى أبي تمام الطائى ومنها الطغرائى صاحب اللاميـــة المشهورة وأبناء الاثير الثلاثة وكانت عاصمة بنى حمدان ثم عاصمة الدولة الزنكية لذلك كنت أحسبها بلدة مشيدة جذابة فاذا بها مجموعة من ابنية تحكى ابنية القرون الوسطى كلها أقبيه فطساء كالسجون والبلدة قذرة مهدمة ليس فيها حى واحد يمتدح فكأنها بلدة أثرية وحتى نهر دجلة التى تقع عليه تراه قذراً منتناً وتطل عليه البيوت القديمة فى غير نظام وأسواقها أجحار صغيرة وأنت أينما سرت اشمأزت نفسك من الروائح الكريهة التى تنبعث من كل مكان وزاد الطين بلة جوها اللافح المحرق فأنت لا تكاد تبصر من كثرة الدخان والتراب الذى يخيم فى هوائها ويحرج الصدر ولقد أذكرتنى بهجير بلاد الهند وعلى ضفاف دجلة يلقى القوم قماماتهم وأقذارهم وترى جميع النساء يغسلن ثيابهن وبيد كل مطرقة لدق الثياب والبلدة غاصة بالمقاهى الوطنية



وسط اطلال نينوى التى تطل على الموصل

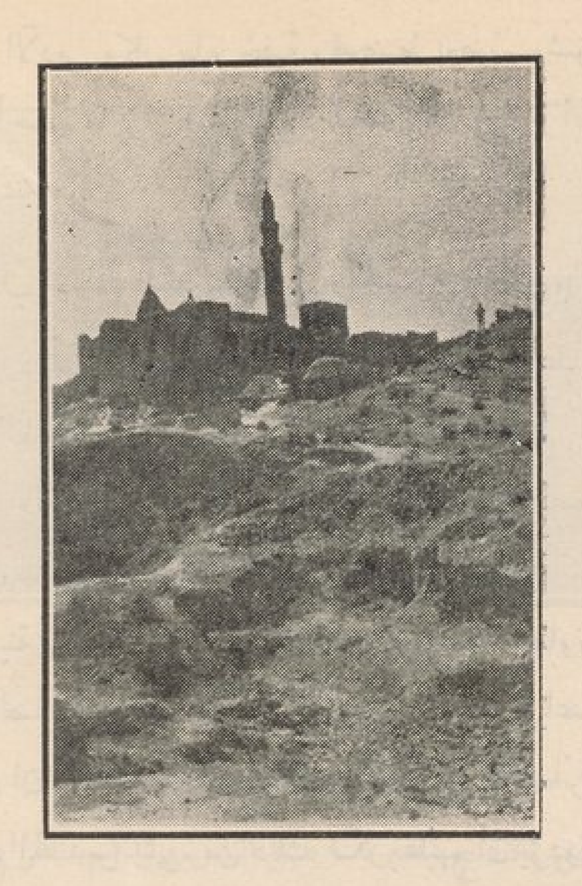
ترى الناس قعودا بها كانهم الذباب والمساكن كانها الجب تنظر فترى أهلها نياما على الارض داخل ذاك الظلام فى خمول منكر وهناك معبر لدجلة بقنطرة تحملها الزوارق وتكملها قنطرة من حجارة اذا طما الماء مر خلال عيونها وقد كان النهر أبان جزره اذ لا يفيض بالماء الا فى الشتاء

وأهل البلدة اخلاط من أجناس لا عدلها من بينهم الاكراد بأرديتهم الفضفاضة يحملون اسلحتهم معهم دائماً واليزيديون فى مظهرهم الوحشى

بقمصانهم الحمراء الغريبة والاشوريون من الجبال وسحنهم تدل على أنهم من قطاع الطرق والكلدانيون فى سراويلهم وقد وفدوا من القرى المسيحية ، والبدو بوجوههم التى كادت تحرقها الشمس وكثير غير أولئك . والعراقيون قوم نحاف طوال القامات أنوفهم منقارية سامية كانوف اليهود ويلبسون اليوم فوق رءوسهم (الفيصلية) فى ألوان مختلفة وشكل مضحك يذكر المرء بعرف الديك ولا أرى فيها وقاية من شمس أو مطر أما المحافظون فيلبسون العقال ونساؤهم أكثر رشاقة من التركيات وأعجب شىء فى هندامهن المعطف الخارجى (العبا) فهو كالعباءة من الحرير الاسود يرسل من فوق الرأس فيرفرف فى حرير مهفهف فضفاض وشكل أنيق

والبلاد رخيصة فالفندق الكبير لم يزد أجره على عشرة قروش ووجبة الطعام الفاخرة كذلك غير أن الطهى هناك دونه فى تركيا بكثير وأساس نقودهم (الفلس) والدينار يساوى الف فلس وهو يعادل جنيها انجليزيا وأنت لا تكاد تسمع من القوم الا حديث (الفلوس) فكأنى قد انتقلت من بلاد (البرغوث) الى بلاد (الفلس) وهم يعطون صنوف الطعام أسماء غريبة لا نفهمها فالبطيخ مثلا يسمونه (شمزى)

والموصل محرومة من السكة الحديدية مع انها كانت فى الزمن الغابر اكبر مركز تجارى وصناعى وكانت تتوافر بها الغلال وكانت تقع على الطريق التجارى الهام بين حلب وبغداد الى الشرق وفى زمن العباسيين كانت تشتهر بنسيج من القطن الناعم سمى (موسلين) او (موصلى) وهو لا يزال



مقام النبي يونس فوق انقاض نينوى

يحمل هذا الاسم فى الدنيا رغم أنها لا تصنع منه شيئاً اليوم وحولها منطقة عظيمة الخصب وتجاورها منابع البترول كل ذلك يجعل الزائر يدهش لعدم وصلها بسكة الحديد وحول المدينة بقايا سور زرنا منه جزءا بجانبه مدفن المؤرخ العربى (ابن الاثير) ولم تكن الموصل منطقة صالحة للسكنى فى الحرب الكبرى اذ داهمتها التيفوس والطاعون الذى دفع بالسكان هناك أن

يأكلوا اللحم الآدمى وكان يباع خفية وقدضبط بعضهم وشنق فى الميدان الرئيسى ولعل أحسن ما يزار فيها المسجد الكبير الذى زاره ابن بطوطه فى رحلته وكتب عنه

اليزيديون عبدة الشيطان: وأعجب من رأيتهم فى الموصل اليزيديون فى ارديتهم الحمراء الغريبة . يرون أن الله روح عليا سامية حلت قدرته فى ملك الطاووس (الشيطان) الذى يتصرف فى العالم كيف ما شاء ويصيب الناس بالأمراض والاذى كما يسبغ عليهم نعمة الصحة والرخاء وشعار الشيطان لديهم طائر شبيه بالطاووس وهم لا يسمونه الشيطان فتلك كلمة مزرية مهينة بل يسمونه (أمير الظلام) او (ملك الطاووس) وهم يتوسلون اليه بالصدقات والقرابين ولا يعلمون أولادهم قواعد للصلاة ولا التعبد ويقولون ان الصلاة فى القلب ، يجب ألا تكون لها شعائر ظاهرة ولم يأمرهم كتابهم المقدس بشىء من ذلك لكن عليهم أن يؤدوا كثيرا من الواجبات لقساوستهم ومعابدهم وهم يشركونهم فيما لا يقل عن ربع إيرادهم السنوى وميلهم للتصدق عظيم أضحى مضرب الامثال ويقال ان أمراءهم وهم فى مقام القسس من سلالة يزيد ومن ثم جاءت تسميتهم باليزيديين ولكل مجموعة من عائلاتهم قسيس أو امير امره مطاع وعطاياهم اياه واجبة فان قصر أحدهم فى ذلك حلت عليه لعنة الأمير فاضحى من الخوارج وتلك الضرائب يتقاضاها القسيس عند الميلاد والزواج والموت وفى وقت الشدة والرخاء شكراً لله وقساوستهم طبقات منهم طائفة يسمونها (كوشيك)



سوق كركوك

يلبسون أردية سوداء ولا يختنون كباقى اليزيديين وهم الذين يتولون الموتى بالغسل والدفن . فتفتح المقبرة ويقبل الناس ويدهم القرابين وبعد قليل يتمتم (الكوتشيك) ويرغى ثم يغيب عن العالم وهو ملقى على الارض ثم يفيق بعد أن يكون قد اتصل بالارواح وعندئذ يخبر الناس عن مآل روح الفقيد وهل حلت مولودا آدميا جديدا ـ وذلك ان كانت العطايا كافية على ما أظن — أوحلت جسد كلب أو حمار او حيوان خسيس وفى جميع الحالات يقدم له الطعام لمدة سنة وتهدى اليه كل ملابس الفقيد . وهم لا يعتقدون فى جهنم . ويقص البسطاء منهم نبأ طفل كان اسمه (ابريق الشوطه) فاصيب بمجموعة من أمراض وعاهات فاخذ يبكى بدموع جمعها فى جرة مدة

سبع سنين ثم صبها على نيران الجحيم فأطفأها فشكرته الآلهة على فعلته ويرون أن الله خلق ٧٢ آدما ظلت ذرية كل منهم عشرة آلاف سنة وبين كل واحد والآخر فترة مثلها لم يكن بها من الناس أحد واليزيديون ابناء آدم الاخير لا عن طريق حواء بل عن طريق حورية التى زفها ملائكة الجن لآدم وهم ليسوا أبناء حواء فان قالوا ابن حواء قصدوا غيرهم وهم يقولون بأن جدهم نوح وان لغة الجنة هى اللغة الكردية التى يتكلمونها اليوم

ومن عاداتهم ان تقرع الطبول عند زواج اى فرد منهم لاشهاد الناس ان فلانا قد تم زواجه من فلانه وهم يبيحون تعدد الزوجات لكنهم لا يبيحون الطلاق قط ونساؤهم سافرات الا فى الاسبوع الاول من الزواج حين تظل الزوجة فى عزلة تامة والامير يستطيع بسلطته أن يسلب اية فتاة شاء ولا عيب على الفريقين فى ذلك . والشيخ هو الذى يقود الزوجة الى بيت زوجها ليلة الزفاف ولا تخطو عتبة الباب الا بعد ذبح شاة تطأ دمها وهى داخلة ولتوثيق صلة الزوجية يضرب الزوج جرة (قلة) بها مجموعة من اجراس فى الحائط فوق رأسها ثم يكسر رغيفا ليعلمها كيف تكون شفيقة بالجائعين

وغالب اليزيديين فى مقاطعة الموصل وعددهم بين ١٨ ، ٢٠ ألفا ومنهم بقية ضئيلة فى الشام وأخرى فى القوقاز لكن ثلاثة ارباعهم فى الموصل حول جبال (سنجار) وكعبتهم المقدسة (شيخ عدى) على مسيرة ٣٥ ميلا من الموصل يزورونها فى عيدهم الاكبر فى أكتوبر والشيخ عدى قديس سورى



وسط عيون البترول فى بابا جرجر (كركوك ـ الموصل)

نزل هذا المكان ونشر مذهبه فى القرن العاشر وأخرج كتابه المقدس وقد قبض عليه جنكيزخان وساقه الى فارس حيث قتل ومن سلائله (شيخ عدى ابن المظفر) الذى دفن فى هذا المكان ونبع تحته الماء المقدس الذى يخالونه متصلا بزمزم وقد وجدت تلك العقيدة فى بلاد الاكراد منبتا خصبا لانها كانت تدين بالوثنية وعبادة الطبيعة من شمس وقمر وشجر وينابيع لذلك لا تزال ترى لهذا أثراً فى مذهبهم فهم يقدسون الشمس والقمر ويقبلون الارض جهة المشرق والمغرب ولشدة خوفهم من الاسلام اخفوا اسرار كتبهم المقدسة وكل من أفشى شيئا أعدم فورا لكن حدث أن أحدهم اعتنق النصرانية فأفشى سر تلك الكتب الى القسيس آنسطاسى أحد زعماء المسيحية الذى دفع للرجل مبالغ طائلة كى ينسخ الصفحات نسخا مضبوطاً ففعل وترجمت وهما كتابان (كتاب جلوه) ومعناه الخلاص والكتاب الاسود (مصحف راش) والآيات مخطوطة على الجلد وتحفظ فى صندوق

من فضة عليه صورة طاووس ومفاتيحه بيد الامير ولا يقرأه الا القسس أما أفراد الناس فممنوعون حتى من تعلم الكتابة لهذا الغرض

وأكثف جموعهم حول (باعذزى) بقرب الكوش فى كردستان والمعبد الرئيسى فوق جبالهم التى شهرت بقطاع الطرق وتطلى معابدهم وبيوتهم ومقابرهم باللون الابيض لان الشيطان يحب ذلك اللون وحول المعبد مجموعة من مبان حقيرة أعدت لايواء الحجاج فى موسم الحج وتراب المكان مقدس عندهم يعجنون منه اقراصا يكسرون واحدا منها لتبريك الزوجية وتوضع قطعة منها فى فم الميت قبل الدفن وباب المعبد مزركش بالنقوش وهناك ترى أفعى ذات رأس أسود هى شعار للشيطان وقبيل زيارة المكان يجب تقبيلها ثم تخلع الاحذية قبل الدخول ولا يجوز لمس عتبة المدخل لانها مقدسة

نينوى : اقلتنى من الموصل (عربانه) الى نينوى فى مواجهة الموصل من الضفة الاخرى لدجلة وفى نحو ثلث ساعة بدت كومة كبيرة من الثرى والطين المتماسك فى ارتفاع كبير . تسلقتها فتجلت الموصل على بعد وراء النهر فى مشهد جميل بمآذنها العديدة أما ذاك الطلل فلم أر به الا سراديب ومغاير لم تنم عن شىء من العظمة البائدة فلقد كان أهلها حربيين بواسل وملكها قائدا عظيما ولم يكن لهم دراية قط بالزراعة والصناعة كلا ولا بأى نوع من أنواع العمل سوى الحرب وكانت تزود نفسها بحاجياتها من الاسلاب وحتى المهندسين الذين شادوها كانوا من أسرى الحرب وكم نقل ملوكها من عشائر

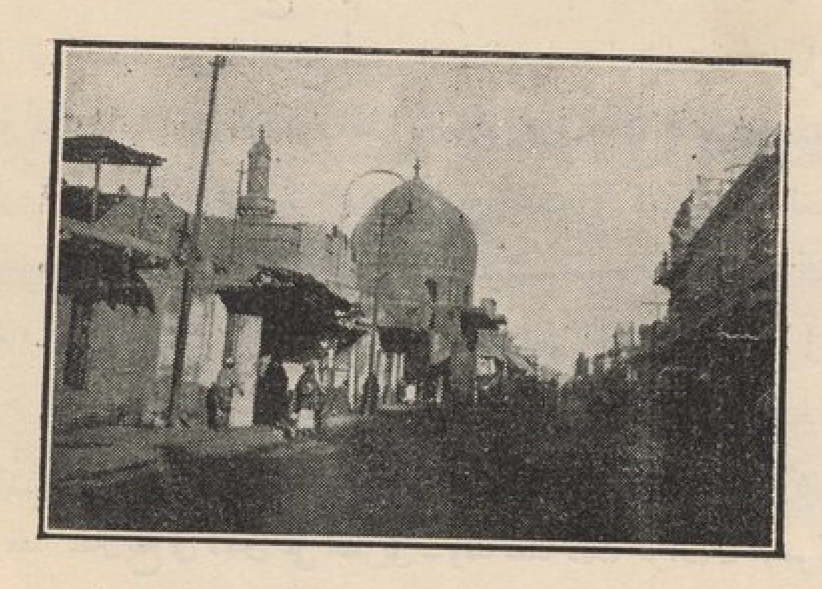


نعبر نهر الذاب بسياراتنا على تلك السابحة

وشعوب أخرى ولقد كان إلاههم الاكبر (أشور) شادوا له المعابد الهائلة وشنوا باسمه الغارات وأخذوا الغنائم وأخضعوا جميع جيرانهم لسلطانهم وأرغموهم على دفع الجزية ومن بينهم آسيا الصغرى وقبرص وفلسطين وكردستان وحتى مصر نفسها وكان نزلاؤها الاوائل من أهل بابل ولا نعلم متى احتلوها باليقين لكنها كانت قائمة سنة ٣٠٠٠ ق م وكان حكامها الاول اتباع ملوك بابل وأهلها أقرب شبها بالدم السامى من أهل بابل فهم بنو عمومة الاسرائليين وكانت لغتهم أشبه بلغة آل يهوذا ولقد خربها الميديون سنة ٦٠٦ ق م ومحوا آثارها حتى لم يكن يعرف موقعها أحد ولما جاء العرب وأسسوا الموصل أبصروا بالتلال قبالتها فتخيلوها مقر الجن

الذين رصدوا لحراسة كنوزها القديمة حتى كشف الاوربيون عن الكثير من آثارها وبخاصة الالواح الحجرية التى نقشت بالخط المسمارى وتماثيل هائلة لثيران لها أجنحة الطير ووجوه الآدميين بلحى مرسلة أيدت أن تلك لاشك اطلال لمدينة عظيمة . وكنت أرى آثار الاحتراق والتخريب بادية فى بقاياها من أثر الغاصب . ولقد بلغت أوجها أبان حكم (سنخريب) أخريات القرن الثامن قبل الميلاد ويظهر أن ذاك الملك أراد أن ينشئها من جديد فشاد لهـــا الاسوار المنيعة التى تراوح علوها بين خمسين ومائة قدم وعرضها وسع مرور أربع عربات متجاورات تتخللها أبواب من خشب الارز تزينها مقابض النحاس وكانت تجانبها السباع ذوات الاجنحة يزن الواحد خمسين طنا ويطل الباب الغربى على دجلة وكان يشق الاسوار والبلدة رافد لدجلة هو (خصار) كانت تزين جوانبـــه القصور الملكية الفاخرة وقدمررت فى تجوالى بمكانها من هذا التل الذى يسمونه (كويونجيك) هنا ذكرت (أشور بانبال) فى قصره الفاخر وسط كنوزه القيمة وقدأحاط به الغزاة فآثر أن يموت بنار العدو التى التهمت القصر وما فيه وكم كان تشفى انبياء بنى اسرائيل ناهوم وسفانيا عظيما اذ شهدا تدمير مملكة أشور التى عاثت فى الارض قتلا وسلبا

نزلت من ذاك التل الخرب صوب تل آخر يقع الى جنوبه بقليل ويسمونه (النبى يونس) وهو أيضا من بقايا ضواحى نينوى ولم يتعرض للتنقيب فيه أحد لان رفات النبى يونس الذى ابتلعه الحوت تدفن فوقه فى مسجد ذى مئذنة مشرفة دقيقة وفى داخل الحجرة الوسطى رأيت قطعة من سمكة كبيرة

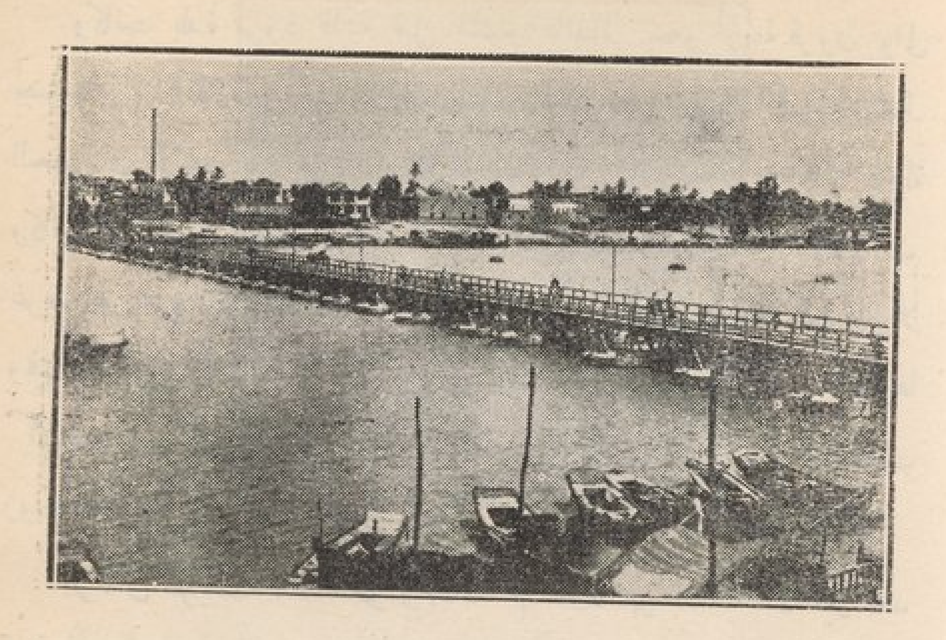


الشارع الجديد او شارع ابن الرشيد ويكاد يكون الوحيد فى بغداد

من ذوات السيف يقول القوم عنها أنها السمكة التى ابتلعت يونس عليه السلام وقد استرعت نظرى البسط الثمينة التى يفرش بها المسجد والضريح وقد أهداها اليه سلاطين آل عثمان . ويقول البعض أن ذاك المدفن لايحوى عظام سيدنا يونس بل عظام قديس مسيحى كان يقوم حولها دير قديم !. وفى جوانب ذاك التل عثر بعض علماء الالمان على المكتبة الملكية لنينوى فى الالواح الطينية التى بحثت فى مختلف العلوم والتى نقلها ملوكهم وبخاصة (اشوربانيبال) من مختلف بلدان العالم ونقشها على الطين كتاب أخصائيون بالخط المسمارى ومن أشهر ما ترجم منها قصة الطوفان والبطل (جالجاميش)

الى كركوك ومنابع البترول : قمت مسرعا من الموصل تلك البلدة التى استقبلنا جوها اللافح أسوأ استقبال ولم تترك البلدة فى ذا كرتى فضيلة أذكرها بها اللهم الا كرم أهلها والعراقيون قوم كرام بحق فقد جمعوا بين كرم الخصب الزراعى وكرم عرب البادية حدث انى كنت أتناول الغداء فى أحد مطاعم الموصل وكان يجلس قبالتى عراقى فجرتنا مناسبة شدة الحر الى طرف من الحديث وما كدت أستأذن بعد انتهاء الطعام حتى قال لى : تمهل حتى تتناول (الدندرمة) وكان قد طلبها لى ودفع ثمنها وحاولت الاعتذار فابى على ذلك . وقد كان يزاملنى فى السيارة الى كركوك طائفة منهم كانوا كلما وقفنا نستريح فى فندق على الطريق ـ وقد فعلنا ذلك مرات ـ الزمونى بشرب الشاى واكل المرطبات على حسابهم ولم أستطع دفع شىء قط . قمت الى كركوك فى سيارات للبريد منتظمة تقوم يوميا فى الصباح مقابل أجر ثلاثين قرشا فاخترقنا دجلة ومررنا بمتنزه كبير اقامته البلدية ترويحا للناس وهو فسيح لكنه فى غير تشذيب ثم أوغلنا فى أرض سوداء مبسوطة الى الآفاق ليس بها شجرة واحدة ويبدو عليها الخصب على انها لا تزرع الا على امطار الشتاء فقط . ثم عرجنا الى يميننا على :

نمروذ : وهى إحدى مدن الاشوريين التى قامت قبل بناء نينوى كمقر للحكم ولم نر فيها سوى تل من تراب يعلوه شبه برج شاهق متهدم وكان نمروذ ملكا من ملوك بابل يروى القوم عنه أن سيدنا ابراهيم الخليل سيق اليه وأمره نمروذ ان يعبد النار فقال ابراهيم : لكن الماء أقوى اذ هو يطفىء النار فقال



جسر مود ويقوم كسائر جسور بغداد على الزوارق

اذن فاعبد الماء قال ولكن السحاب هو الذى يرسله قال اذن فاعبد السحاب. قال بل هى الريح التى تدفعه قال فاعبدها قال لكن الانسان مسيطر عليها فغضب نمروذ وأمر أن يعبد ابراهيم النار ويلقى فيها فألقى فيها سبعة أيام. خرج بعدها سالما فأراد نمروذ أن يرى اله ابراهيم فبنى برج بابل لكنه لم يصل السماء فأتى بنسرين يجران عربة ودفع بها الى السماء فسمع نمروذ صوتا من السماء يقول : أين تذهب ياملحد ؟ فصوب سهما الى مصدر الصوت ورماه فعاد اليه ملطخا بالدم فظن أنه طعن آلهة ابراهيم وقتلها

ويقص الناس أن برج بابل اثار غضب الله فانزل عليه صاعقة من السماء و كنت اسمع اسم نمرود يطلقه العراقيون على كثير من أبنائهم

وكانت بلدة نمروذ قائمة قبل اشور بانيبال بنحو أربعة قرون والى جنوبها رأينا أطلال (أشور) أقدم بلدانهم اسموها باسم آله الحرب ويخال البعض أن الاشوريين من سلائل الاراميين الذين حلوا شمال دجلة وكانوا أهل حرب القوا الرعب فى قلوب أهل العراق جميعا ولم يكن لهم غرض من غزواتهم الدائمة سوى النهب والسلب لذلك لم يدم ملكهم طويلا وفيها عثر بعض الالمان على جرار تدفن بها بعض موتاهم وفى انقاض سورها كشف حجر كتبت عليه قصة (سميراميز) أو (سيدة القصر) وكانت زوج أحد ملوكهم سنة ٨٢٠ ق م ويسمى الناس هذا المكان جبل القمر

جزنا فى طريقنا عدة أخوار جافة ثم عبرنا نهر الذات الاكبر عند قرية (جوير) وهو احد روافد دجلة تياره سريع وماؤه صافى الزرق وكانت القرى صغيرة بيوتها بالطين وسقوفها منحدرة لان مطر الشتاء كثير عندهم ثم عبرنا نهر الذاب الاصغر ولم نعرج بينهما على أربل التى انتصر فيها الاسكندر على دارا الثالث سنة ٣٣١ ق م وكانت على مقربة منا وكان جل الناس من الاكراد والعرب والعراقين يتكلمون التركية والعبرية والكردية وبعد أن قطعنا نحو مائة وسبعين كيلومترا فى خمس ساعات دخلنا :

كركوك : فبدت على صغرها اجمل من الموصل وأعدل جوا بها قسم جديد لا بأس بتنسيقه أما المقاهى والفنادق فاقبية تحكى تلك التى فى الموصل وكنت أعجب لعدم سماعى العربية الا قليلا فالسواد الاعظم حتى من الاطفال يتحدثون بالتركية أولا والكردية ثانيا فهاتان اللهجتان تكادان تكتسحان



مختلف الازياء فرق جسر دود مستراضهم عند الاصيل

العربية وغالب الناس مسلمون لكنهم فى جهل عميق وسذاجة بادية وتعوز جسومهم النظافة وهندامهم التنسيق والتوحيد

أقلتنى (عربانه) الى بابا جرجر حيث توجد آبار البترول الشهيرة فوصلتها فى نصف ساعة وهناك بدت ميادين البترول فى سهول ممدودة الى الآفاق يكاد ينز البترول الاسود من كل ارجائها وقد حفرت الشركة - وهى انجليزية فرنسية ألمانيـــة - ٣٦ عينا أقامت على كل شباك الحديد (والفناطيس) والساريات والمضخات وكلها تتصل بأنابيب ترى ملقاة على الارض وكأنها الشباك تجمع البترول فى المركز الرئيسى حيث يكرر تكريراً جزئيا ويدفع بمضخات فى أنابيب تمتد الى ثغر بيروت . وفى كثير من الحفائر كنا نرى سيل البترول الاسود الناعم يتدفق ويسيل مختلطا بالماء وهذا يخول لمن أراد ان يمـــلأ صفائحه منه وهو يستخدم فى الرصف . وفى بعض

البؤرات وبخاصة المسماة (بابا جرجر) ومعناها أرض النار - يشتعل لهيب من مسارب وفوحات فى الارض ويظل متقدا صباح مساء وانت اذا حفرت بؤرة واشعلت بها عودا من ثقاب ظلت الارض ملتهبة باستمرار مما يشعر بغنى الارض المفرط فى الزيت وفى مناطق الآبار نفسها يحرم القانون اشعال النار أو التدخين . وقد وقفت وسط الفوهة الكبرى وكأنها كأس لبركان متاجج وكانت ألسنة اللهيب مندلعة من حوله . وصخر الاقليم يبدو كالطفل المصفر تشوبه حمرة ونواتىء الصخر خليط من الجير والخرسان وأينما حفرت ظهر نز الزيت والعيون المفتحة التى يخرج منها القار لا تدخل تحت حصر وقد كان للاتراك نصيب فيه لكنهم باعوه للشركة الحالية والشركة قد وضعت الطرق ومدتها هناك أميالا واقامت المبانى على الربى للسكنى ومكاتب الأدارة ويدلك على مبلغ عظم انتاج هذه المنطقة أن الشركة قد انفقت مبلغ ١٥٨ مليون جنيه على أعمال التحسين والاستثمار

الى بغـداد . قام بنا القطار الى بغداد مسافة ٣٢٥ ك م فى عشر ساعات وسط سهول نصف مهملة منظرها موحد ممل ليس به شجر وكانت القرى شبيهة بقرى صعيد مصر وبعد نصف الطريق عبرنا رافداً كبيرا لدجلة اسمه (ديالا) بعده زادت المزارع والنخيل وكثرت القرى فحاكى المنظر بلادنا الا فى ندرة القنوات واخيرا اقبلنا على بغـداد من مورد متهدم مترب منفر فكنا كأنا ندخل قرية صغيرة ووقفنا قليلا على محطة (بغداد شرق) ثم نزلنا فى (بغداد غرب) فكانت منى خيبة أمل لانى كنت أخال بغـداد



لا يزال نساء الاسرائيليات فى بغداد محجبات

رائعة المناظر طلية البنيان تليق بعاصمة دولة ناهضة ذات ماض مجيد . نقلتنى عربة واخترقنا الشارع الوحيد فيها وهو شارع الرشيد الذى يقطع البلدة من طرف الى طرف وبه كثير من المتاجر ودور الملاهى والمقاهى مبانيه قديمة وفى غير انسجام ولا تكاد الابنية تعلو طابقين وتمتد على جانبيه

الاعمدة على نحو ما نراه فى شارع محمد على بمصر وفى جانب منه وقف بى السائق امام (نزل هلال) وما كاد يستوى بى المجلس ويخيم الليل حتى كان الفناء الرئيسى للفندق وهو الذى تشرف عليه كل الحجرات مكانا للغناء والموسيقى والرقص مما أذكرنى برفه بغداد أبان عزها البائد وجال الفكر فى الف ليلة وما روى لنا من أعاجيب . نزلت فاذا المكان غاص بالمستمعين المترنحين الذين لعبت الخمر بعقولهم ثم خرجت الى الطريق فاذا سيول من الناس فى لهو ومجون رغم أن هندامهم الشرقى العربى يتنافر مع كل أولئك . وفى الصباح تفقدت كثيرا من نواحيها فلم يرقنى بها شيء كثير سوى جسورها التى تعبر دجلة وتصل ما بين الرصافة فى الشرق والكرخ فى الغرب وتلك الجسور تقام كلها على الزوارق فتراها تهتز صعودا وهبوطا مع مد الماء وجزره وأهمها جسر (مود) على اسم القائد الانجليزى وهو احدث الجسور جميعا يصل مابين ازحم جهات المدينة ويؤدى فى الجانب الغربى الى قسم جديد به المتنزهات والمقاهى ودور الملاهى . ويتوسطه طريق فسيح به تمثال للملك فيصل يمتطى جوادا وهو فى زى عربى بالعقال وعند الاصيل يدهش المرء لسيل المارة الدافق فوق القنطرة وجماهيرهم المتلاصقة الاكتاف من نساء ورجال يروحون ويغدون فى نشاط وحركة كأن البلدة فى يوم عيد . هنا يعتقد المرء ان الشعب العراقى مرح ميال الى الرفه والمجون بشكل يفوق كل وصف وقد استرعى نظرى جمال السيدات ورشاقتهن يسير السافرات منهن — وغالبهن من اليهود — فى هندام أنيق عليهن

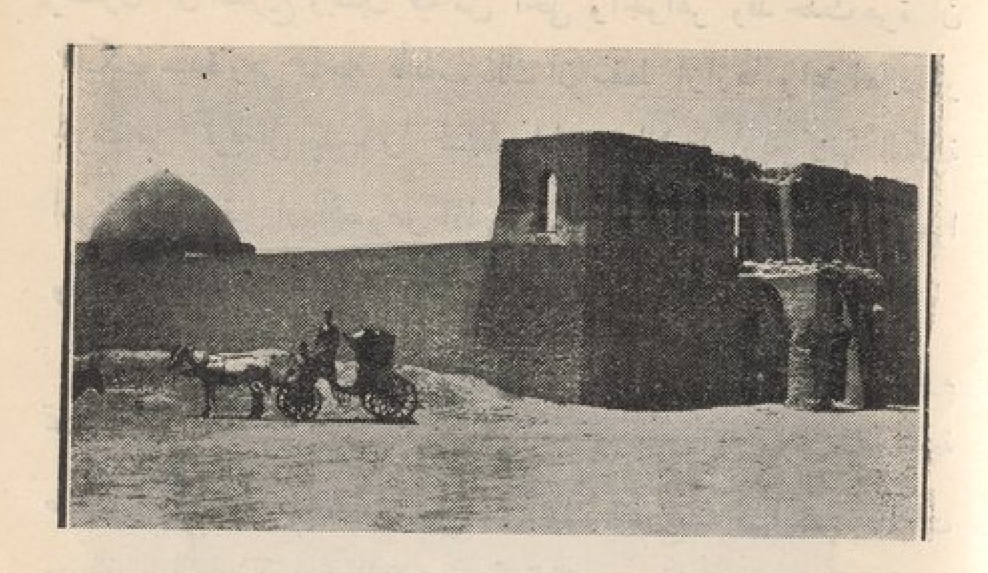


مثل للجمال الاسرائيلي في بغداد

المعاطف المهفهفة تتدلى من فوق الرءوس وكأنهن يفاخرن بأزارهن هذا فهو لا يقل ثمنا عن عشرة جنيهات وللاغنياء باضعاف ذلك والمسلمات يسمونه (العبا) ويلبسه حتى صغار البنات وهو من حرير ينسج على اليد وبعضه تتخلله خيوط الذهب ويلفت النظر في نساء العراق شعورهن المرسلة

الغزيرة التى تزيدهم جمالا ويقولون ان الحناء التى يغسلون بها الرأس عند الاستحمام هى سبب ذلك ولعل نقطة الضعف فى جمال النساء طول الانوف ودقتها ويندر ان ترى بينهم القامات الطويلة والاجسام الممتلئة السمينة بين كلا الجنسين على أن منطقهم جميعا منفر غير موسيقى

وفى المدينة مجموعة من مساجد على الطراز الفارسى بمناراتها الدقيقة والقباب التى يكسوها القيشانى الازرق وقد بدأت زيارتى بمسجد الاعظمية : وفيه يدفن الامام الاعظم ابو حنيفة شيخ المشرعين وكان مولده سنة ٨٠ ووفاته سنة ١٥٠ هـ والضريح تحيطه شباك الفضة الثقيلة وفى اطرافها زينة فى شبه حراب ذهبية وقد كتب حولها بالفضة كثير من آى الذكر والحكم المأثورة والقبة يغشاها القيشانى من داخلها والنحاس الاصفر البراق من خارجها وقد جدد طلاؤه بأمر صاحب الجلالة الملك السنى فيصل الاول وفيه دفنت رفاته بعد زيارتى بأيام قليلة ولم يكن بالمسجد منذ زيارتى أحد سوى خدامه . بعد ذلك عبرت النهر الى الضفة الغربية صوب الكاظمية وهى بلدة عتيقة يقدسونها لان بها مدفن الامام موسى الكاظم من قادة الشيعة والمسجد فاخر يأخذ بالالباب اقامه نادر شاه من ملوك فارس وزاد فيه سلاطين الفرس بعده وقد أمر أحدهم بعد زيارته للحرم ان تكسى مناراته بطبقة من ذهب خالص ثم زاد فيه الترك بعد ذلك وفيه جانب اقامه سليم الاول والمدفن تعلوه قبتان وتحوطه اربع منارات بريق الذهب الاصفر الذى يكسوها جميعا يخطف الابصار وحول القباب فناء مفتوح تحوطه البوائك التى يزينها القيشانى وتحتها غرف للطلاب والزهاد

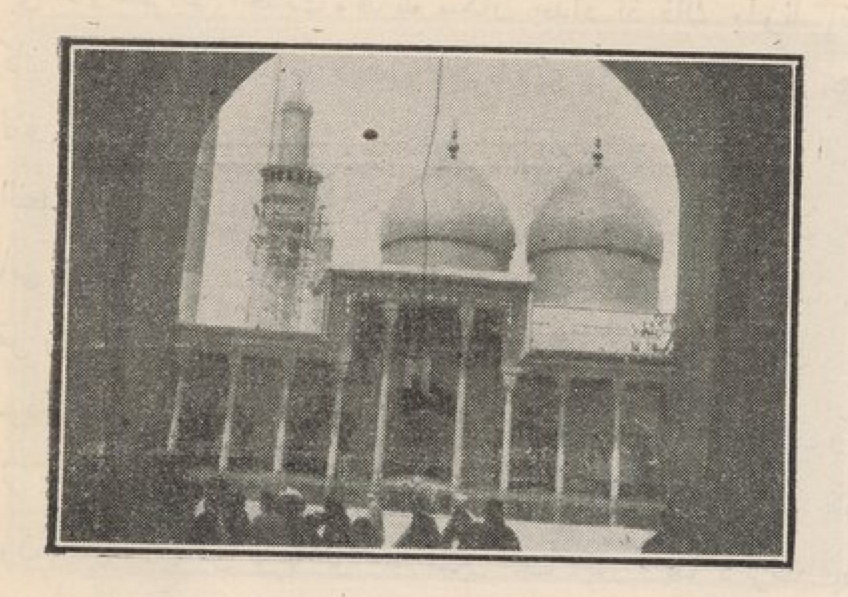


نبي الله يوشع في بغداد

وانت ترى الاركان والزوايا والاقبية معتمدة ترصع بقطع المرايا وتحوط الضريح شباك الفضة الثقيلة وما كدت ادخل الباب حتى اسرع الى رهط النقباء المشعوذين بأرديتهم المميزة : طربوش عليه نصف عمامة خضراء وعباءة سوداء فتسلمني واحد منهم بالقوة واخذ يصيح صيحات ويقرأ تعاويذ وعبارات توسل وطاف بي وهو يأمرني أن أقول أدعية خاصة وراءه ولما كنا امام باب الضريح قال اركع وقبل الاعتاب فأبيت وقلت كفى فقد قرأت الفاتحة . أما سيل الناس في داخله فحدث عنه هذا يقبل وذاك يمسح وتلك تصيح وأخرى تبكي في مشهد رهيب . هنا بدت لي ترهات البسطاء ومدى سيطرة الخرافات عليهم واغلبية البلاد من الشيعة ومن السذج غير مثقفي العقول وكم من اناث

يحضرن الى الضريح ويلقين فيه من الحلى والجواهر وقد حدث مرة أن ضحكت سيدة وهى داخلة فأعقب ذلك ان سقط ازارها واعتراها دوار خرت من أثره على يديها ولم تستطع الخروج الا على أربع كانها الكلبة المهينة كذلك قيل ان اللصوص اذا احضروا الى المقام وجب ان يعترفوا والا التصق بدنهم بالجدران فلم يستطيعوا الحراك !

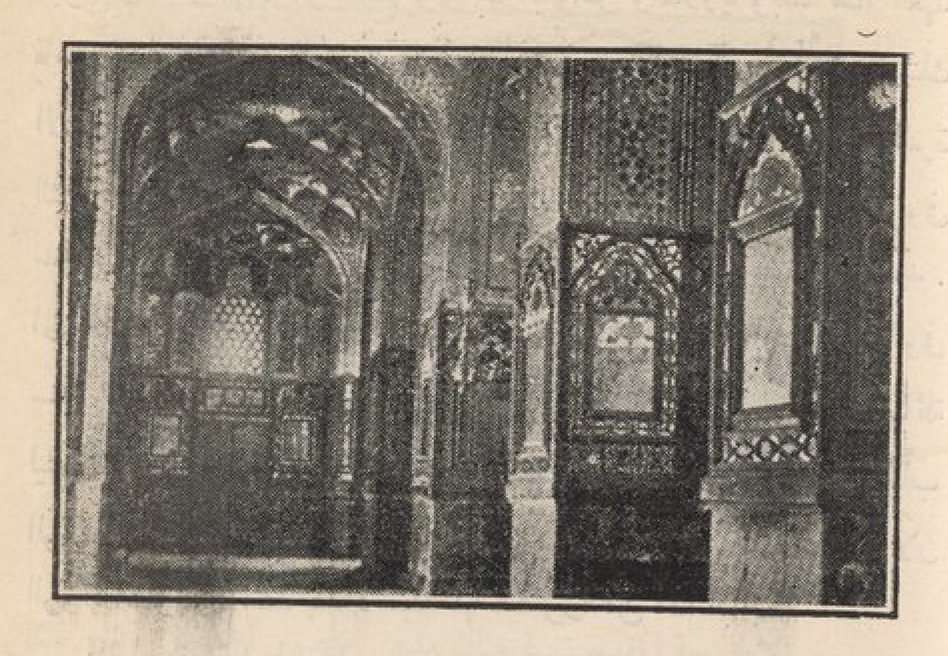
ومما راقنى فى بغداد اسواقها الضيقة الملتوية يعلوها سقف منحدر تقوم تحته المتاجر واغلبها فى ايدى اليهود والارمن وجماهير المارة متلاصقة مائجة طيلة اليوم والمقاهى (البلدية) فى كل مكان تجلس فيسرع صاحبها بتقديم قطرات من القهوة السادة فى (فنجال بيشة) تحية للقدوم ولا بد ان يقدمها صاحب المقهى بنفسه زيادة فى الترحيب ويكرر ذلك بين آن وآخر وبغداد كلها فيما عدا شارع الرشيد الوحيد ازقة نظيفة ارضها مرصوفة يتوسطها مجرى صغير لصرف المياه وتكاد الشرفات : (المشربيات) المتقابلة تتلاصق فتحجب الطريق من الشمس والنور والبيوت جلها فى هندسة شرقية ذات فناء سماوى تطل عليه نواحى البيت الاخرى ويتوسطه حوض الماء وابواب البيوت مثقلة بالحديد والنحاس كانها ابواب القلاع فى نظام شرقى بحت هنا ذكرت المجتمع عهد أبى جعفر المنصور وهرون الرشيد فلقد بناها المنصور ووضع أول لبنة بيده سنة ١٤٠ هـ بغضا بأهل الكوفة وتجافيا عن جوارهم وكان ثلثها على الضفة اليمنى لدجلة ويسمى الكرخ والثلثان على اليسرى ويسمى الرصافة وقد أطلت البحث عن أثر يرجع الى ذاك العهد فلم أجد الا حائطا مطلا على دجلة على مقربة من الجسر



قباب مسجد الكاظمية يكسوها غشاء من ذهب براق

القديم نقش عليه : بنى فى عهد ابى جعفر المنصور بالخط الكبير وكان معهداً علمياً يسمى المستنصرية لكنه اتخذ اليوم مكانا للجمرك رغم أنه جدير بالرعاية والحفظ لانه الوحيد من نوعه وهناك بقية للسور القديم والقلعة وحولها أقيمت دور الحكومة وقصر الملك يطل على ماء دجلة فى تواضع كبير ومن المساجد القديمة تبقى مئذنة متهدمة . ذلك كل ماتخلف من عصر العظمة الاولى . وقفت أسائل نفسى عن الزوراء ودار السلام بلد المنصور والرشيد الذى أنفق عليها أبو جعفر فوق أربعة ملايين دينار وطوقها بسورين وكانت أبواب السور الداخلى مزورة ومن هنا سميت المدينة الزوراء وفى عهد

الرشيد أقام سراة القوم الجانب الشرقى قصوراً فاخرة وأسموه الرصافة وأصبح الحى الارستقراطى الحديث وقد بلغ سكان بغداد اذ ذاك مليونا ونصفا وكان الترف آخذا كل مأخذ فكان الرشيد ينفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم وعلى السماط ثلاثون صنفاً من الطعام تقدم فى أوانى الذهب والفضة وقد أقام وليمة لزبيدة كلفها خمسة وخمسين مليون درهم وكان يقدم للناس اطباق الذهب تملأ بالنقود الفضية واطباق الفضة تملأ ذهبا وقد أثقل زبيدة بالحلى حتى أنها لم تستطع النهوض والسير خطوة ولقد كانت زبيدة مسرفة من ذلك أنها صنعت بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان وكل طائر : الاجسام بنسيج الذهب والعيون باليوافيت والجواهر وقد كلفها مليون دينار وكان ثمن ثوبها الواحد خمسين الف دينار . هنا ذكرت أيضا البرامكة وما وصلوا من رفه وسلطان فقد كانوا أكثر ترفاً ، مجالس الطرب فى دورهم كل ليلة والراقصات من الغوانى أمثال (فوز وفريدة ومنة) لا يغبن عن تلك المجالس وقد كانت تعرض الغانيات من كافة جهات الدنيا للبيع فى سوق النحاسين وكان الدلال ينادى ويصف الجوارى ويعدد فى جمالهن ومحاسنهن فسلط الله عليهم زبيدة وقد أسلم الرشيد لها كل شىء حتى مالية البلاد فأخذت تنفق عن سعة واسراف فأحصوا لها أنها أنفقت وحدها ثلاثين مليون دينار وبنت مسجدا على دجلة باسمها وأنشأت عين زبيدة فى الحجاز وأوصلت ماءها الى مكة وكلفتها مليون دينار وقد بلغت موارد بيت المال فى عهدها خمسمائة مليون درهم من فضة وعشرة ملايين دينار ذهبا



الاسراف فى الزخرف داخل مسجد الكاظمية

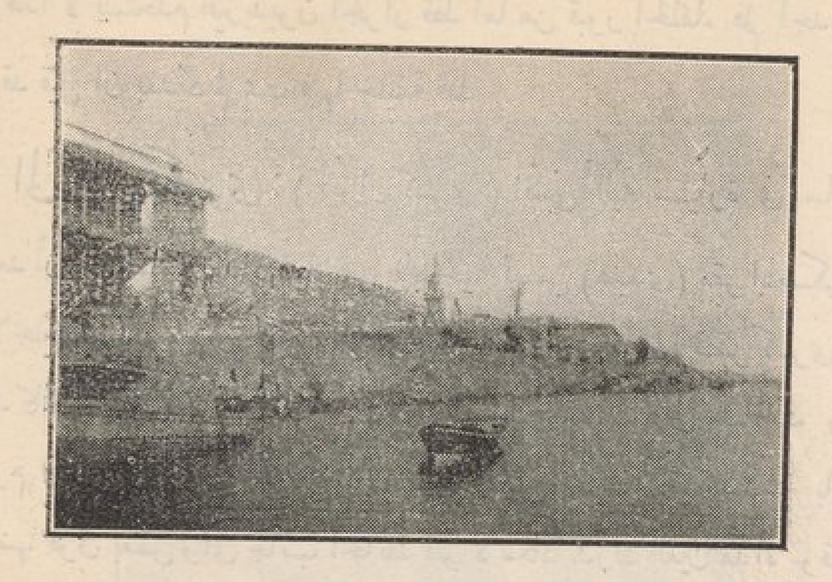
وهى أوفر ما حصل فى دول الاسلام جميعا ولما مات أبو جعفر قال للمهدى فى وصيته أنه خلف له من الاموال ما أن كسر عليه الخراج عشر سنوات كفاه لأرزاق الجند ومصلحة البعوث وغيرها !

وقفت أتلمس من كل هذا بقية لكن يد الزمان قد أتت على كل أولئك لكثرة من اغار على بغداد وأعمل فيها حرقا وتدميرا نخص هولاكو التتاوى الذى اجتاحها فى القرن الثالث عشر وأحرقها وسلب قصورها ورمى بذخائر مكتباتها فى دجلة وهدم قناطرها التى ظلت من قبل آلاف السنين تنشر الخصب وتروى المساحات الشاسعة فاستحالت تلك السهول

اليوم الى قفار مهملة أو مناقع يربى بها البعوض والملاريا وبعد هذا العهد قامت بغداد ثانية على الانقاض الاولى وما كادت تظهر حتى فاجأها تيمورلنك الاعرج فى القرن الرابع عشر وتركها اطلالا وفى ١٥٢٤ دمرها للمرة الثالثة الشاه اسماعيل وكذلك فعل الشاه عباس فى القرن الرابع عشر وفى سنة ١٦٣٨ أخذها مراد الرابع التركى من الفرس وبدأت تنشأ من جديد. الى ذلك فكم قاست من هجمات فيض دجلة الذى طالما اجتاحها بأكملها وفى سنة ١٨٦٠ جاء مدحت باشا حاكم بغداد فهدم سورها وباع انقاضه الهائلة لينفق منه على مشروعاته الاصلاحية العدة ولم يترك سوى ما بين (الباب الوسطانى وباب الطلسم) وكان السلطان مراد دخلها من باب الطلسم لان الرواة قصوا أن منقذ بغداد سيدخلها منصورا من هذا الباب

خرجت يوما الى مقابر بغداد وزرت قبر زبيدة زوج هرون الرشيد ويمتاز عن باقى القبور حوله بأنه تحت مثمن تعلوه قبة فى شكل مخروط مجزع يسترى النظر وحولها مدافن أخرى ممدودة أهمها مدفن:

بهلول: سمير هرون الرشيد يؤمه كثير من الناس وبخاصة السيدات يوم الاربعاء، دخلته فاذا فى فنائه عدة مبان نموذجية صغيرة من القش والخرق وتسد منافذها بالحنا. منها واحد وضع داخله مهد طفل اقامته سيدة عقيم لا تلد رجاء أن يمن الله عليها بمولود وآخر داخله سرير تنام عليه دميتان متجاورتان وضعته فتاة تطمح الى الزواج فاذا ما أجيب السؤل ذهبت صاحبة البيت وهدمته وقدمت القرابين



المستنصرية تطل على دجلة وهى الأثر الوحيد الباقى من عهد أبى جعفر المنصور

ومن الاضرحة المقدســة هناك مدفن منصور الحلاج يجاور مدفن الشيخ معروف الكرخى يقدسه المسلمون من الافغان والفرس بِالهند وهو فارسى كان ورعا متدينا زاهدا وكان يخلع على الناس رداء من الصوف — ومن ثم نشأت فئة الصوفية — وظهرت له كرامات فاتهمه السنيون بالزندقة وسجنوه ثم قتلوه ذبحا على جسر دجلة ورموا بقاياه بعد حرقه فى النهر ويقول الناس ان ماء النهر قد فاض وطفا الرماد المقدس فوقه وهو يقول (انا الحق) فجاء شيعته وجمعوا ثراه ودفنوه ويقدسه اليزيديون عبدة الشيطان ويقولون ان رأسه لما رميت فى النهر طفت الروح منها وصادف ان كانت اخته تملأ جرتها فدخلت الروح فيها ولما شربت منها حملت وبعد تسعة شهور وضعت طفلا شبيها بأخيها تناسخت روحه المقدسة فى ذاك الطفل

ولهذا لا يستخدم اليزيديون الجرار قط أما من قبور الخلفاء فلم أجد شيئا وقد قيل ان بغداد لم يمت فيها خليفة قط

الى طاق كسرى : (أيوان كسرى) اقلتنى اليه سيارة فى ساعتين فبعد أن خرجنامن بغداد قليلا مررنابناحية تسمى (هنيدى) مقر المعسكرات الانجليزية وبعد مسيرة اكثر من ساعة فى ارض خصبة بدا قصر كسرى على بعد كالطود الشامخ ولما جئناه كانت الحفائر حوله ممتدة الى مسافات وهو يقوم فى حائط شاهق لا نوافذ فيه لكنه نقش فى شبه اقيبة سدت بالبناء بعضها فوق بعض والى جانب الحائط قبو لاتكاد تدرك العين مداه وقفت تحته وتخيلت كسرى أبان صولته يجلس فى كمال أبهته فى هذا الايوان الذى أصبح قاعا صفصفا لا تجانبه الا قرية صغيرة يزورها القوم لان فيها مدفن أحد الصحابة هو سليمان باج الفارسى تحت قبة صغيرة . وطاق كسرى أقيم بالآجر المصفر فى متانة غالبت الزمن طويلا وقد انهدم أحد جانبيه أثر زلزال هائل وما بقى منه مصدع الجوانب مائل الجدران وقد لبثت اطوف بالمكان الى الغروب حين بدا القصر شبحا قاتما فى ضوء الشفق الضئيل الذى اكسب المكان رهبة وأعاد الى المخيلة ذكريات الماضى المجيد لتلك الناحية المنبوذة اليوم

والمكان يسمونه طيشفون وكان بلدة شادها الفرطانيون الذين لا نكاد نعرف عن تاريخهم شيئا ولقد كان مقرهم الجنوب الشرقى لبحر الخزر ولما

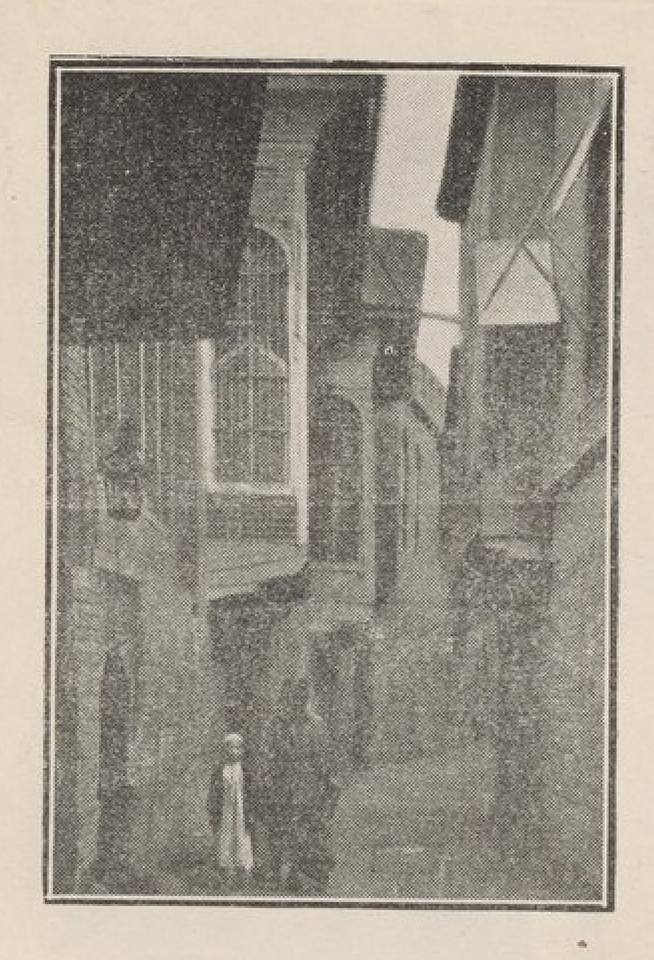


هرون الرشيد يستقبل رسل شارلمان

نالوا استقلالهم سنة ٢٥٠ ق م اتسع ملكهم وظل ٤٠٠ سنة وقاوموا الروم في آسيا وكان ملوكهم يمضون الصيف في الشمال واذا ما اقبل الشتاء حلوا طيشفون شرق دجلة تجاه بلدة (سلوقية) التي بناها سليوكاس الاغريقي على الضفة الغربية . ولما كبرت طيشفون أصبحت عاصمة ملك الفرطانيين وحاول

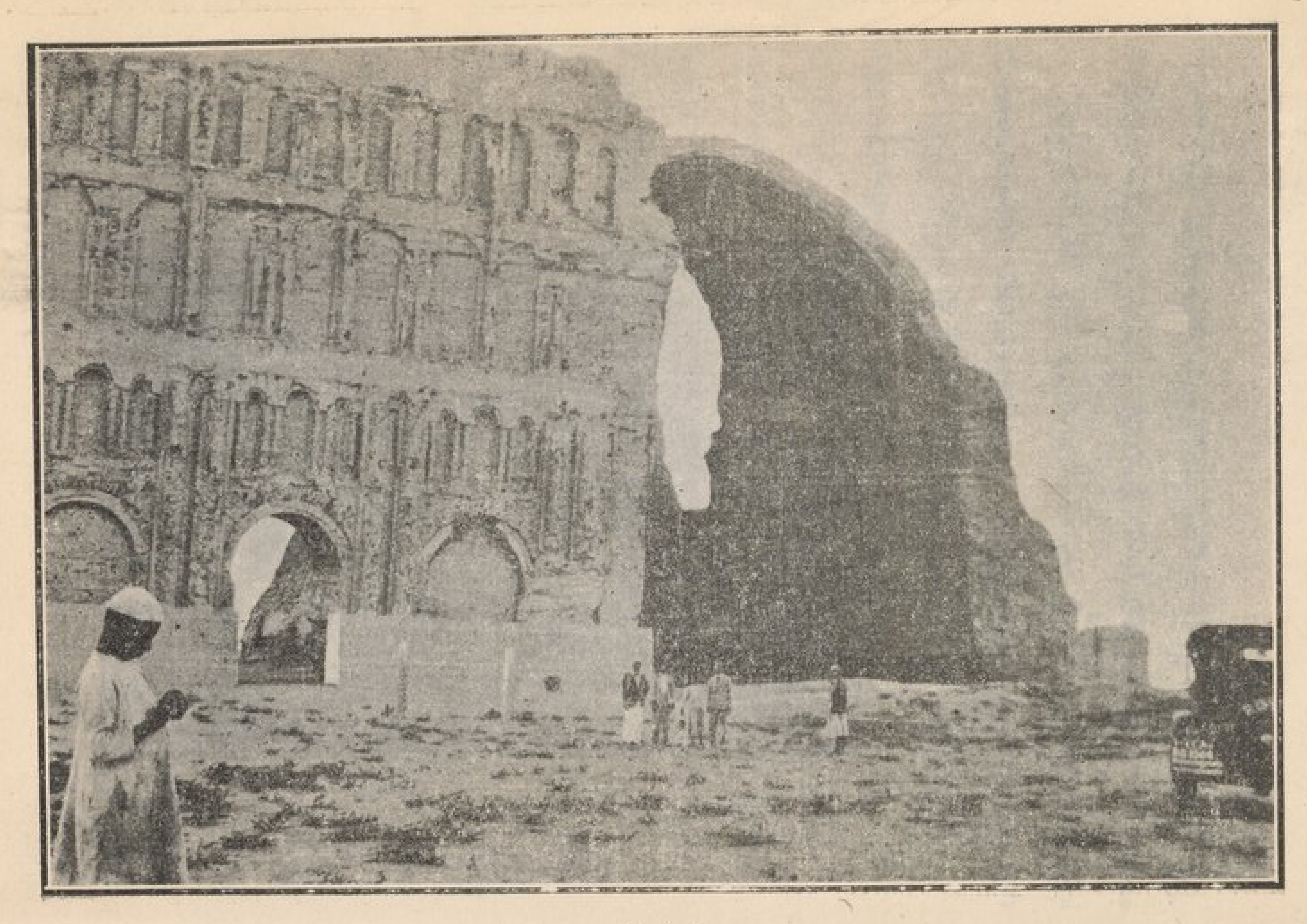
الروم غزوها فأعياهم ذلك حتى جاء الامبراطور (تراجان) فحمل سفنه من البحر الى البر وسيرها على اسطوانات الى دجلة وعبره بها واحتل المدينة وبعد فترة اضطراب ظهر (أردشير) ملك فارس وغلب الفرطانيين وجعل طيشفون مقره فاسس اسرة الساسانيين وأعاد اصلاح سلوقية وشاد حولها مجموعة من بلاد اطلق عليها العرب اسم المدائن وفى سنة **٥٣١** ميلادية ظهر فى الميـدان أعظم الساسانيين (كسرى الاول انو نشروان) وشاد القصر الابيض ولما ظهر الاسلام وانتصر سعد فى القادسية فتح البلدة وأخذ ذخائرها التى لاتقدر وفى بهو القصر صلى سعد الجمعة بالناس لاول مرة فى املاك فارس ولما ظهر للعرب أن موقع طيشفون ليس صحيا ولوا اشطر الـكوفة وبغداد والبصرة وقد جملت بغداد بكثير من المواد التى نقلوها اليها من طيشفون وسلوقية حتى لم يبق فيها من أثر واضح الا قصر كسرى الذى غالب معاول أبى جعفر المنصور الذى نقل من آجره الـكثير رغم معارضة خالد بن برمك وكان يريده أثراً خالداً فشك الخليفة أنه يتعصب للفرس قومه ولما أعياه الهدم استشار خالدا فى ايقاف الهدم فقال له : كنت أرى عدم الهدم ولـكن أما وقد بدأته فلا يصح ايقافه لئلا يقال عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع فارس فندم المنصور وأوقف الهدم

وكم ضم القصر من آيات البذخ والغنى لملوك فارس الاقدمين وقعت كلها غنائم للعرب على يد سعد من أكداس الذهب والفضة والملابس الموشاة والاحجار الـكريمة والاسلحة المرصعة الى ذلك مقادير المسك والعنبر والـكافور

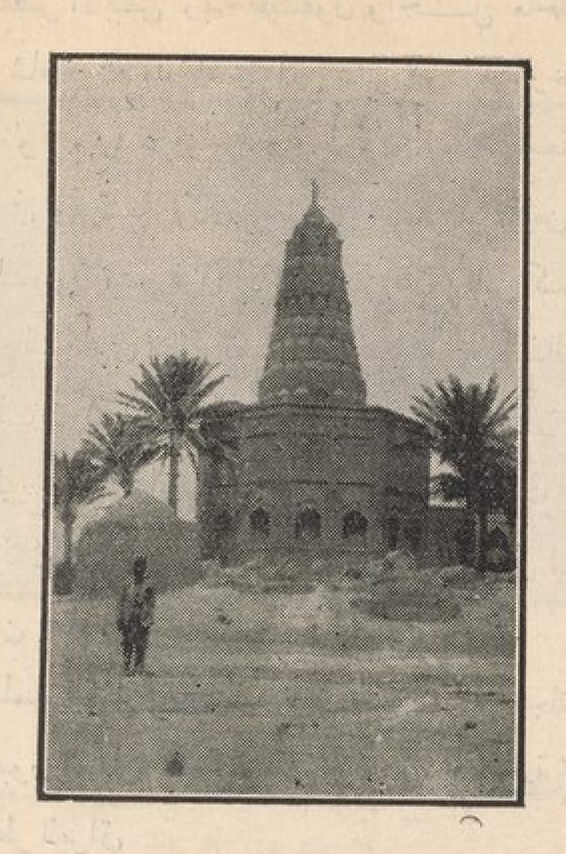


كل أحياء بغداد من تلك الأزقة التى تذكر المرء بعهد هرون الرشيد

والاعطار وجواد من ذهب خالص أسنانه ركبت من زمرد ورقبته رصعت باليواقيت وكان له سرج من فضة وداليات من ذهب الى جواره ناقة من فضة ومن ورائها رضيعها من ذهب . ومن بين ما حوت أسلحة كسرى درع كامل من ذهب تزينه اليواقيت ولعل أجل مخلفاته بساط ذرعه سبعون



ايوان كسري



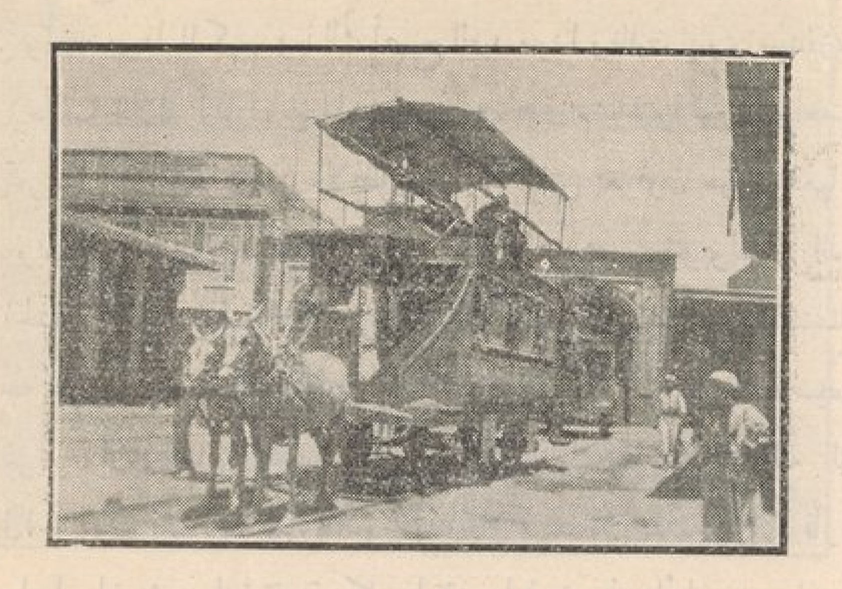
الى جرار قبر زبيدة زوج هرون الرشيد

ذراعا فى ستين وكانت رسومه تمثل حديقه حيكت أرضها من ذهب وطرقها من فضة ومروجها من زمرد وجـداولها من لآلئ واشجارها وثمارها وزهورها كانت مزيجا من الماس والاحجار الكريمة . وقد أرسل سعد الى الخليفة بالاشياء الفنية القيمة وبخمس مالتى من الغنائم ووزع اربعة أخماسها على جنوده الذين ناهزوا ستين الفا فنال كلامنهم ماقيمته ثلاثمائة واثنا عشر (٣١٢) جنيها

وقد كان القصر الابيض زينة طيشفون وأجـــل ماخلفه فن العمارة الساسانى . بناء شامخ قام مدخله على اثنى عشر عمودا من رخام وكان ذرعه ١٥٠ قدماً فى العلو و١٨٠ عرضا و٤٥٠ طولا ولقد كانت سعة البهو الكبير الاوسط ١١٥ فى ٨٥ قدما وكان يحمل قبو سقفه مجموعة من نجوم الذهب والكواكب السماوية تبدو فوق الافق . هنا كان يجلس كسرى على عرش من ذهب يستمع للشكاوى ويقيم العدل . وقفت أستظل بذاك القبو الهائل وسرعان ماتوالت ذكريات العظمة البائدة فكنت أنظر فلا أرى لها أثرا وكان حفيف الريح فى أوراق الغاب البرى الذى احاط بتلك الخرائب كأنه صوت ينعى أولئك الجبابرة فسبحان مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

عدت فى المساء وقبيل بغداد عبرنا نهر ديالة رافد دجلة وقد دفعت سياراتنا رسم عبور القنطرة سبعة قروش ونصف (روبية) وتلك قاعدة متبعة فى كل قناطر العراق

الى الحلة : قمت اليها فى القطار وهى من مدن الكلدانيين وان لم يبق لهم فيها أثر اليوم وهى وسط اقليم خصيب يستفيد من سد الهندية أكبر وسائل الرى فى العراق كلها وهو يروى ثلث مليون فدان ويقول الناس ان مياه الفرات أكثر خصبا واغزر فيضا من دجلة وهو أعذب شربا وأصلح للصحة ولقد أقام الاسكندر المقدونى أبنية ليسيطر على مياه شط الهندية الى الغرب وشط الحلة الى الشرق وهما شعبتان للفرات وقد أعاد الانجليز اليوم



لايزال ترام بغداد تجره الجياد

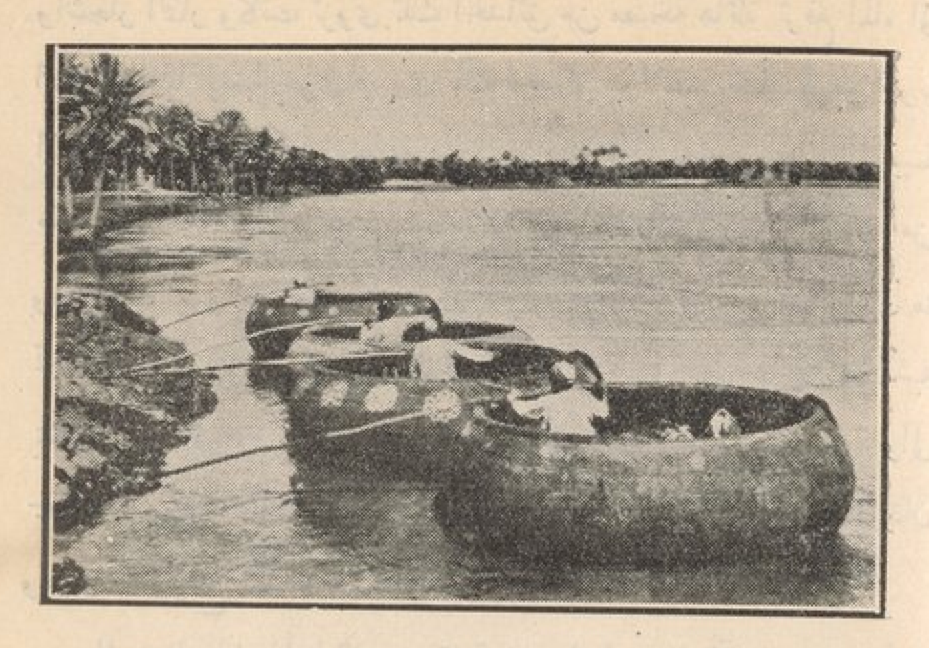
بناء سد الهندية لامداد فرع الحلة الذى كادت تسده الرواسب بينما فرع الهندية كان يتعمق حتى كاد يودى بالمياه سوى . قمت فى سيارة مسيرة ساعة الى :

بابل : التى بناها الكلدان على الضفـة اليمنى للفرات فاذا بها تل من الطين حوله المزارع وفى وسط ذلك التل رأيت بعض اطلال يقولون انها مقر الحـدائق المعلقة وقصور بابل وكانت بابل أول الملكيات العظيمة التى قامت فى غرب آسيا وهى ثانية ملكيات العالم بعدمصر وكان يطلق عليها ارض شنار وفيها ظهر نمروذ طاغية على الارض ومن بابل تقدم الى ارض أشور وبنى نينوى ولبثت أشور ونينوى خاضعين لبابل طويلا وفى

القرن التاسع قبل الميلاد نال الاشوريون استقلالهم وفى ٧٤٥ ق م هزموا بابل وأخضعوها لملكهم وبذلك أصبح العبد سيدا وظلت نينوى سيدة زهاء قرن حالف خلاله أهل بابل الميديين وفى ٦٠٦ ق م باغتوا نينوى وأمعنوا فى تخريبها حتى اخفوها عن الانظار ولم يعد الناس يعرفون حتى موقعها

وبسقوط نينوى بدأ العصر الثانى لبابل وهو عصر نبوبولصار الذى بنى الحدائق المعلقة ذائعة الصيت واحدى عجائب الدنيا وقد أقامها لاستمتاع زوجه الميدية بنت أحد أمرائهم الموالين وقد ورد فى إحدى الاقاصيص الاغريقية أن الحدائق المعلقة شادتها سميراميس ملكة أشور الخيالية التى تقول الخرافات انها بانية بابل واشور وما كان فيهما من عظمة ورواء فأراد نبوبولصار ان يشيد بلدة تفوق كل ما تقدمها فسخر فى بنائها مهندسى نينوى الذين ألزمهم باقامتها قسرا وهم له أسرى ارقاء فأخرجوا بابل الثانية فى رواء وجلال فاق كل ما تقدمها وقد روى هيرودوت ابو التاريخ أنه فى القرن الخامس ق م أقيمت بابل فى مربع يشقه الفرات وكان ذرعها ١٥ ميلا مربعا يحوط كل أولئك سور علوه ٣٥٠ قدما وسمكه ٨٧ تتخلله مائة بوابة من نحاس ولم تكن موطنا لاخلاط الناس بل لمترفى القوم وملوكهم وهى أفخر مدن العالم القديم جميعا وأجل مبانيها :

الحدائق المعلقة : أقيمت أسسها من الصخر المنحوت رغم صعوبة الحصول على الصخر وسط أرض دجلة والفرات الطينية ولم يعلم من أين جاءوا بتلك الاحجار ولم كلفهم ذلك من جهد ومال . حقا أن

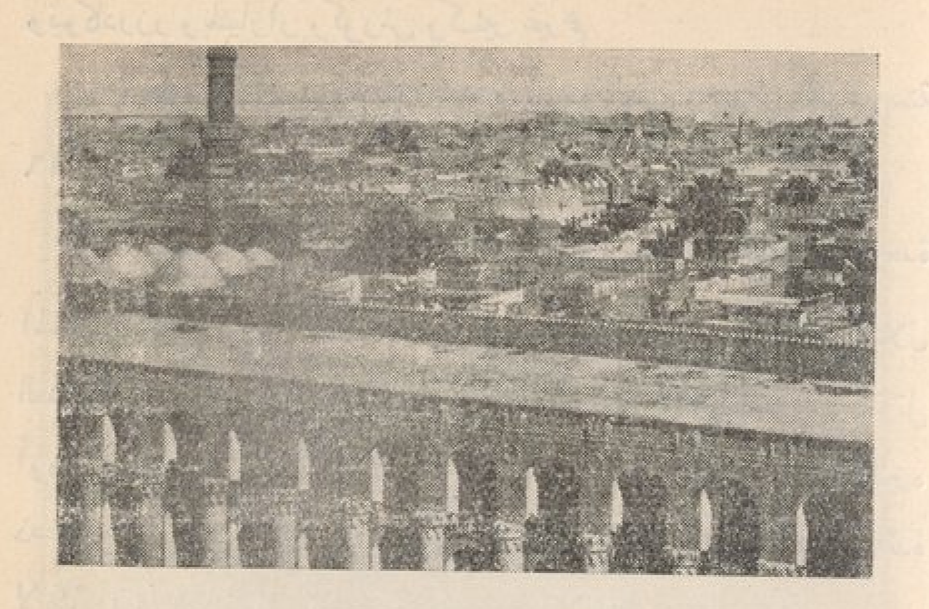


زوارق بغداد ويسمونها (جونه) وتصنع من جدائل الخوص
ثم تقام جرانها على أضلاع من عصى ثم تطلى جدرانها بمادة غير مسامية

الحدائق لم تكن تفوق فى العظمة والابهة قصر نبوبولصار ولا معبد (بل ماردوك) إله بابل وحاميها ذاك الذى أقيم من طبقات يتوجها هيكلان من ذهب . الا أن الحدائق المعلقة كانت اكثر جمالا ورقة ولقد شغلت متسعا ذرعه ربع ميل فى الشمال الشرقى من البهو الرئيسى من القصر الملكى وقد أقيمت فى شبه مصاطب أو شرفات الواحدة فوق الاخرى من صخر ترفعه عدة بوائك وأقبية الى علو يناهز ٣٥٠ قدما وكان يدعم البناء سور سمكه عشرون قدما مكن لمرور عربتين متجاورتين فى كل اربعة جياد وكان يكسو كل افريز من هاتيك غشاء سميك من الطين تنبت فيه أعشاب الزهور

وأشجار الثمار وكانت تروى تلك الحدائق من مضخة هائلة ترفع الماء الى الطبقة العليا ومنها يجرى فيروى تلك الحدائق ولاتقاء خطر الرطوبة ونز الماء بطنت الاقبية كلها بطبقة من الرصاص وكان يتخلل تلك الاقبية مقاصير للراحة بولغ فى نقشها وزخرفها تؤمها الملكة وحاشيتها تخلصا من وهج الشمس ولفح الحر فى سهول الجزيرة المحرقة صيفا ولقد رأيت ما تخلف منها فى قبو طويل من الطوب والحجر تحته حجرات كانت أشبه بمثالج لحفظ الطعام من العطب والفساد وعلى جانبيه بقايا لغرف عدة والى جوارها بئر لها فتحات ثلاث الوسطى مستديرة بجانبها اثنتان بيضاويتان ويظن أن روافع الماء كانت تقام عليها

والى شمال بابل رأينا القصر وقلعة نبوبولصار من الآجر بجانبها أسد بابل الذى يطأ تحته رجلا وهو فى هندسة غريبة غير بابلية لذلك ظن أنه من أسلاب الحرب من بلاد الحيثيين فى الشمال ويعزز ذلك صخر وجد الى جانبه وكتب عليه بالحيثية . والى جنوبه مباشرة أطـــلال القصر الذى شاده (نبوبولصار) على اطلال قصر أحد أسلافه وقد بدا لنا مجموعة أحجار من اجر . ولقد تعقب علماء الالمان تصميم القصر ووضحوا لنا هندسته . وفى ركنها الشمال الشرقى على مقربة من (باب أشتار) مجموعة من بوائك مخربة ظن أنها الحدائق المعلقة وكان يؤدى طريق مرصوف بالحجر من باب أشتار الى القصر الملكى من جانب والى معبد مردوك من الجانب الآخر . وقد رأينا بقايا جسر أو قنطرة من الطوب كان يقام على الفرات يوم كان يشق



منظر عام لبغداد من السراى

طريقه القديم الى شرق طريقه الحالى ولقد كان يحوط المدينة أسوار عدة حتى أنها كانت فى غاية المنعة تشرف على أقصى شمالها قلعة بابل مما يؤيد أن حصـــار بابل كان لا شك عملا عظيما شاقا حتى أن الفرس لم يحتلوها إلا لما ان دخلوها عن الفرات ويظهر ان نبو بولصار جددها من اقصاها الاقصاها لأن اسمه وآثاره تعمها جميعا مع انها كانت سابقة لزمانه بنحو ١٥٠٠ سنة حين كانت عاصمة (حامورابى) ولذلك صعب على الكاشفين ان يعثروا على أثر لتلك القرون الاولى التى تقدمت زمن نبوبولصار . والى جانب القصر كومة من أطلال أقامها الاسكندر وأحرق فوقها جثة صاحبه (هفستيون) وهنا مات الاسكندر نفسه ومات فيها من قبل نبوبولصار

ونبوكادرزر وبلشازار وكورش وكثير غيرهم

وهنا جرت أكبر موقعة بين سعد بن أبى وقاص وجيوش الفرس سنة ١٦ هـ حين فتح المدائن

الى الكوفة : قمنا فى سيارة وأخذنا نسير وسط تلك السهول الموحدة المملة ولم يكن يسترعى النظر فيحدث بعض التغيير فى المنظر سوى التلال العدة التى كنا نراها فى اطلال بقايا القدماء ومن أهمها قلعة نمرود وتل أور عاصمة السومريين . بلاد يسأم السائح المقام بها اليوم لولا ما تثيره ذكريات ماضيها من عظمة . كنا نرتقى التل فاذا به اطلال لمدينة بائدة لايكاد يرى فيها العابر العادى معنى ساميا ولا منظرا جذابا لكن سرعان مايمر بالخاطر حامورابى الذى خط قوانينه فى ألواحه التى كنا نجد بعض بقاياها منثورة فوق تلك التلال من سنة ٢١٠٠ ق م هنا يذكر المرء السومريين وانهم أول من أزاح الستار عن كثير من حقائق العلم والطب والفلك وهم الذين بدأوا الكتابة واخترعوا المزولة وقسموا اليوم الى اثنى عشر قسما وعنهم أخذ الاغريق

ومن الاماكن التى مررنا بها فى طريقنا الى الكوفة : بلدة ذى الكفل التى قامت حول مدفن هذا النبى الذى يقدسه المسلمون واليهود ويعتقد هؤلاء أنه من أنبيائهم وطالما حاولوا امتلاكه . يحجون اليه ويتوسلون بالعطايا فى مواسم معينة ويكثر عددهم حوله . ولم سمعت الكثير يرددون القول بان بلاد الجزيرة هى خير وطن لليهود لأن ابراهيم الخليل عراق

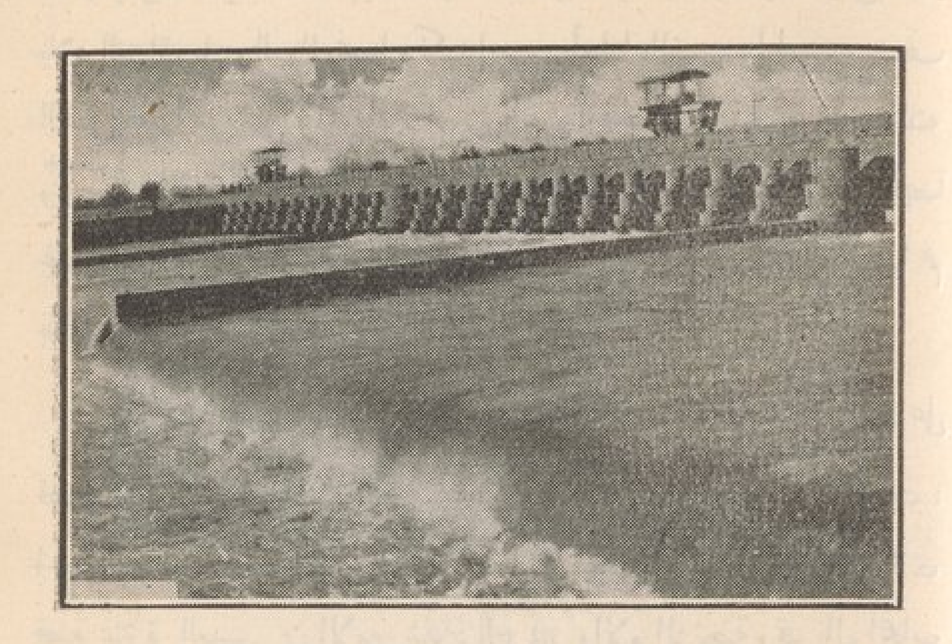


احدى وسائل الرى الساذجة

وجل اليهود عاشوا هناك طويلا ولا يزال عددهم اليوم هناك يفوق عددهم في فلسطين وبيدهم هناك معظم التجارة وبخاصة الاغذية والصباغة والمنسوجات ويهود العراق من سلائل أسرى اليهود الذين أحضرهم بختنصر الى بابل بعد تدميره للقدس وكثير من زعمائهم يدفن هناك من بينهم عذرا ويونس وناهوم. وغالب الظن ان الطوفان بدأ فى النهرين وان جنة عدن حول القرنة عند ملتقى النهرين على مقربة من البصرة. وفى ألواح بابل الطينية قصص كثير من الشركات المالية اليهودية التى بلغت الأوج عهد بختنصر وكان منهم الجباة ويخال البعض أن الملكة (استر) هى الآلهة (أشتار) البابلية وهم الذين

ابتدعوا النقود فى العراق نقلا عن (ليديا) ورغم وجودهم وسط العرب احب الشعوب للنقود بعد اليهود فأن فنونهم المالية فاقت فنون العرب لأن العربى يحب جمع المال ويعمل له لكنه يضيعه عاجلا أما اليهودى فيحرص عليه طيلة حياته وهم فى العراق شرقيون فى كل شىء فى الازياء والعادات والخرافات وحتى فى الزواج لا يخالط الفتى خطيبته ولا يراها الا يوم الاتفاق على المهر والفتيات يتزوجن مبكرات بين الثانية عشرة والسابعة عشرة وفى الزفاف يحضر (الربى) ومعه كأس يملأها نبيذا يباركه ثم يشرب منه الزوج نصفا والزوجة الباقى وفى المآتم يحتشد أقارب الفقيـــد فى بيته ويصيحون عاليا والجميع يشقون ثيابهم حزنا ويلقون بالثرى على رءوسهم

أخيرا بدت الكوفة فى قرية صغيرة وقفت بمسجدها الجامع حيث وقف الحجاج الثقفى يتوعد أهل العراق فى خطبته المشهورة (يا أهل العراق الخ) وكان طاغية مستبدا مقره واسط التى تقع بين دجلة والفرات وسط الجزيرة وفى منتصف المسافة بين بغداد والبصرة وهناك كان قصره وقد قتل نحو ١٢٠ الف نفس وكان فى السجون عند وفاته نحو خمسين الفا ولم يكن للناس حديث عهده الا من قتل اليوم ومن قطع أمس ومن شدة ظلمه فى جمع الخراج كان يتنحى الناس عن ولاية الخراج لأنهم لا يمكنهم أن يجمعوا منه نصفه رأفة بالناس ويظهر أنه كان يجد لذة فى سفك الدماء أرسله عبد الملك بن مروان ليثبت لبنى أمية الملك فى العراق فقام على الظلم حتى انقرضت دولتهم فى المشرق وكان زياد بن أبيه فى البصرة



سد الهندية اكبر مشروعات الرى الحديثة فى العراق
وفى مكانه اقام الاسكندر نظما للرى كانت اثارها باقية

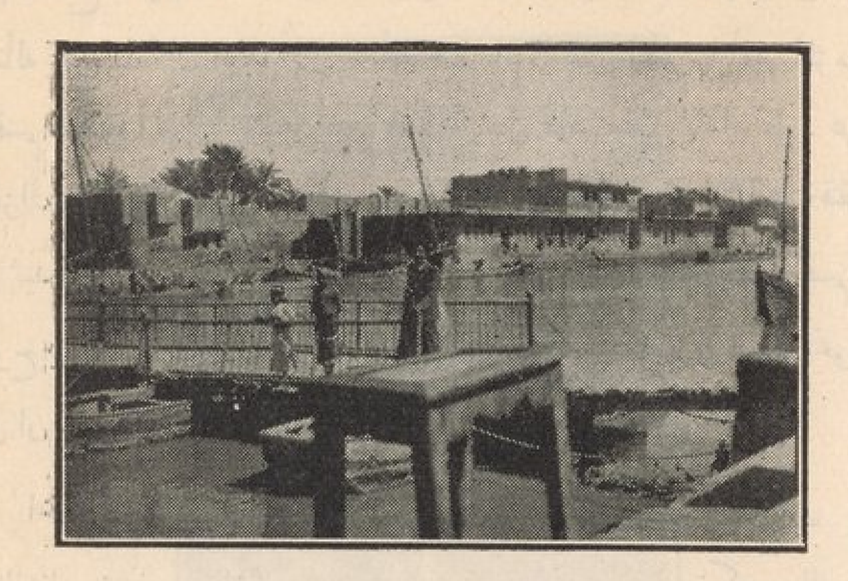
والمسجد محفوظ على شكله القديم يبدو كأنه القلعة بتكآته الاسطوانية الخارجية ومنارته الوطيئة . فناؤه فسيح تشرف عليه قبتان احداهما لضريح مسلم بن عقيل والثانية لهـانىء بن عروة وفى وسطه فتحة تحتها سرداب يعتقد القوم أن الطوفان نبع من تحتها والى جانبها عامود من رخام يستخدم مزولة كانوا يعرفون به مواقيت الصلاة وفى الركن الايمن للصلاة مقصورة مغلقة فى مكانها قتل سيدنا على رضى الله عنه وفى خارج المسجد من ورائه كانت تقوم قصور الامارة والخلافة الاموية ولم يبق منها شىء اليوم (والحمد

لله كما يقول الشيعة هناك) فالكوفة فى نظر الشيعة بلدة ملعونة وهى أكثر بلاد العراق بل والعالم نحسا ونكدا يرمى أهلها بالغدر والجبن وضعف النفس ففيها قتل على وأهلها هم الذين أغروا الحسين أن يخرج فى عائلته وفى وسط الصحراء تخلوا عنه فى جبن وخسة وقتل أمام أعينهم وهنا أيضا غدروا بزيد حفيد على فهم الذين حضوه على مقاتلة الخليفة الاموى ولما هم بذلك تخلوا عنه فقتل مع الفئة القليلة التى ناصرته

الى النجف : معقل الشيعة : أقلنا اليها ترام من الكوفة يسير على قضبان تجره الجياد فى ثلث ساعة وأبصرنا على بعد فى مجاورة الفرات : الحيرة حيث حارب ملكها النعمان بن المنذر جيوش كسرى وحيث كانت قصة عنترة العبسى بن الامير شداد العربى والام الزنجية وقد نال اعجاب عبلة من الاميرات بنات عمومته وذلك بفضل ما أوتى من شجاعة فائقة

وكانت بلدة الحيرة أسبق من الكوفة شأنا بنى فيها المناذرة بعد تنصرهم القصور والكنائس ولما فتحها خالد تحول عزها الى الكوفة . والمناذرة عمال فارس على العراق كما كان بنو غسان عمال الروم على العرب وفيها بنى النعمان بن المنذر قصر (الخورنق والسدير)

بدت النجف وضاءة وسط البادية فى رواء وبريق يراه المشاة من الحجاج محط آمالهم وموضع عقيدتهم وفخارهم — وكثير منهم يقوم من بغداد على الاقدام وكم أجهد منهم الاعياء والجوع فماتوا فى الطريق — ويقول القوم أن قباب الحرم ترى من أربعين ميلا اذا صفا اليوم وراق



على جسر الحلة

هواؤه لانه يقوم على ربوة وسط صحراء ممهدة لا حزون فيها وكيف لا يراها الاتقياء محط آمالهم وهى مقر أول خليفة للنبي صلعم وفى زعم بعضهم هى مقر من كان أحق بالرسالة من النبي نفسه ! وللقوم قصة يروونها عن نشأة النجف هى أنه لما قتل على فى الكوفة حملت جثته على جمل أطلق فى الصحراء فأخذ يسير على غير هدى حتى وصل ربوة تطل على بحر النجف على مسيرة ساعة من الكوفة فبرك الجمل وهنا دفن القوم الجثة الطاهرة وأخفوها خشية أن يعلمها أعداؤهم ومضت السنون حتى جاء هرون الرشيد لصيد الغزال وتعقب فريسته وكاد يرديها لولا أن ارتقت تلك الربوة وهناك وقف الغزال متحديا فى غير حراك ولا خوف فنزل الرشيد وشحذ قوسه فخانته ذراعاه

ولم يستطع الحركة ثلاث مرات متواليات فذعر الرشيد وأبصر برجل كهل فسأله عن المكان فقال أن أنا بحث بالسر نالنى الضر يا أمير المؤمنين فأقسم الخليفة أنه لن يصيبه بأذى فقال الرجل هاهنا مقر الامام على . عرفه الغزال مأمنا ولا يجرؤ أحد أن يصيبه بسوء وهوفوق العظام الطاهرة فنقب الرشيد الارض حتى رأى عظام على تحت لوحة من رخام فتركها وأقسم ألا يبوح بسر تلك البقعة حتى أقام عليها المسجد ثم أخذت مبانى النجف تحوطه الى ان بلغت شكلها الحالى

اخترقت سوق النجف المسقف فادى بى الى باب المسجد الذى بهر أنظارنا بزخرفه وطلائه ، هندسته فارسية وما آذنه وقبابه تكسى بالذهب الخالص فى بريق خاطف . جزت الباب الى الفناء السماوى المربع تطل عليه الحجرات المتجاورة ثم دخلت باب الضريح وأنى لقلمى الكليل أن يصف ابداعه من نقوش وتطعيم بالذهب والفضة وزخرف بالبلور والزجاج والقيشانى فاق فيه جميع المساجد الاخرى . نظرت فاذا أصوات البكاء وولولة النادمين وتقبيل المتبركين واستلقاء المنتحبين على الارض تثير الشجن وتهز القلب ، اصوات تشعر بمأساة قتل الامام مجسمة فلا يتمالك المرء نفسه من البكاء ، وطائفة النقباء من الاشراف يقرأون أورادا بعضها من الكتب والبعض من الذاكرة ويقودون الزوار ويتكالبون على مصاحبتهم مقابل أجر يتقاضونه جبرا



فوق أطلال حدائق بابل المعلقه و بجوارنا أسدها المشهور

وبعد أن أديت الزيارة خرجت أطوف حول الحرم واذا بالمقابر تمتد الى الآفاق من قباب فاخرة الى اضرحة بسيطة لأيواء ا لاف الجثث التى كنت اراها تنقل على السيارات أو الاكتاف من الآفاق الاسلامية وبخاصة العراق وفارس ويقول العلماء هناك أن المدافن عشرة آلاف لاتزيد ولا تنقص لان سيدنا عليا يرسل ما زاد من الجثث بعيدا فلا يعرف أحدمقرها

والمقابر تباع باثمان هى من الموارد الرئيسية للحرم وتختلف قيمتها حسب قدسية الموقع فهناك مدفن عام (فى وادى الســلام) ثمن الدفن به نحو أربعين قرشا وفى المدافن الخاصة نحو جنيهين أما فى الحرم وما يلاصقه من أراض فلا تقل القيمة عن ستين جنيها هذا فوق ما يستفيده اهل النجف من مستلزمات الدفن وكم من جثث كانت تحملها السيارات وافدة من كل فج وبعد الغسل يطاف بها حول الحرم وبعد الصلاة عليها تدفن وتظل كذلك حتى يتراءى لسيدنا على ان يكشف عن مكنونها فتختفى ويدفن فى مكانها غيرها !

وفى النجف فئتان من الاهلين متباغضتان : حزب السجورت وهم الفقراء وحزب الشمورت وهم الاغنياء ـ والكلمتان من أصل تركى ولقد اثارهما الاتراك يوم ان كان حكمهم السنى مبغضا لدى الشيعة هناك فلجأوا الى سياسة الاحزاب والتفريق بينهم كما يفعل المحتلون اليوم لكن فى مكر سىء ودهاء كبير . ولكل فئة أشياع من العشائر فى الخارج وكثيرا ما يقتتلون تحت امرة مجهتديهم وتعد النجف مصدر جميع الثورات والاضطرابات التى تحدث فى العراق ومنها ثورة سنة ١٩٢٠ الشهيرة ضد الانجليز ويلى المجتهدين فى النفوذ طبقة (الكلدار) وبيدهم ثروة الحرم وهى لاتقــدر وكلها من فيض احسان الزائرين حتى قيل ان الصندوق لما فتح عقب زيارة نصر الدين شاه كان وزن الذهب والفضة سبعة أطنان الى ذلك مصباح نحت فى زمردة واحدة ومائلة (شمعدان) للشمع من ذهب ترصعها اليواقيت وبساط

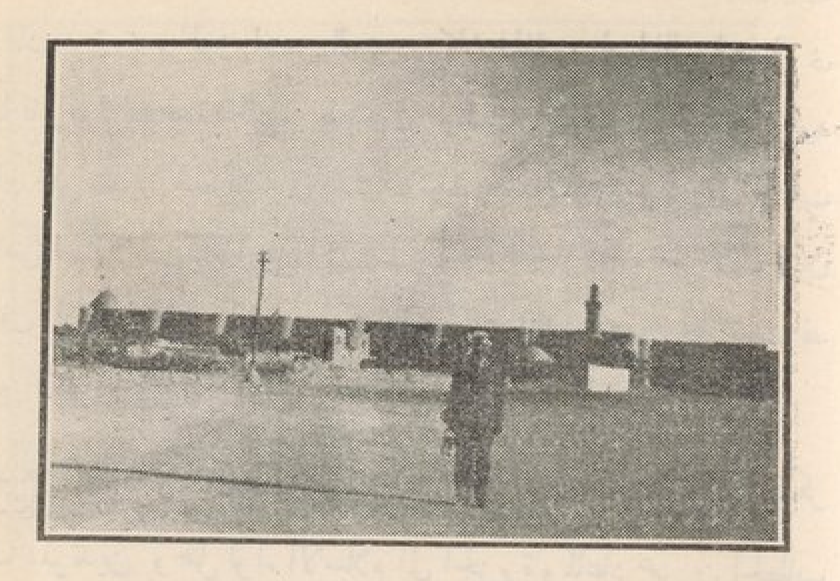


على باب اشتار ونقوش الثيران والتنين شعار الاله مردوك

تزينه اللالىء وقد أمر أن تكسى القباب والماذن من ظاهرها بالذهب الخالص لذلك ليس بعجيب ان نرى البلدة كالحصن حولها سور عتيد وخندق عميق كأنها من بلدان القرون الوسطى كذلك فأنك ترى نصف البلدة تحت الارض فى سراديب بعضها تحت بعض فى طبقات قد تفوق الخمس . نزلت بعضها فبدت كالتيه لايعلم لها أول ولا آخر وهم يختبئون فيها من وهج الصيف ويدبرون فيها ثوراتهم ويكتمون أسرارهم وقد رأيت حول البلدة مجموعة من تلال

تراكمت من الثرى الذى استخرج من تلك السراديب ومن فوقها بدا (بحر النجف) فى مشهد جميل وسط وادى سحيق تزينه المزارع ويصله الماء عن شعبة من الفرات ومن ورائه تمتد بادية العرب الى الآفاق وهى موضع فزع للنجفيين اذ منها يتوقعون غارات الوهابيين من غلاة السنيين وكنا نشاهد قطرا من حمير تثقلها قرب الماء تسير صعدا فوق تلك التلال لامداد النجف بالماء من ذاك البحر . وقد خيل الى أن أهل النجف كلهم من العلماء يسيرون وحول طرابيشهم العمامة الخضراء ويعيشون عالة على أموال الصدقات والحجاج وفى البلدة من المدارس الدينية أكثر من ثلاثين تؤوى فوق ستة آلاف طالب زرت احداها وهى فى داخلها تحكى المسجد ويقرأ الطلبة على مشايخهم ثم بعد ذلك يأوون الى سراديبهم ولكل مكانه الخاص نزلت درجا بعيد العمق ادى بنا الى سراديب ومفارق لطرق كلما سلكنا سبيلنا فى احداها مررنا بغرف بها مناور ضيقة ويجلس فيها طالب أو اثنان وسط ظلمة موحشة وسكون رهيب ينكبان على التحصيل والدرس وهذه السراديب من أخص مميزات النجف توجد فى المساجد والمدارس والبيوت يختزنون فيها متاعهم كيلا تفسده الحرارة وقد دعانى أحد كرامهم الى بيته ونزلنا بعض سراديبه وكان هجير اليوم لافحا فشعرت ببرودة ورطوبة نقلتنا الى المنطقة الباردة تماما فى دقيقتين وهناك قدم الى بعض البطيخ ويسمونه (الرجى) والبطيخ عندهم يطلق على الشمام فكان مثلجا منعشا شهيا

وصادف أن كانت البلدة فى هياج طائفى شديد يوم زرتها (٢٤ يوليه)



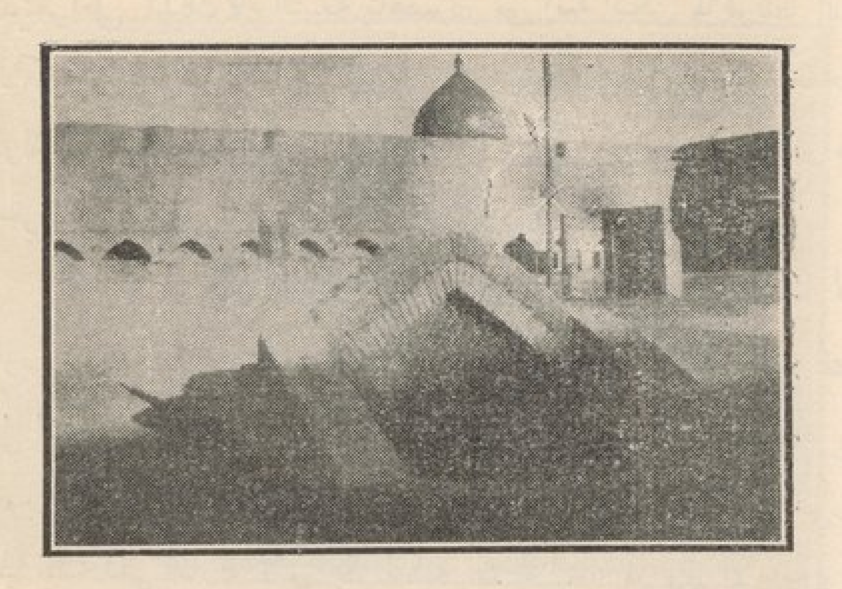
امام مسجد الكوفة حيث وقف الحجاج يهدد اهل العراق فى خطبته المشهورة

لما شجر بين الشيعة والسنيين أثر كتاب أخرجه بعض السنيين وأسماه (العروبة فى الميزان) طعن فيه الشيعة فهاتج أولئك وقام شيعى يخرج كتابا آخر للرد على أهل السنة فطالب الناس بمصادرة الكتاب الاول فصودر وطالب السنيون بمصادرة الكتاب الثانى فحاولت الحكومة ذلك ولم تستطع لان الهياج هناك بلغ أشده وقد تشكلت هيئات ولجان طالبت الحكومة برد حقوق الشيعة وهم أغلبية السكان (١) وان كانوا أكثر جهلا

(١) سكان العراق دون ثلاثة ملايين منهم مليون وربع من الشيعة ومليون من السنيين وربع مليون اكراد والباق يهود ومسيحيون ويزيديون وصابئه الخ فالتفرق والتنابذ هناك يساعد نفوذ الاجنبي كثيرا

أما الحكومة فتعاضد السنيين لانهم أكثر ثقافة من جهة ولان الانجليز أميل الى معاضدة الاقليات من جهة أخرى ! لذلك ترى أكثر المتصرفين (وهم المديرون) والوزراء من السنيين وكان المغفور له الملك فيصل فى أوروبا فأبرقوا اليه فبعث اليهم يطمئنهم ويوصيهم بايقاف كل شىء حتى يعود وكم كان ألمى شديدا لهذا الشقاق الذى لاشك يضعف مركزهم أمام الغاصب وينال من استقلالهم كثيرا على أنى علمت أخيرا أن حركة مذبحة الاشوريين وتصرف الامير غازى الجرىء وكذلك موت الملك فيصل كل ذلك قد ألف بين القلوب فتناسوا الاحقاد ولو الى حين

الشيعة : لما مات النبي صلعم فى غير خلف من الذكور قام أبو بكر واوقف المرتدين وحمل لواء الاسلام الى الجزيرة ولما عاد عمر بن الخطاب واصل دعاية الاسلام بفضل قائديه خالد ومعاوية لحنق عليه قوم واعتقدوا أن الخلافة يجب أن تكون فى سلالة الرسول لكن كظموا غيظهم حتى مات عمر ثم جاء عثمان وقتل عاجلا وقام على زوج فاطمة بنت النبي صلعم وأب أحفاد رسول الله وكان الخوارج هم الذين حرضوا على قتل عثمان وأيدوا عليا لكنهم خرجوا عليه هو أيضا لما رضى بمهادنة خصومه (ومن ثم سموا الخوارج) ودبروا مؤامرة لقتل على ومعاوية وعمرو بن العاص فى وقت واحد فقتل على يد عبد الرحمن بن ملجم وهو ينادى للصلاة اذ جرحه جرحا بليغا فى رأسه مات بعده بيومين وقد مثل الناس بابن ملجم فعذبوه وقطعوا أطرافه . بايع الناس الحسن بن على وكان معاوية قد بويع



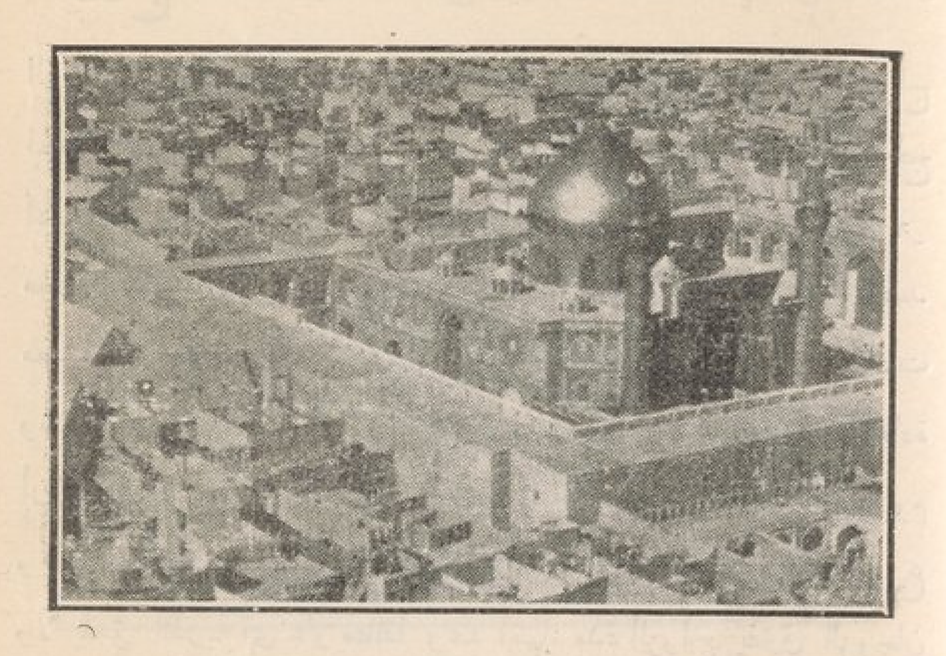
داخل مسجد الكوفه حيث قتل سيدنا على ومن تلك العين نبع الطوفان

فى الشام فزحف لقتال الحسن وتأهب الحسن للقتال فى العراق لكن
ثار عليه جنوده وانفضوا من حوله فهادن معاوية وتنازل له عن الخلافة
وفر وقتل ثم بايع الجميع معاوية الا الخوارج والشيعة (شيعة
آل البيت أو آل على) وقد اجتمعوا حول الحسين ابن على فى مكة
فقتله جنود معاوية فى كربلاء هو وأفراد أسرته واتباعه جميعا
الا ابن واحد للحسين أمكنه الهرب ولقد جعل معاوية الخلافة وراثية
فى أولاده وعين ابنه يزيد خلفا له . لكن ظل الخوارج يناوئون بنى أمية
ومن بعدهم العباسيين وفى رأيهم أن الامامة والخلافة لايشترط أن تكون
فى قريش ويجب توافر الكفاية والعدل فان حاد الخليفة عن الصواب وجب

عزله فهم أبغض الفئات الاسلامية للحكم الوراثى ويعدون نصراء الحكم الديمقراطى كذلك قام الشيعة يناهضون بنى أمية لكن لما قويت الدولة الاموية واتسع نفوذها اختفى الشيعة وظلوا يعملون سراحتى بدأ اضمحلال دولة بنى أمية فظهروا ثانية وعاونوا العباسيين فى خراسان تحت ابى مسلم الخراسانى على أن العباسيين لما تملكوا اخذوا يطاردون الشيعة

وأخذت طوائف الشيعة تتشعب وعاونها الفرس سرا على ذلك لأن فارس رأت فيهم خير هادم للاسلام ولملك بنى العباس أولئكم الذين قضوا على استقلال فارس وحاولوا القضاء على قوميتها . ومن فرق الشيعة من يقول بأن الصحابة كلهم كفروا بعد موت النبى اذ جحدوا امامة على وان عليا نفسه كفر لتنازله لابى بكر لكنه عاد له أيمانه لما تولى الامامة وهذه فرقة (الامامية) ومن الشيعة قسم أوجب النبوة بعد النبى فقالوا بأن الشبه بين محمد وعلى كان قريبا لدرجة أن جبريل أخطأ وتلك فئة (الغالية أو الغلاة) ومنهم من قال بأن جبريل تعمد ذلك فهو اذن ملعون كافر

ومن الشيعة طائفة (الاثنى عشرية) الذين يقدسون الائمة الاثنى عشر وهم على فالحسن فالحسين فابنه زين العابدين فأبنه محمد البـــاقر فأبنه جعفر الصادق فأبنه موسى الكاظم فأبنه على الرضى فأبنه ابو جعفر محمد فأبنه على فأبنه محمد الحسن العسكرى فأبنه محمد المهدى الذى اختفى فى مغارة سامرا وسيخرج آخر الزمان ليهدى الناس ويطهر العالم من الرجس والجور ومنهم الاسماعيلية والباطنيه الذين مر الكلام عليهم فى الشام ثم القرامطة الذين تقووا

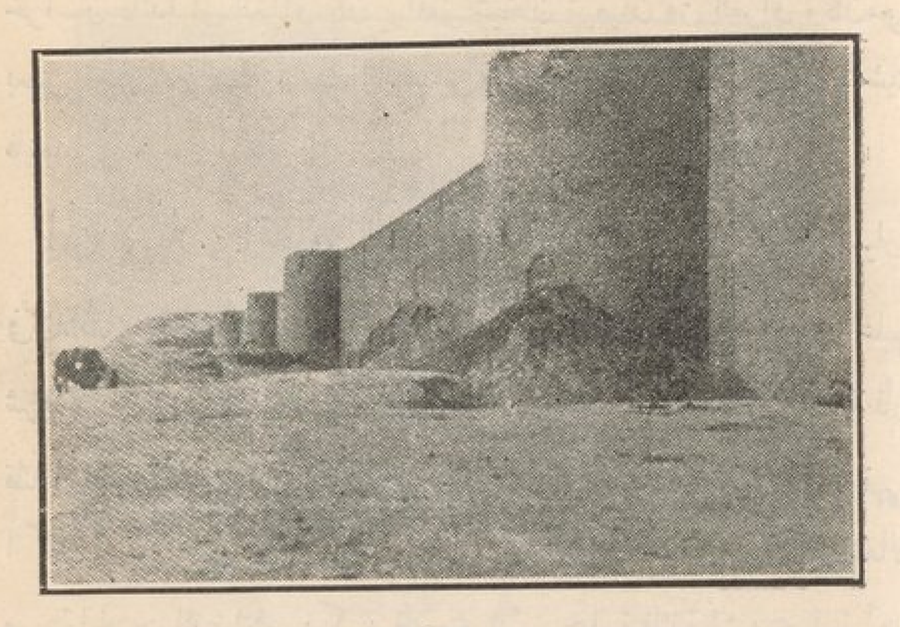


منظر النجف من السماء ويبدو مدفن الامام على واضحا

حول الخليج الفارسى ويعرف عنهم الاباحة فى النساء وقد أحلوا أنفسهم من كل عبادة واستحلوا النهب والرذائل وتركوا الصلاة والصوم وكانوا ممن يعملون على هدم الاسلام وفى مصر قام الحاكم بأمر الله بعد المعز ينشر مذهب الشيعة ويدرسها فى (دار الحكمة) وكان اساسها ان الشرائع خاضعة للعقل والعلم وان الانبياء هم رجال عاديون وغاية ما فى الامر أنهم فلاسفة وقد الهه الدروز وقالوا بأنه رفع الى السماء وسيعود لتطهير الارض كما أسلفنا ويرى جميع الشيعة أن الامامة ليست مصلحة عامة تناط باختيار الناس بل هى ركن من أركان الدين

زواج المتعة : ولقد استرعى نظرى فى النجف كثير من الاطفال الذين يلبسون فى آذانهم حلقات خاصة هى علامة أنهم من ذرية زواج المتعة المنتشر بين الشيعة جميعا وبخاصة فى بلاد فارس . ففى موسم الحج اذا ما حل زائر فندقا لاقاه وسيط يعرض عليه أمر المتعة مقابل أجر معين فان قبل أحضر له الرجل جمعا من الفتيات لينتقى منهن وعندئذ يقصد معها الى عالم لقراءة صيغة عقد الزواج وتحديد مدته وهى تختلف بين ساعات وشهور وسنوات وللفتاة أن تتزوج مرات فى الليلة الواحدة والعادة أن يدفع الزوج نحو خمسة عشر قرشا للساعة وخمسة وسبعين قرشا لليوم ونحو أربعة جنيهات للشهر ولا عيب على الجميع فى ذاك العمل لأنه مشروع ولا يلحق الذرية أى عار مطلقا وعند انتهاء مدة الزواج يفترق الزوجان ولا تنتظر المرأة أن تعتد بل تتزوج بعد ذلك بيوم واحد فان ظهر حمل فللوالد أن يدعى الطفل له ويأخذه من أمه اذا بلغ السابعة . ويرى أهل السنة فى ذاك الزواج وزرا كبيرا إذ حرمه النبى صلعم وكان مباحا فى الجاهلية وفى الحروب فى الاسلام ويخال البعض أن منشأ تلك العادة بابل يوم أن كان الفتيات يستأجرن للحجاج فى معابد (اشتر ومردوك) ولا تزال لها بقية فى (عاهرات الآله) بين الهندوس وقد أشرنا اليها آنفا (فى جولة فى ربوع آسيا)

ويكاد يسود الشيعة فى جنوب العراق بين بغداد والبصرة وان كان اغلب الملاك والوجهاء والموظفين والبدو من السنيين أما الفلاحون

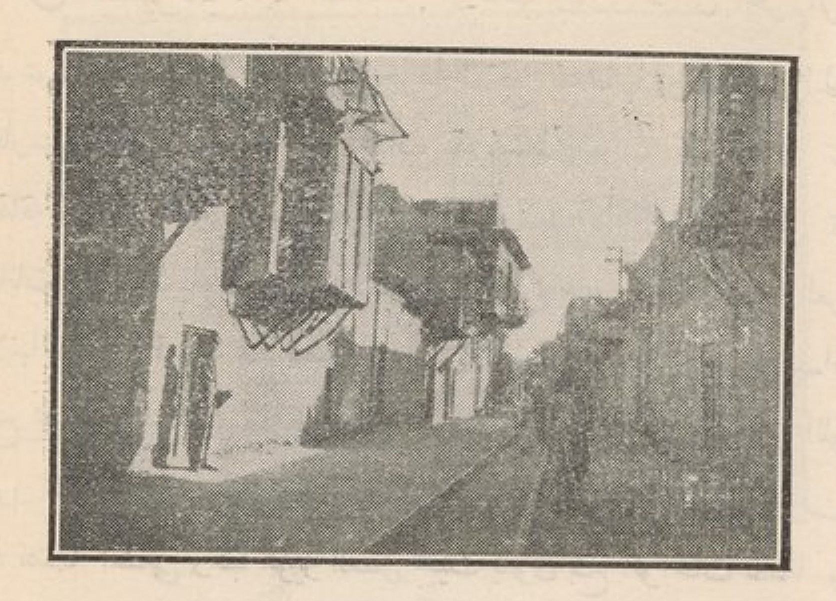


اسوار النجف وكأنها القلاع

المستقرون الذين تجرى فى عروقهم بقية من دماء زراع بابل القديمة فكلهم من الشيعة البسطاء الذين يبتغون فتاوى المجتهدين وهم الذين أوتوا حق تفسير القرآن وفق ما قرره الأئمة ولعل تعصبهم الشديد راجع الى خضوعهم طوال السنين الغابرة لسلطان الاجنبي من غير دينهم فهم أبدا ضد كل حكومة ويرون كل السلطان والنفوذ فى طائفة مجتهديهم ليس غير وجل اولئك المجتهدين يرجعون الى أصل فارسى ويطمحون الى ضم العراق لحظيرة فارس يوما ما وحينذاك تتولاهم حكومة شيعية وقد بلغ بهم شكهم فى الغير انهم يحتمون غسل كل شىء دخل بيتهم ثلاث مرات خشية أن يكون قد لمسه

غير شيعي وهم يغيرون ملابسهم قبل الصلاة وقد حدث أنى لما قمت من خراسان عائدا الى العراق كان يرافقنى شيخان شيعيان من العراق وكان معى بعض الحلوى والفطير قدمها الى صديق مسيحى فدعوتهما أن يأكلا منه شيئا فابتعدا لأنه من يد كافر !

الى كربلاء : قمت من النجف مبكرا الى كربلاء فوصلناها بالسيارة فى ثلاث ساعات فكانت تحكى النجف تماما فى أزقتها الملتوية تطل عليها شرفات متقاربة متقابلة تكاد تظل الطريق وهى ثانية معاقل الشيعة فأن قلنا ان النجف هى الرأس المفكرة للشيعة فكربلاء قلب الشيعة النابض فهى اكثر قدسية لديهم من النجف . هنا يبكى القوم نساء ورجالا واطفالا موت الحسين الذى تثير ذكرى فاجعته لديهم حماسة فائقة اشبه بحماسة أهل بابل وبكائهم على موت (تموز) . هنا زرت مدفن الحسين تحت قبة من ذهب يسمونها (الحضرة الكبيرة) يؤمها خلق كثير وبخاصة فى محرم شهر الحج وهناك مسجد آخر يدفن فيه العباس وكان أخ الحسين من أبيه وكان يعرف القوم عن الحسين رقته وتسامحه وعن العباس دقته وقسوته فى الحق لذلك قد يحنث الواحد هناك فى يمين الحسين لكنه لا يحنث قط أن أقسم بالعباس وقد أبصرنا بصورة لرأس رجل فى سقف مسجد العباس قالوا لنا انه حنث فى يمينه بالعباس فطارت رأسه الى هناك ويعتقدون أن من يأتى ذلك تطير رأسه هكذا !

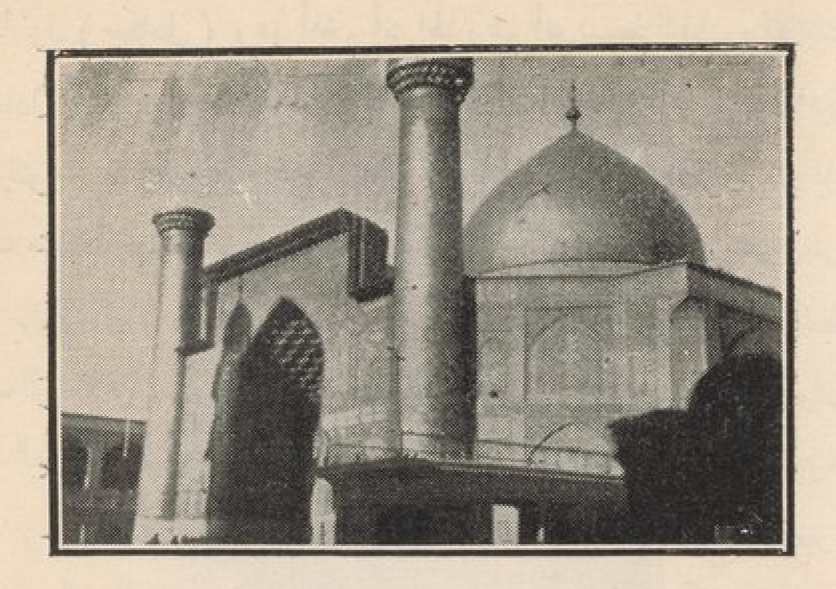


مثل من طرق النجف

عدت الى بغداد وزرت المتحف العام وهو على صغره يحوى مجموعة قيمة من مخلفات بابل وأشور وبخاصة من العهد السومرى منذ سنة ٣٠٠٠ ق م وفيه من صياغة المعادن والحلى من ذهب ونحاس وحديد شيء كثير ومجموعة من أحجار كريمة حفرت حفرا دقيقا جدير بكل اعجاب وقد استرعى نظرى خاصة غطاء للرأس من نحاس يحكى التمثال بشعره الجعد وآخر لسيدة تلبس الحلى الفاخر من ذهب وثالث بقيثارة من رأس عجل من ذهب مصمت وعند الرأس والذنب تقوم شعبتان منعرجتان تشد عليهما الاوتار ويطعم كله بالخشب والعظم والصدف والمتحف منسق خير تنسيق

الى البصرة: مدينة السندباد: أرجأت زيارتى لها الى آخر الرحلة

بعد عودتى من بلاد فارس خشية حرها اللافح فدخلتها وافدا من الخليج الفارسى فاخذت باخرتنا تشق عباب مياه شط العرب الذى كانت تنأى ضفافه لعظيم اتساعه وكانت غابات النخيل تسد الآفاق سدا تتخلل تلك الغابات مسايل للمياه لا تدخل تحت حصر وهى بعض شعاب شط العرب اللانهائية وقد أقيمت عند مصابها مراس صغيرة اقيمت حولها مساطح البلح يجهز فى صناديق خشبية للتصدير وغالب البلح من نوع أصفر اللون مكور الشكل نواه صغير للغاية وطعمه لذيذ سائغ شهى وهو أخضر فان زاد نضجه اضحى رطبا غزير العسل بحيث يفوق بلح الواحات عندنا ولا عجب فالبصرة من أغنى بلاد الدنيا بالتمر الذى يصدر منه بما لا يقل عن مليون جنيه فى كل عام ويجرى القول على لسانهم ان النخلة يجب أن تغمر جذورها فى الماء ورأسها فى النار والهجير وتلك الظروف متوفرة فى البصرة بنقائعها الممدودة وحر صيفها المحرق ومن البلح يتخذون بعض الكحول والخمر. ظلت الباخرة تسير طويلا وأرصفة الميناء ممدودة على الجانبين وبخاصة الجانب الغربى وكانت حركة البواخر انجليزية وغير انجليزية صاخبة اشعرتنى بأهمية ذاك الثغر الذى خلته من قبل أقل شأنا والارصفة كلها زودت بأحدث وسائل النقل من روافع تجانبها سكة الحديد وتتجه عناية الانجليز الى هذا الثغر اليوم وسيتخذون منه قاعدة تجارية وحربية هو وثغر حيفا الذى رأيت العمل قائما فيه وبهمة نادرة وذلك



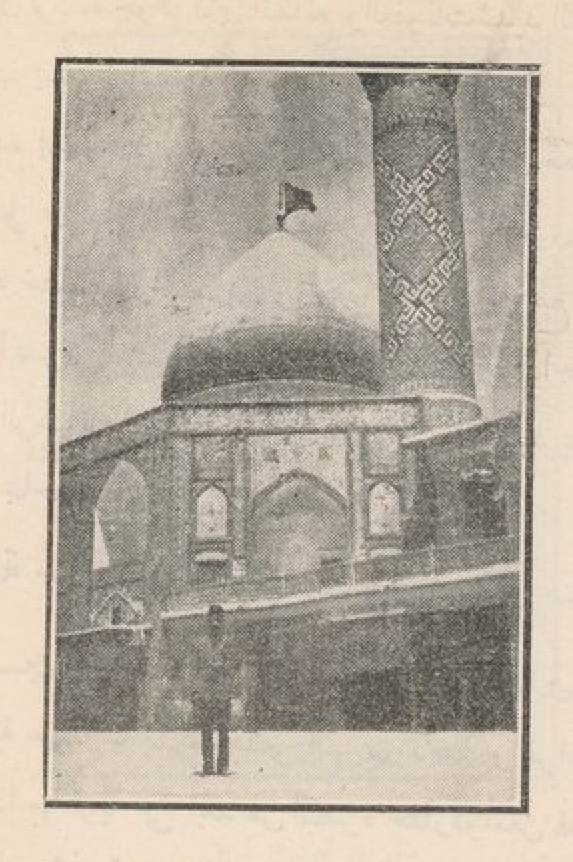
مدفن الحسين فى كربلاء

تثبيتا لمركزهم وتأمينا لطرقهم الى مستعمراتهم فى الشرق

حللت الثغر ونقلت المتاع الى الجمرك وهناك وقف رجاله يتيهون على الناس عجبا بما أوتوا من سلطة فلم يبدأوا التفتيش الا دفعة واحدة فضاع من وقتنا ساعات رغم تكرير الرجاء لهم أن يعجلوا بذلك ثم أقلتنى سيارة الى البصرة فاذا هى بعيدة عن الميناء بنحو عشرة كيلو مترات وتلك المسافة تخطها أيدى المهندسين اليوم فى طرق مرصوفة ومبان حديثة ويظهر أنها ستكون غدا حى طبقة الاجانب والانجليز والاغنياء . دخلنا البلدة واذا بها أزقة ضيقة قذرة لا نظام فيها ولبثت أعاين النزل تلو الآخر فلم يرقنى بها شىء قط لشدة اهمالها وفساد هوائها وبعدها انتقلت الى حى (أشـار) الحديث

وحالنا نزل (بيكادلى) وهو أفخم أنزالها رغم أنه بسيط البنيان والاثاث لا يعادل أصغر نزل عندنا ولم يقبل أجر الليلة الواحدة أقل من ثلاثين قرشا للنوم فقط وهو يقوم على ميدان جديد لا تزال تشق الطرق منه الى جهات متفرقة مهملة . والبصرة أشبه ببلاد المراكز الصغيرة فى مصر ليس بها ما يروق الزائر سوى غابات النخيل الكثيفة التى تحوطها وشعاب شط العرب التى تلاقيك أنى سرت بلياتها المدهشة على أن غالبها قذر مهمل وان قامت البيوت مطلة على الماء فى هندسة عتيقة ولكل بيت زورقه (ويسمونه البلم) وحتى جانب الشط الرئيسى لا تقوم عليه سوى الاكواخ الحقيرة رغم اتساعه العظيم ومنظره الطبيعى البهيج وبخاصة اذا ركبت متنه فى (بلم) وهو زورقهم النحيل الانيق فى أطراف معقوفة تطلى باللون الابيض وهو أجمل مظاهر البصرة مطيتهم الرئيسية يشقون به أرجاء البلدة لأن المجارى المائية تكاد تجانب الطرق جميعا أما المقاهى (البلدية) على نظام نظيراتها فى بغداد فهى تغص أبدا بكسالى القوم ليلا ونهارا وجلهم من لابسى العقال وفى كل مقهى (حاكى) يردد الانغام المصرية والعراقية

قمت بسكة الحديد الى حى الزبير الذى مات فيه ذاك الصحابى الكريم وهو مكان البصرة القديمة ويقع الى غرب بصرة الحالية انشىء يوم بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان سنة ١٥ هـ وأمره ان ينزل مكانا قريبا من الماء والمرعى والمحتطب فتخير هذا وشاد فيه البلدة والمسجد الجامع الذى قواه فيما بعد ابو موسى الاشعرى ثم جاء على واقام مسجده وكان

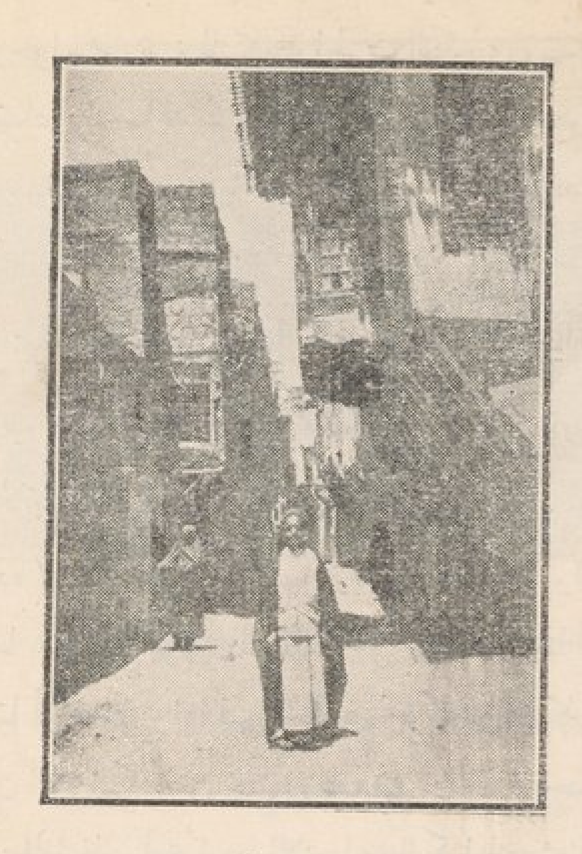


امام مسجد العباس اخ الحسين لابيه

أكبر مساجد الاسلام طرا بما آذنه السبع وكان فيه مصحف شريف عليه
قطرات من دم ظن أنه المصحف الذى كان يقرأ فيه عثمان حين قتل على
أنى لم أجد للمسجد من بقية تدل حتى على مكانه . وقد اختط العرب البصرة
نكاية فى الفرس لتحويل التجارة من سواحلهم اليها وكان عددها اذ ذاك
نصف مليون نفس بدليل أن أبا جعفر لما فرق نصف مليون درهم على

اهلها لم يصب الفرد منهم سوى درهمين ولقد لاحظت على أهلها ضعف البنية وشحوب اللون لرداءة جوهم كثير النقائع والعفونات شديد التقلب فى الهواء حتى كان العرب يسمون البصرة (بالرعناء) وفى طريقى الى الزبير مررت ببقايا برج متهدم يسمونه (برج سندباد) وأشار القوم الى مكان قالوا انه كان منزل واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن البصرى ولذلك سمى أشياعه بالمعتزلة خصوصا وانهم اعتزلوا جانبا فلم يكونوا مع على ولا مع خصومه وفى البصرة كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وفيها اجتمع اخوان الصفا أصحاب الرسائل المشهورة ومنها بشار بن برد وسيبويه والحريرى والاصمعى والجاحظ وكثير من أهل الفضل والادب

الى القرنة جنة عدن : طالما حنت نفسى أن أرى جنة عدن (التى وعد الله المتقـــين) فقمت اليها فى زورق سار بنا صعدا فى شط العرب ومناقعه اللانهائية حتى رسا بنا عند ملتقى النهرين دجلة والفرات عند بلدة اسمها القرنة واذا بها قرية هى أبعد من البصرة حقارة وأمعن قذارة ويظهر أنها كانت فيما مضى مجموعة من جنات خصبها وافر وزرعها عميم وقطوفها دانية تجرى من تحتها شعاب النهرين اما اليوم فلم أر سوى نقائع الى مد البصر يؤمها البعوض وأهلها مائيون بالمعنى الصادق تقوم قراهم وسط المياه فى بيوت من غاب ويسمونها (بيوت القصب) ويتصلون بالزوارق والناس عوامون مرحون لا يكادون يلبسون شيئا حتى فى الشتاء وقلما ترى بينهم مريضا بالعين او الساق على أنى سمعت عنهم انحلالا كبيرا وتلك نتيجة لازمة لشدة تجاورهم

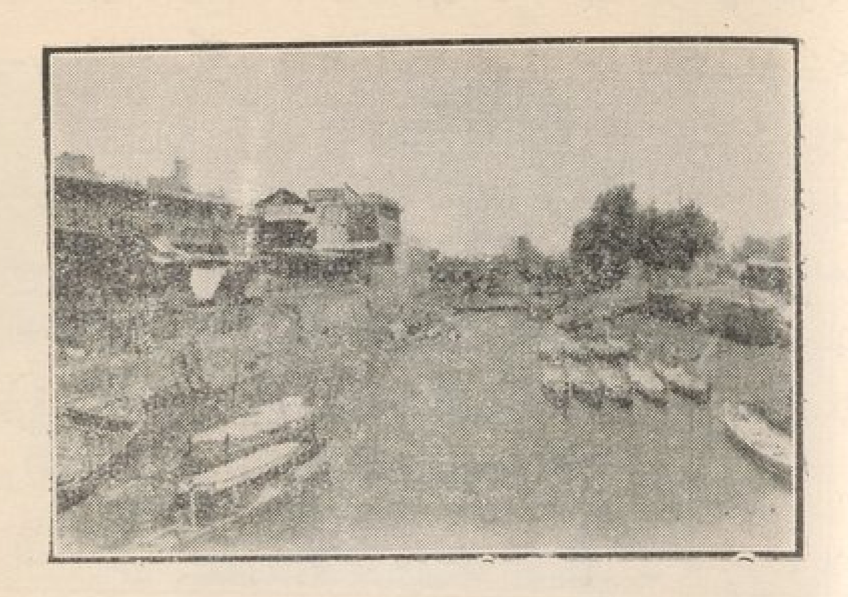


مثل من شوارع كربلاء

وقلة وسائل الترف والسرور لديهم غالب أرضهم اليوم تزرع أرزا وهى ملك للحكومة تؤجرها مساحات كبيرة لا تقل عن خمس سنين وغذاؤهم الارز والسمك وبعض أوراق الغاب وكلهم كلف بالوشم حتى على الخصر وفى داخل الجسد وأظرف ما فى مساكنهم أنها سهلة النقل فقلما يستقر البيت فى مكان واحد ويتخيرون من أعشاب الماء الطافية دواء لامراضهم

هم وماشيتهم وقد لاقيت رجلا من الصابئة الذين يقطنون حول دجلة الى شمال القرنة وحول عمارة ولما كانت الحرب الكبرى وتهدد أقليمهم هذا نزحوا إلى بغداد وقد ساعدتهم الحكومة على ذلك وانتحوا ناحية من السور القديم يقومون فيــه بأشغال النحاس الدقيقة وقد زرت بعض متاجرهم عند عودتى الى بغداد

والصابئة : يخالهم المسلمون (أهل سبأ) ويقال لهم أحيانا عبدةالنجوم وهم أهل كتاب يخالهم النصارى من شيعة القديس حنا يجاورون مسايل المياه الغزيرة لانهم مغالون فى أمر الطهر والغسل والنظافة . لهم زعيم أسمه (الشيخ جوده) يحرم على نفسه القهوة والشاى والطباق والسكر والخمر ويغتسلون جميعا مرة كل يوم أحد وكلما دخل أحدهم سجنا أو قبل طفلا أو اهتاج غضبا أو فرحا واذا نسى أحـدهم حركة من حركات الطهر التى تستغرق ساعتين أعاد الكرة من جديد وعقيدتهم أن الله واحد لكنه وضع سره فى ٣٦٠ من المخلوقات أوتوا من الاسرار والكرامات شيئا كثيرا ومن عقائدهم أن البــكاء على الميت حرام فكل قطرة دمع تذرف تصبح نهرا كبيرا يعبره الفقيد يوم القيامة كذلك فهم يحرمون التقطيب ويمتدحون البشاشة والابتسام فى جميع الظروف والرجل منهم لا يكلف الغير بشىء يعمله له حتى ولا زوجته فهو الذى يخدم نفسه ومن عادات زعماء الدين أنه عند انتخاب أحدهم يظل الاسبوع الاول دون أن ينام ويلبث ستين يوما يغتسل ثلاث مرات كل يوم بمراسيم خاصة ويؤدى الصلاة بملابسه المبللة



بصرة تشقها شعاب شط العرب وتلك الزوارق (بلم) مطيتهم الرئيسية

وهم يقدسون يوم الاحد لانه يوم الشمس ويؤدون صلاتهم باللغة المندية (Mandai) التى يتعلمها الجميع فى الصغر

ولا يبقى من هذا المذهب الا بقية آخذة فى النقص وعددهم بضعة آلاف غالبهم يقطن حول عمارة على دجلة شمال القرنة وكذلك فى بلدة الناصرية وسوق الشيوخ على الفرات وعملهم الرئيسى بناء الزوارق الصغيرة ويظهر أن لهم صلة بالكلدانيين وبالشعوب التى تقدمتهم يؤيد ذلك أنهم يعتقدون فى التنجيم ويشتركون معهم فى كثير من العقائد والاسماء لكن دينهم يشجع طهارة القلب والايمان الوثيق فى الآخرة

قمت عائدا الى البصرة ومنها اقلنى قطار بغداد مسافة ٥٥٠ كيلوا مترا

قطعناها في يوم كامل فلبثنانسير وسط سهول رملية مهملة لم يتخللها شجر ولا عشب ولبثنا الليل كله وسط تلك الرمال التي كان هباؤها يتطاير فيدرك كل شي وفي الصباح كنا في : (أوز) الكلدانية التي ولد فيها سيدنا ابراهيم وعندها شعبة للسكة تؤدي شرقا الى الناصرية ومن هنا بدأت المزارع تتزايد في بقع متناثرة وكانت القرى نادرة صغيرة في بيوت من الطين وكلما تقدمنا زاد خصب الارض وكثر عدد القرى وفي نحو نصف الطريق وقفنا ببلدة السماوة وتمتد الى غربها بادية السماوة المشهورة وعندها عبرنا الفرات الى الديوانية فالحلة وعند الغروب دخلنا بغداد

قمت باكورة الصباح (الاثنين ٢٥ سبتمبر) عائدا الى الشام مودعا بلاد العراق. تلك التي كانت مهد الانسان الاول والتي فاخرت بمدنياتها القديمة وبانها مقر جنة عدن ومدفن كثير من الائمة الاطهار وموطن هرون الرشيد والسندباد البحري على أن تلك الظروف الطبيعية الجميلة التي جعلت الجزيرة مهد الانسان الاول هي التي كانت عوامل هدمها اذ أطمعت فيها من حولها فغزاها جنود أشور وميديا والاغريق والفرس والروم ثم الساسانيون من الفرس وهم بناة ايوان كسرى ثم المسلمون واخيرا الانجليز . قمت وذكريات ذلك الماضي خالدة مجيدة يراها الزائر ماثلة في خياله فحسب ويزيدها امعانا في الخيال ما رأيته من اعتقاد القوم الى اليوم في السحر والسحرة مما أذكرني بسحر بابل وهاروت وماروت ولا يزال كثير من الناس يسمي العراق ببلاد السحر لأن خرافاتهم لا حد لها رغم أن الاسلام



الصابئة مهرة فى أشغال النحاس

محا منها الكثير ، من ذلك : اعتقادهم فى الحسد وأثر العين الخبيثة فبعض الناس حساد بفطرتهم تؤثر عيونهم فى الغير أثرا سيئا ولو كان ذلك خارجا عن ارادة أولئك الحساد والويل لمن عرف عنه ذلك وكم من مرة طلق الزوج زوجته لاعتقاده أنها حاسدة وهم يتقون العين بلبس اللون الازرق وتعليق الخرز الازرق فى بيوتهم وزوارقهم وسياراتهم - ويظهر أن تلك العادة اثرت حتى على بعض بلاد أوروبا - لذلك كنت أرى لون القيشانى بالمساجد جميعا فى لون أزرق وحتى السيدات يحكن فى طرف ازارهن بقعة زرقاء . كذلك كنت أرى كثيرا من أبواب البيوت قد دق عليها حذاء

قديم وانت تسمع دائما عبارة (ماشاء الله) يقولها الناس جميعا . ويتركون عيون الاطفال قذرة وارديتهم مهلهلة مخافة العين وقد تطوف الام على سبع فتيات عذارى فى بيوتهن وتعطى كل واحدة قطعة من رصاص تضعها فى فمها وتبصقها بين ثوبها وجسدها حتى تسقط على الارض ثم تأخذها الام وتصهرها فى روث البقر ويوضع ذلك على رأس الطفل وكثيرا ما كنت أرى الطفل يرسل شعره ويلبس لباس الفتيات خشية أن يحسده الناس لان الفتيان مفضلون على الفتيات

وكثيرا ما يلجأ الزوج الى (فتاح الفال) فيكتب له ورقة يضعها على رأسه ثم يقرأ تعاويذ ويأمره أن يذيبها فى الماء ويشرب بعضه ويحاول أن تشرب زوجته الباقى ثم يعطيه بخورا يحرقه عند الغروب وبعد ذلك تحبه زوجته ورأيت رجلا يغسل يده من دجلة ثم رمى فيه بيضة وعقب وراءها بحجر وذلك لكى يحبب فيه من يريد ولشفاء السعال الديكى الذى يسمونه هناك (حميرة أو خنزيرة) يذهب الرجل الى بائع أحذية ويفاجئه قائلا (يا كلب سوى لى كلب خاطر الكلب ابن الكلب) فيسلخ له قطعة جلد يحملها الطفل المصاب فيشفى ! وبعضهم يسقى الطفل ماء ولغ فيه كلب أو خنزير .

ويجب أن تحبو المرأة العقيم تحت جمل واقف لينفك عقمها والمسيحية تركع تحت نعش فى الكنيسة وكل النساء من مختلف الديانات يعلقن خرقا حول مدفع قديم يسمونه (ابا خزامة) رأيته عند القلعة القديمة فى بغداد

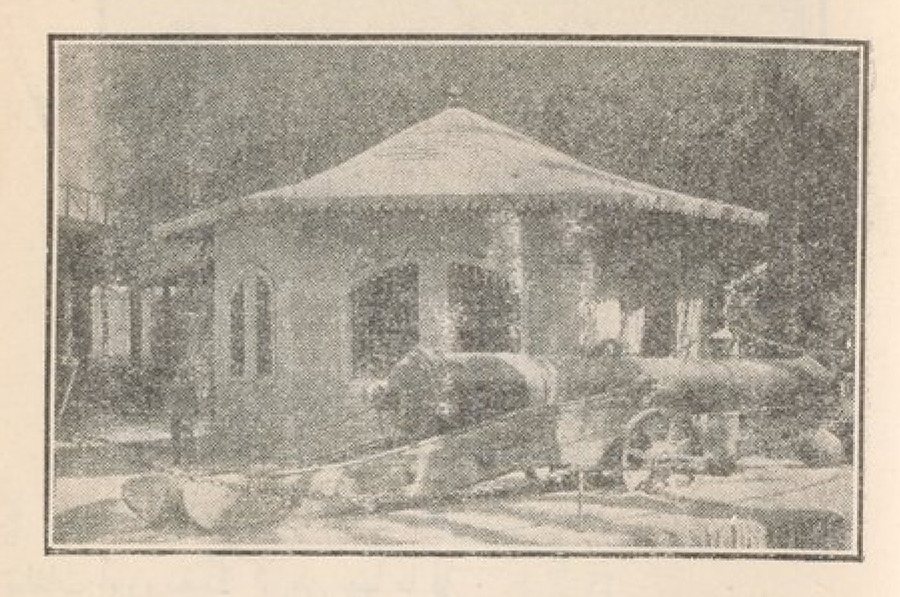


القطار يشق بنا سهول الجزيرة المهملة

وقد رأيت سيدة تضع رأس طفلها فى فوهة المدفع ليعيش طويلا . وروى لى البعض ان سيدة من الاغنياء مرض طفلها فلبست خرقا مقطعة وخرجت بها وهى عارية الاقدام تستجدى من سبعة بيوت بقولها (من بركتكم) وابتاعت بما تجمع لديها قطعة ذهب وكتبت عليها (يعيش) ثم لبسها طفلها وقد تستجدى من سبعة أطفال باسم محمد ثم يصهر ما جمع ويعلق فى رقبة الغلام ليعيش طويلا .

واذا خشيت فتاة ألا تتزوج أدت فريضة الحج الى الكاظم أربعين يوما . تخرج كل يوم مبكرة عارية القدم ولا تكلم أحدا واذا وصلت الضريح قرعت بابه ونبهت الامام أنها حضرت اليه وبذلك تضمن زوجا سريعا

كذلك يهتم فتيات العراق بأخذ نصيب من الحلوى التى توزع فى الافراح ويأكلن منه لان ذلك يعجل بزواجهن . والشيعة يعدون الايام الاولى من محرم شؤما لان الحسين قتل فيها . وكذلك أيام صفر لأن النبى مات فيه . ويوم السبت والخميس أسعد الايام واذا القمر خسف فى رمضان وجب ازعاج الحوت الذى يقترب من القمر فى زعمهم وقد يبتلعه لذلك يعمدون الى الطبول والصفائح يقرعونها ارهابا له . وفى تقليم الاظافر يجب البدء بالخنصر ثم الوسطى ثم الابهام ثم البنصر وأخيرا السبابة هذا فى اليد اليمنى أما فى اليسرى فيبدأ بالابهام فالوسطى فالخنصر فالبنصر فالسبابة وكثيرا ما يلجأون الى سيد من سلالة الرسول — حتى اليهود والمسيحيين ـ لطرد الجن من الاطفال واكل قلوب الصبية الصغار شفاء لبعض الامراض لذلك يحاول الكثير اختطاف الصبية وقتلهم لهذا الغرض ويعتقدون ان الجن قد يحب فتاة آدمية قد يناديها فتقوم وراءه ليلا الى سراديب الدار ثم تعود والجن فى زعمهم لايتعرض لمن يحمل طفلة صغيرة بأذى قط لذلك لاتجرؤ امرأة أن تمر فى مكان مظلم موحش ألا وهى تحمل طفلة والبيوت لاتسكن الا اذا شاع عنها الخير وقد يبقى البيت الجديد طويلا دون ان يستأجره أحد خشية ان يكون مجلبة للنحس وكثيرا ما يسمون الاطفال (مش عاوز) أو (وحش) أو (حصبة) خوفا عليهم . واذا سقط اناء ولم ينكسر وجب كسره وإلا كان شؤما واذا طارت بومة فوق النائم صاح قائلا (ملح وسكين) والا حل النكد لا محالة ومن أمثال تلك الخرافات شىء لا يحصى ويخيل الى أن



المدفع المحوط باسرار السحر ويسمى (أبا خزامة) فى بغداد

كثيرا من خرافاتنا وصلت الينا عن طريق الجزيرة وبابل وما فيها من تخمين وأوهام وسحر

هضبة ايران

بلاد فارس

نبذة تاريخية . فارس بلاد ذات مدنية قديمة وماض مجيد وهى مقر الآريين الاصليين الذين كانوا منبت اللغة الآرية التى انسلخ عنها كثير من لغات أوروبا وأنت تلمس ذلك فى كلمات كثيرة تراها مشتركة فى لغتهم



الشارع الرئيسى فى كرمان شاه

ولغات أوروبية أذكر من بينها ما يلى :

كلمة أخ = برادر بالفارسية ، فراتر باللاتينية ، برودر بالالمانية ، برات بالروسية

وكلمة أب = پدر بالفارسية ، باتر باللاتينية ، فاتر بالألمانية

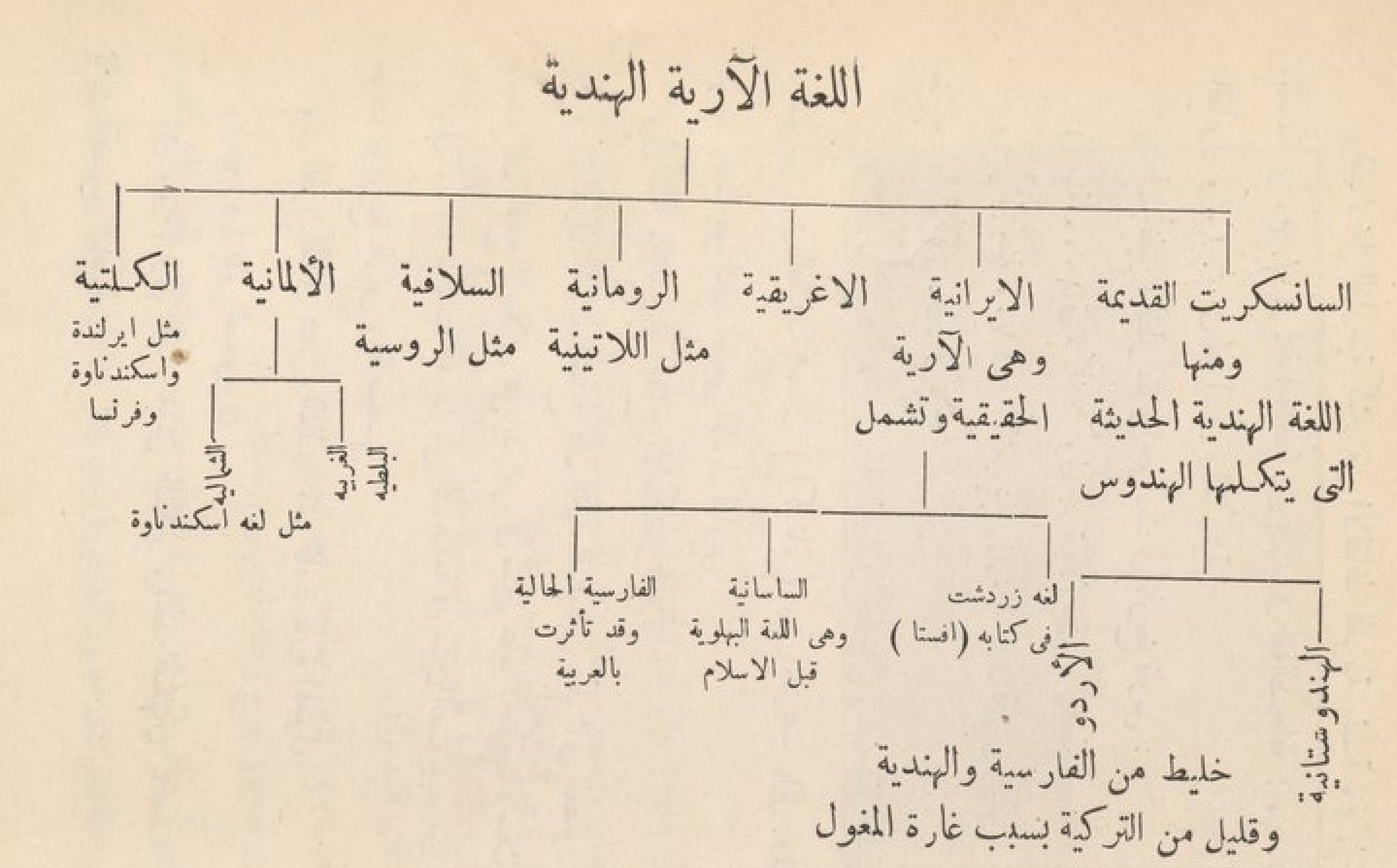
وكلمة أم = مدر « ، ماتر باللاتينية ، موتر «

وكلمة ابنة = دختر « ، تختر بالمانية ، دوتر بالانجليزية

وكلمة باب = در « ، تر « ، دور «

وكلمة يحمل = بردن « ، برد « ، بردن «

وكثير من الافعال الفارسية تنتهى بمقطع (en) مثل الألمانية تماما كذلك النفى بالفارسية نى أو نيست وكذلك كلمة باد بمعنى ردىء وكلمة جرم بمعنى دافىء وهاك تشعب اللغات الآرية :


اللغة الآرية الهندية
السانسكريت القديمة
ومنها
اللغة الهندية الحديثة
التى يتكلمها الهندوس
الهندوستانية
الاردو
خليط من الفارسية والهندية
وقليل من التركية بسبب غارة المغول
الايرانية
وهى الآرية
الحقيقية وتشمل
لغه زردشت
فى كتابه (افستا)
الساسانية
وهى اللغة البهلوية
قبل الاسلام
الفارسية الحالية
وقد تأثرت
بالعربية
الاغريقية
الرومانية
مثل اللاتينية
السلافية
مثل الروسية
الألمانية
مثل لغه اسكندناوة
الكلتية
مثل ايرلندة
واسكندناوة
وفرنسا

ولقد دخل الفارسية كثير من الالفاظ العربية بنسبة ٢٠ ./. فى لغة
العامة و ٣٠ ./. فى لغة الخاصة ، ٤٥ ./. فى لفةالصحافة ، ٦٠ ./. فى لغة
القانون و ٨٠ ./. فى لغة الدين والأدعية

واليك أظهر الخطوات والحوادث فى تاريخ فارس :

فى سنة ١٠٠٠ ق م كانت أول هجرة الآريين

وحوالى سنة ٧٠٠ ق م انتشر دين زرداشت فى فارس كلها

« « ٥٥٠ ق م جاء كورش

« « ٥٠٠ جاء دارا واخاميس وكان مقرهما فى الربيع
برسبولس وفى الصيف همدان (اكباتانا) وفى الخريف بابل وفى الشتاء
سوسا وهذا هو العهد الذهبى الاول لفارس

وفى سنة ٣٣٠ ق م اجتاح الاسكندر البلاد

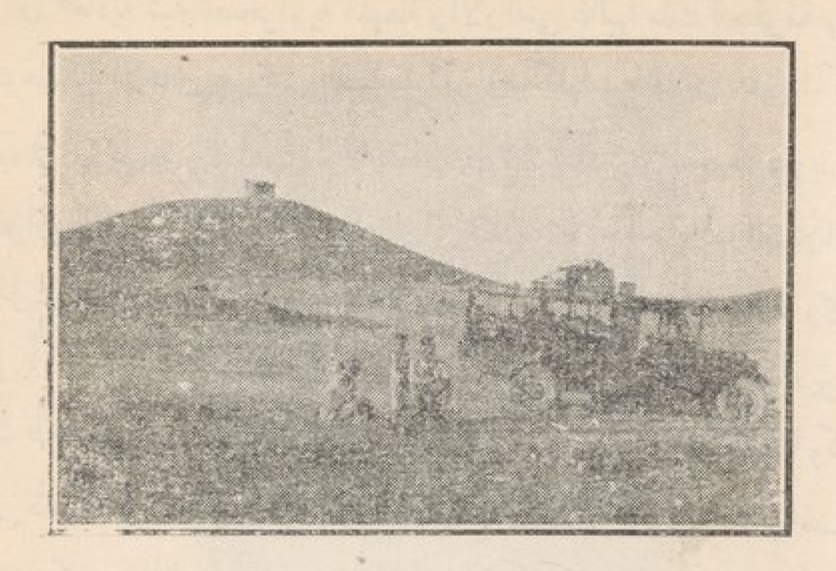
وبين القرن الثالث والسابع كان العهد الساسانى وهو ثانى العصور الذهبية
وبعده كان الفتح الإسلامى على يد عمر وفى ستين عاما اخاج الاسلام البلاد

وفى ١٠٠٠ م كتب الفردوسى الشاهنامة فى ستين الف بيت من الشعر
حوت تواريخ فارس وأقاصيصها

وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر كانت غارة المغول

وفى ١٥٠٢ ظهر الصفويون

وفى ١٦٠٠ ولى الشاه عباس الكبير واتخذ اصفهان عاصمته وهذا
ثالث العصور الذهبية



(اللورى) أداة النقل الممتازة فى فارس

وفى ١٧٣٦ جاء نادرشاه الذى كان بائع جلود ثم أصبح جنديا وانتصر على الافغان واضحى سلطانا فتح الهند ومد حدود فارس من السند الى القوقاز ولما قتل تدهورت الدولة بعده عاجلا

وقبيل ١٨٠٠ ظهرت أسرة قاجار وكان اظهر ملوكها الشاه نصر الدين الذى قتله بهائى

وفى ١٩٢١ فتح رضاخان طهران وأصبح وزير الحربية

وفى ١٩٢٥ توج رضاشاه بهلوى ملكا

الى كرمان شاه : قام بنا القطار صوب بلاد العجم فقطع المسافة بين بغداد والخانقين عند حدود العراق فى نحو عشر ساعات وكنا نسير فى سهول

العراق العادية شبه الصحراوية المهملة والاراضى غالبها ملك للحكومة ولا تزيد ملكية الاهالى على خمس مساحة العراق كلها وذلك فى ظنى اكبر سبب فى أنها مهملة ولا أدرى لم لا تقطعها الدولة للناس كى يخدموها ويزيدوا فى موارد البلاد. والخانقين بلدة كقرى الريف عندنا استأجرنا بها السيارات لنوغل فى بلاد العجم اذ لا يكاد يشق هضابها خط واحد لسكة الحديد وكان حظى أنا فى سيارة كبيرة من نوع (اللورى) وتلك أكثر السيارات ذيوعا هناك فأخذت تسير بنا فى أرض مغضنة تزيد جبالها تعقيدا كلما تقدمنا وكنا نرتقى هضبة ايران تدريجا وعلوها يتراوح بين ثلاثة آلاف قدم وخمسة آلاف وكانت مناظر الجبال جميلة لولا أنها لا يكاد ينبت بها زرع وهى أجمل من مناظر العراق المبسوطة المملة ولو أعوزتها روعة الجبال المنزرعة التى تتوجها الثلوج على أنا كلما اوغلنا فيها زادت الشجيرات وكثرت المسايل السريعة وفى منتصف الطريق تعطلت السيارة وكسر محركها فنزلنا نترقب سيارة اخرى ولبثنا كذلك وسط تلك الصحراء الجبلية المخيفة ست ساعات حتى وفقنا الى (لورى) عائد فنقلنا ثم واصل السير بنا ولقد بدا الفرق جليا بين أهل العراق الكرماء وبين أهل العجم فمثلا كنت انا الذى ادعو رفقاء السيارة إلى تناول الطعام أو المرطبات ولم يحاول أحدهم ذلك عكس ما رأيت فى تنقلاتى ببلاد العراق واول ما آلمنا من أهل فارس المعاملة السيئة التى لاقيناها فى الجمرك حيث كان التفتيش شديدا شدة غير معقولة فقد أخرنا عمال الجمرك سبع ساعات فى غير ضرورة وكنا كلما حللنا محطة جديدة

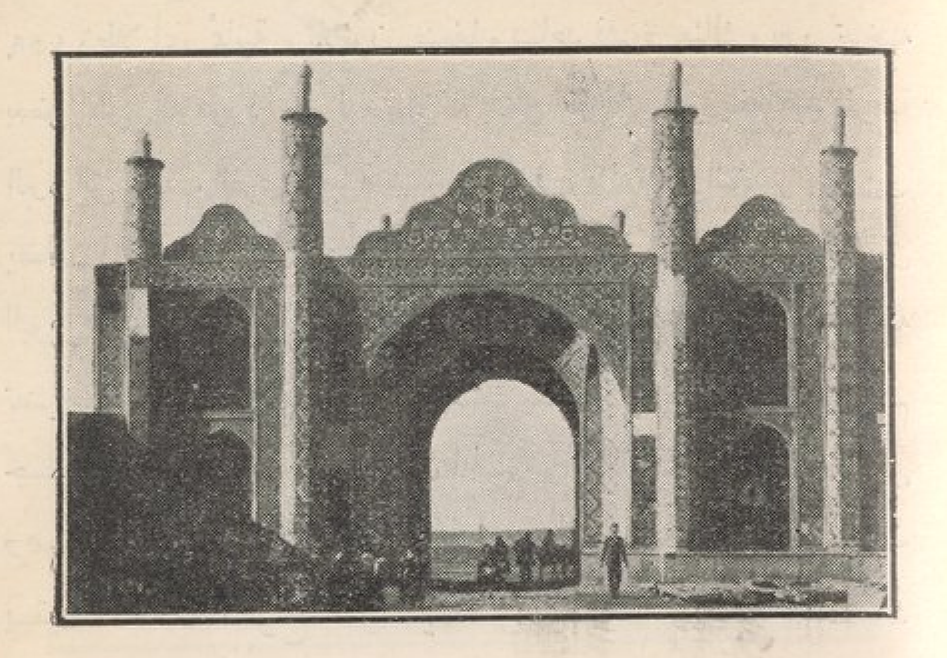


آثار دارا فى طريقنا إلى همدان

طلبت جوازات السفر وفحصت ووقفنا ننتظر التأشيرات طويلا وبعد تمام أربع وعشرين ساعة دخلنا :

كرمان شاه : وهى مدينة أشبه بالمراكز المتأخرة عندنا حللت بها نزل (فرنسا) أجمل فنادق البلدة والطعام فيه شرقى شهى ولقد مكثت فيه يومين لأستعيد قواى بعد عناء اليومين السالفين. أخذت أجول فى المدينة واذا

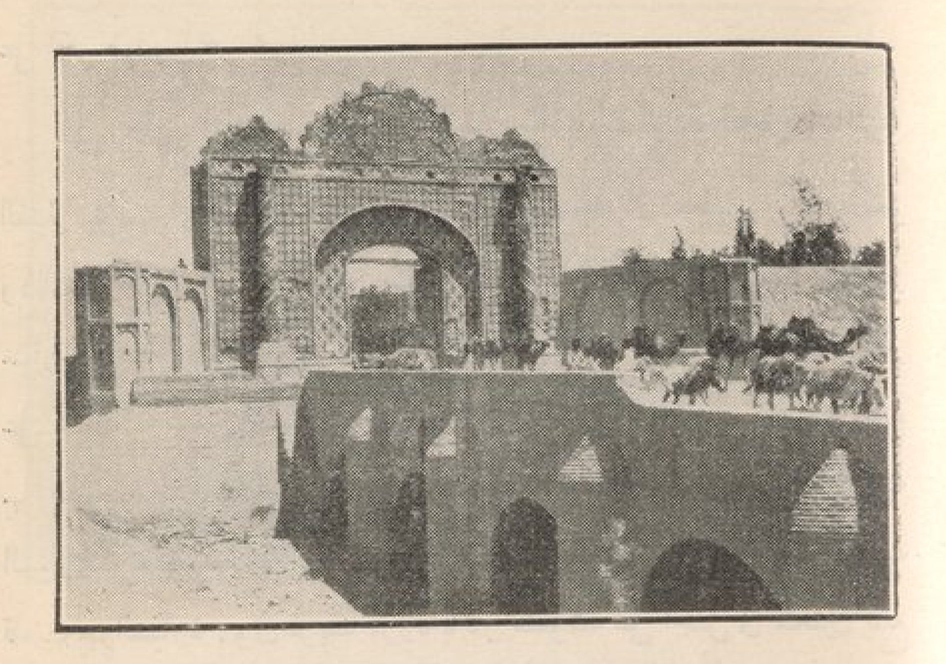
سيل المتسولين دافق بحيث لا تمضى دقيقة دون أن يتوسل اليك أحد طالبا الاحسان وكثير منهم يتخذون الامر حرفة وما كاد الاصيل يقبل حتى أدهشنى سيل السيدات يختلطن مع الرجال وهن نصف محجبات يلبسن أزارا شبيها بأزار أهل العراق لكن النقاب شبكة من قماش أسود مقوى تقف مائلة أمام الوجه وما كان أشد دهشتى عند ما علمت أن كل أولئك من الساقطات يجرين وراء الرجال وبخاصة الاجانب وكثير من أزواجهن يعلم فيهن ذلك لا بل ويرضاه لانه مورد رزق لهم ولعل سبب ذلك الفقر والعوز المالى وزواج المتعة المنتشر فى فارس كلها وضعف صحة الرجال لادمانهم الافيون مما جعل الوانهم شاحبة وجسومهم ضامرة ضعيفة وقد ساعد ذلك على عجزهم حتى عن العمل فزاد فى فقرهم وفى عدد متسوليهم وكم كنت أرى من الشبان من لايكاد يسير على قدميه فى تقاطيعه الغائرة ولونه المصفر وكثير منهم يبدو فى هياكل عظمية وقد علمت أن الحكومة قد أباحت شرب الخمور بعد أن كانت محرمة كى يقبل الناس عليها ويغفلوا الافيون لكنى لاحظت الكثير منهم يدمن النوعين معا. وزراعة الافيون فى بلاد فارس قديمة ترجع الى عهد سومر وبابل منذ ستين قرنا قبل الميلاد وتنتشر فى نحو ١٨ مديرية من ٢٦ ويقدر انتاج البلاد منه بنحو مليون ونصف مليون رطل ويعيش على تجارته خلق كثير فمثلا ربع سكان اصفهان يشتغلون به وهو ثانى الصادرات (بعد البترول) ويصدر ثلثا محصوله بعد أن تتسلمه الحكومة لانه حكر لها وقد بلغ الصادر منه سنة ١٩٣٠ بنحو ١،١٥٠،٠٠٠ جنيها وغالبه يصدر الى الشرق



باب خراسان . وبوابات طهران القديمة تسترعى النظر بجمالها الفنى

الاقصى عن طريق سكة حديد سيبريا والافيون الفارسى من أجود الانواع فى العالم ويستهلك ثلث المحصول فى فارس نفسها وجزء كبير يباع فى البلاد تهريبا فهو يدر على الناس مالا يقل عن ربع مليون جنيه من الارباح وتدخينه منتشر فى كل البلاد خصوصا الجنوبية وفى طهران نفسها فمن سكانها الذين يبلغون ربع المليون أكثر من ٢٥ الفا يدمنون تعاطيه أما فى كرمان من بلاد الجنوب فيتعاطاه ٢٥ الفا من ستين الفا مجموع سكانها حتى يقول الفرس وهم يمزحون (فى كرمان يدمن الافيون اربعة أشخاص من كل ثلاثة من السكان) ورغم أن عصبة الامم لا تبيح أكثر من استهلاك

١٢ رطلا لكل عشرة آلاف نسمة فى فارس يستهلك كل عشرة آلاف
٤٥٩ رطلا أى ثمانية وثلاثون ضعفا ويساعد نشره هناك ويبرر تدخينه
بعض الشيء انه مورد كبير لهم وان له بعض الفوائد فهو ينفع ضد قرصة
البرد التى تصيب القرى الجبلية شتاء وقد عرفت فائدته فى التخدير وكان
يضاف الى لحوم بعض الافاعى وسمى (تيريس) أو (تريا كا) والفرس
اليوم يسمونه تريا كا والمدمن له تريا كى ورغم أن الحبة الواحدة منه
تضر ضررا بليغا فان الفارسى يبتلع حبات عدة ولا يموت لكن ذلك قد سمم
جسمه ومن أخطر اضراره انحلال الجسم واكتئاب الفكر وغباء العقل
وهم لا يكتفون بتناوله أو تدخينه كبارا بل يعطونه مخففا للاطفال فالامهات
يسقين الاطفال منقوع قشر الخشخاش لينيموهم ويسمونه هنـــاك
(شربات باشا) أى شراب الاطفال وبعضهن يضع حبة منه تحت ظفر
الاصبع ويتناوله الطفل ليرضع منه وينام . أليس فى ذلك أكبر الخطر على
أجيال الفرس المقبلة من الوجهة الصحية والعقلية ؟ ويبلغ من قوة تأثير
الافيون أن الحيوانات التى تعيش فى حجرة تدخين الافيون تعتاده فتضطرب
اذا منع عنها فكأنه أثر حتى على حيوانهم فاضحى مدمنا ! والحكومة هى
التى تبيعه اليوم فى أصابع تلف فى ورق وثمن الواحد قران ونصف — والقران
اثنى عشر مليما — وكنت أرى رفقاء السيارة اينما سرت يدخنونه فى دواة
اسطوانية مغلقة تماما الا فى ثقب يضعون فيه نصف هذا الاصبع أو ثلثه
وللدواة (مبسم) فى طول الشبر يضعونه فى الفم ثم يعمدون الى قطعة من



باب الجمرك فى طهران

الجمر فى ملقط ويقربونها من قطعة الافيون حتى تنفد ولا يضعون الافيون فى (التمباك) أو التبغ كما كنت أظن من قبل

ولقد كنت أعتقــد أن أسوأ ما يرى البؤس مجسما فى بلاد الهند التى زرتها من قبل ولـكنى أكاد أقول بأنه هنا أشد وأنكى فلا تكاد تقع العين فى أى مكان الا على من شوه البؤس أبدانهم ، هذا نائم من غير حراك وذاك يحمل طفلا وتلك تبكى فى كثرة مخيفة فهل خص الله تلك الجهة بذاك الفقر المميت ؟ ألق بقشرة من بطيخ أو تفاح وأنت تذعر لهجمات عشرات الناس عليها يلتهمونها وكنا نرى طوال الطريق الناس يحمل كل رغيفا من الخبز

يكاد يبلغ نصف قامته طولا والخبز هناك رقيق ممطوط كأنه الفطير يشوى على الجمر فيبدو أسمر محببا

الى طهران: قمت أغادر كرمان شاه تلك البلدة الفقيرة بمناظرها الغنية بؤسها الى طهران مسيرة ٤١٤ ك . م . بعد أن تعطلت يوما آخر وذلك لأن المسافر مضطر أن ينتظر السيارات المسافرة ان لم يرد استئجار سيارة خاصة وهذه تكلفه كثيرا وكانت السلطة العسكرية إذ ذاك تسطو على سيارات الناس لتضع فيها جنودها ومؤنها عنوة وبدون أجر وتقوم بها صوب الحدود التى كانت ثائرة هنـــاك لذلك كان كثير من أصحاب السيارات يخفونها فيفتش المسافر عنها سرا حتى اذا ما تكامل عدد الركاب قامت بهم السيارة . وفى طريقنا مررنا بآثار منقوشة على الجبل فى فتحتين ينبع من تحتهما ماء مثلوج وهى لدارا يسمونها (طاق بستان) أو (بسيتون) وبجوارها صخر نقش بثلاث لغات منه أمكن العلماء فك طلاسم التاريخ القديم على نحو ما خدمنا حجر رشيد فى مصر ثم مررنا بقرية (أسد أباد) الصغيرة وهى موطن السيد جمال الدين الافغانى وقد لقب بالافغانى خطأ فأثار المكان على صغره فى نفسى أجل الذكريات . وكانت سيارتنا (فورد) عتيقة بدا عليها الضعف فتعطلت بنا مرارا حتى انا قطعنا المسافة الى همذان فى ثمان ساعات وزاد الطين بلة أن زملاء السفر بينهما أثنان ممن تأخذ الخمر بلبهما ويدمنون الافيون فكلما مررنا بمقهى أو (شاى خانة) - وتلك كثيرة على طول الطريق - أوقفوا السيارة ونزلوا يشبعون أمزجتهم أما أنا



قمة دماوند أعلى ذرى فارس وهي بيت الله فى زعم المجوس

فكنت أطلب الشاى يقدم لنا بدون سكر ويضع الرجل فى يدك بعض قطعه الصغيرة ، تلقى بالقطة فى فمك وتشرب عليها الشاى وتلك طريقتهم فى شربه فى بلاد فارس كلها . وكان من الرفقاء واحد يعرف قليلا من العربية فأخذ يحدثنى عن بلاده فى نغمة المبالغة ويحاول اظهار كل شيء بمظهر الفخامة والعظمة فتعرض للتاريخ وأشاد بماضى فارس المجيد . وثنى على الانجليز والروس وأخذ يلعن ويطعن ويقول بأن الفرس نجحوا تماما فى طردهذين الكابوسين وكلاهما مبغض لجميع أهل فارس كذلك فهم يبغضون أهل العراق ويطمحون الى تملك بلادهم يوماوهم جميعا يمقتون العرب المقت كله

ويتبرأون منهم ويقولون بأن العرب رغم أنهم أدخلوا الاسلام فى بلادهم واحتلوها طويلا فان فارس حافظت على شخصيتها ولغتها وهم ينظرون الى العرب نظرة احتقار ويفاخرون بانهم من اصل آرى لاسامى ولعل ذلك راجع الى أنهم يتأثرون لماضيهم الذى هزه العرب يوم فتحوا بلادهم. حدث أن عرفنى هذا الرفيق بآخر لاقيناه فى نزل فى همذان وقال له بأنى مصرى أتكلم العربية فكان جوابه فى غير ذوق ولا أدب: اننى أمقت العرب مقتا.

ومن مبالغات صاحبي هذا انه قال بأن طهران تحكى فى عظمتها برلين وباريس فلماجئتها لم أجدها شيئا يذكر الى جانب أسيوط مثلا ونغمة التفاخر وحب الفخفخة طبيعة فى أهل فارس جميعا ورغم أن ذلك ضعف خلقى فانه فضل من جانب العصبية القومية والاعتزاز بها

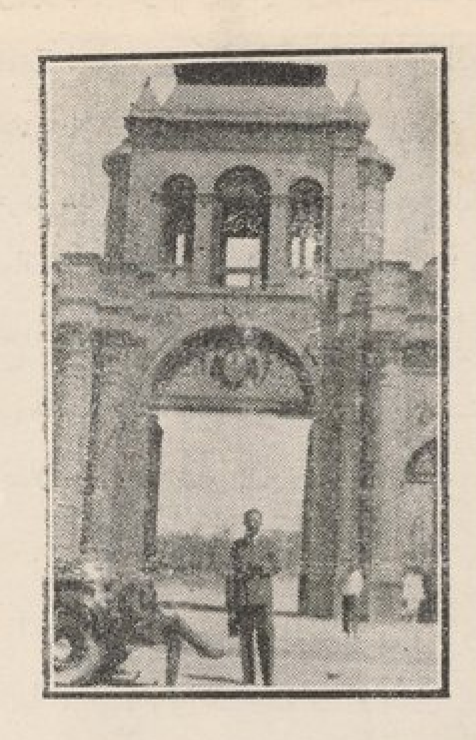
وكنت أعجب لتلك الوحدة القومية التى كنت أشاهدها تسود أهل فارس جميعا رغم شقة الخلاف الجنسى واللغوى هناك فلتقاليد الفارسية لا يكاد يكون لها وجود بينهم لكثرة الامتزاج الجنسى ومع ذلك كانت الوحدة القومية قوية جدا وهم كالانجليز من أكثر الشعوب اختلاطا فأول من نزل بلادهم القاطنون حول بحر الخزر ثم دخل الآريون النورديون من شرق الروسيا والطورانيون المغول من غرب سيبريا منذ ٢٠٠٠ ق م وقد قيل ان بلاد العرب خضعت لثلاث قوى جعلت منها وحدة سياسية: اللغة والدين والتقاليد وهى أكبر مساحة فى الدنيا حل بها هذا وساعده تشابه البلاد



الاحتفال بعيد رضا شاه فى حجر دمافاند

فى الظروف الطبيعية أما فارس فعلى نقيض ذلك تقوم بها نحو ست لغات مختلفة تنقسم كل منها الى لهجات عدة ـ وأن أخذت تسود اللغة الفارسية اليوم بفضل انتشار المواصلات والتعليم والخدمة العسكرية فنحو ثلاثة أرباع الناس يتكلمونها اليوم ـ كذلك فى الدين ترى شيعا مختلفة هناك وان كان غالب السكان من الشيعة الذين يفوقون عشرة ملايين ولا يزيد السنيون على ثلاثة أرباع المليون ويحلون نواحى كردستان واذربيجان وبلوخستان ومن الاقليات : المسيحيون والبارسى عبدة النار والصوفية والبهائية التى اثرت على العقول المثقفة هناك زمنا وبدرجة قد تفوق أثر الاسلام ولقد

قاومت الفلسفة الزردشتية هناك الاندماج فى العرب ولذلك لا يعد الغزو
الاسلامى نصرا من هذه الناحية ويخال البعض أن سبب ذلك يرجع إلى ان جنود
العرب لم يصحبوا نساءهم معهم فتزوج غالبهم من الفرس فتبع الابناء أمهاتهم
ووعوا ما لقنوهم من تقاليدهن الفارسية فخرج من ذلك نشء جديد يغاير
الحاكم والمحكوم . ويقول المستشرقون ان الفرس كانوا ارجح عقولا
وأكثر مغامرة ونشاطا من العرب سادتهم ولما اجتاح بلادهم المغول عهد
هولاكو وتيمورلنك استخدموا موظفين من الفرس وأبقوا القوانين الفارسية
ولما جاءت أسرة الصفويين وحدت البلاد ولما انقضى عصرهم فى منتصف
القرن الثامن عشر كانت العناصر الفارسية هى السائدة فى البلاد فاهل فارس
وحدة قومية تفوق فى عصبيتها شعوب آسيا جميعا وكثيرا من شعوب أوروبا
والفارسى رجل اجتماعى فى مجموعه يفوق فى تلك جميع الشرقيين وأكثر
الفئات ميلا للاجتماع فى الشرق عادة الطبقات الارستقراطية الراقية فقط
أما فى فارس فترى حتى عامة الناس والطبقات الوضيعة كذلك والفارسى
اكفأ من العربى فى الصناعة وأقدر على ادارة الأعمال والظهور بمظهر
الرآسة لذلك كنا نشاهد كثيرا من رؤساء البوليس فى الافغان والعراق وفى
الهند من أصل فارسى فالفارسى قوى الملاحظة سريع التعلم وان مال الى
النظريات الفلسفية اكثر من ميله الى العمليات وهو مرح يحب الشعر
وأوتى قدرة مدهشة على استظهاره فبعضهم يحفظ ديوان سعدى وحافظ
وقصص زهراب عن ظهر قلب والفرس كسائر الأمم الاسلامية ليس



أمام باب بهلوى الجديد وشتان بين الفن القديم والحديث

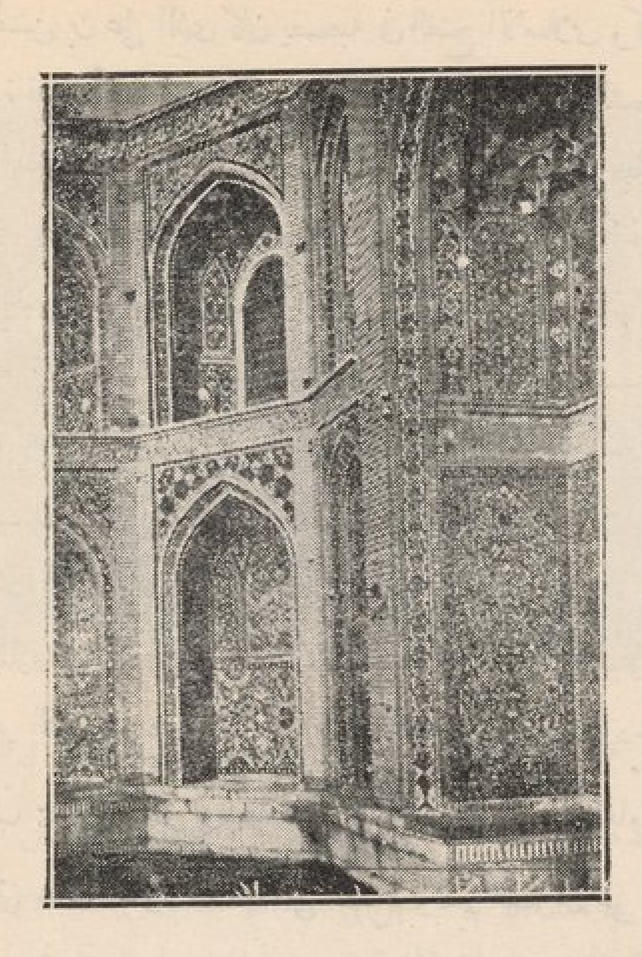
بينهم نظام الطبقات . وفى تقديره للجمال يفوق الكردى والعربى والافغانى وهو يخلق لنفسه السرور مما حوله من ظروف ولو كانت شديدة وقدرته العسكرية يؤيدها التاريخ منذ زمان بعيد

امضينا ليلتنا فى همدان : فى نزل جميل وتجولنا بها فى الصباح فظهرت تفوق كرمان شاه عمرانا وامتدادا تحفها البساتين اليانعة وارتفاعها ٦٠٠٠ قدم يشرف عليها جبل ألفند alvend وموقعها جميل جذاب ويقولون انها هى نفس بلدة (اكباتانا) التى نهب الاسكندر كنوزها القيمة فى عودته من

الشرق وكان الاشوريون يسمونها هجماتانا وكانت قاعدة ملك ميديا وبجوارها مدفن أستر (Esther ، ومورد كاى Mordecai) ولذلك قدسها اليهود وأحلوها من قلوبهم محلا ساميا وهى وطن بديع الزمان وبهامات ابن سيناء

وفى المدينة حركة هدم للقديم وانشاء جديد وهى السنة التى يسير عليها شاه فارس المصلح اليوم ولذلك أحبه الناس حبا وزينوا دورهم ومتاجرهم بصورته ولا يستطيع أحد التعرض للاحزاب والسياسة ومن فعل فقد حياته وقد أقام من الناس عسسا على بعضهم وهؤلاء يجزون خيرا على تبليغاتهم والنزعة العامة الاصلاح ورفع شأن البلاد وايقاظها من سباتها الذى غطت فيه أجيالا

قمنا من همدان الحادية عشرة صباحا الى طهران ومررنا بمساحة شاسعة من سهول كثرت بها المزارع وفى السادسة مساء دخلنا بلدة قزوين أى بعد سبع ساعات رغم جودة السيارة ومهارة السائق فعجبت كيف كان القوم ينتقلون قبل مجىء السيارات ـ ولم تستعمل لديهم الا بعد الحرب العظمى ـ كانت تنظم القوافل بالدواب من بغال وحمير لنقل الناس وجمال لنقل المتاع فكانوا يقضون فى طريقهم شهورا متعبة ممضة وهم معرضون لخطر هجمات اللصوص ولم يكن الامن منتشرا كما هو اليوم ولا نزال نرى لتلك الحيوانات بقية فى كل مكان خصوصا فى الريف والقوم جميعهم مهرة فى ركوب الخيل فهى مطيتهم الرئيسية الى اليوم والحق أن السيارات تلعب دورا هاما فى تطور البلاد يشتغل بها نفر عديد وأينما حللت وجدت (الجراجات) تلحق

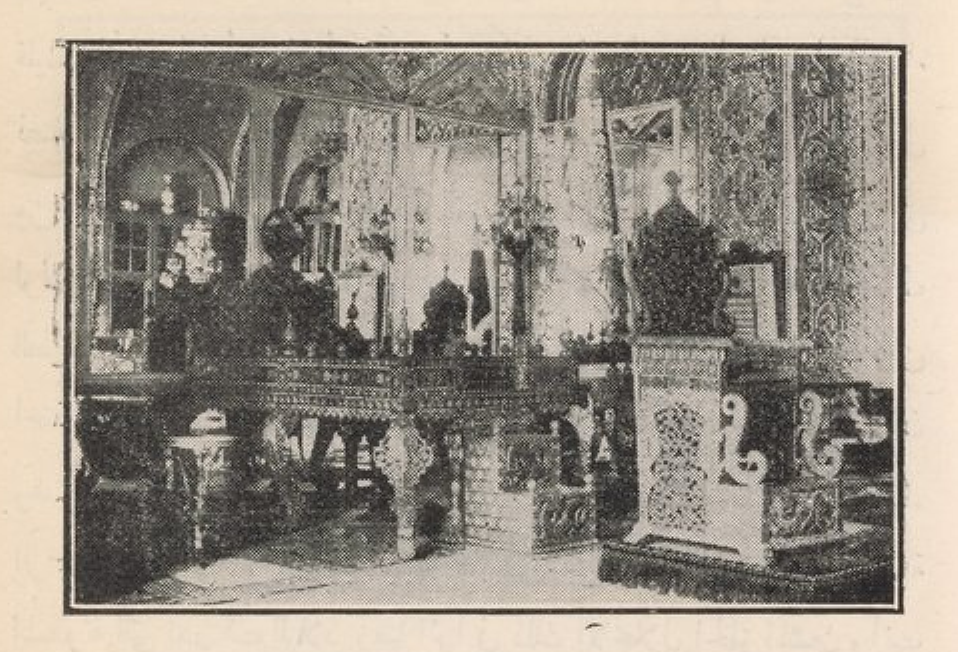


ابداع الفن داخل مسجد سپاه سالار بطهران

بها (المسافرخانات) لنزول المسافرين وقزوين بلدة صغيرة ولكنها أجمل من همذان لانها كانت يوما ما عاصمة الشاه عباس يسترعى النظر بها دار النظمية فى بواباتها الشامخة يزينها القيشانى الازرق البديع وآى الذكر الحكيم كذلك مسجدها الجامع بقبته الزرقاء الجميلة وقد أقام الصلاة فيه خالد بن

الوليد والحسن بن على الذى كان يصحبه فى الفتح الاسلامى وكثير من أحياء البلدة قديم أقيم فى سراديب ضيقة محجبة من وهج الشمس وبخاصة الاسواق الملتوية وقد لاحظت جودة الطرق ورصفها على جانبى همدان وعلمت أن الفضل فى ذلك يرجع للانجليز والروس أبان الحرب. فكل فريق كان يخشى الآخر الروس زاحفون الى همذان من الشمال والانجليز من الجنوب. واصلنا سيرنا صوب طهران وسط الربى الجافة وفى بلدة كرج التى تبعد عن طهران بساعة واحدة عجز السائق عن السير وقددارت رأسه ولعب الافيون بعقله فأصر أن نتام ليلتنا هناك فخضعنا لأمره وفى الصباح كانت البلدة وسط مزارع غنية وشجر كثيف وهى من أشهر الاراضى الزراعية فى إيران كلها لذلك أقيمت بهامدارس الزراعة ومصانع لسكر البنجر الذى يزرع حولها وفى ضحى الخميس ٣ أغسطس دخلنا :

طهران : فأخذنا نمر وسط بلدة مخربة متهدمة من أثر معاول الاصلاح الجديدة التى بدأت تحاول القضاء على القديم وتقيم العمران على أحدث نظام فالطرق زيد فى اتساعها وبدىء فى رصفها بالاسفلت بعد أن كانت بقطع الحصى والمبانى الشامخة أخذت فى الظهور بعد أن كانت أقبية وطيئة مغلقة وكانت تبدو على بعد جبال دماقاند أعلى ذرى فارس (١٩٫٤٠٠ قدم) وأروعها تكسوها عمائم الثلج الابيض الوضاء وخلف القمة تمتد جبال البرز وبلاد طبرستان القديمة . حللت بها نزل (جراند أوتيل) من أكبر فنادقها فى شارع (لالزار) أحدث الطرق التى تم تنسيقها عندهم ثم طفت

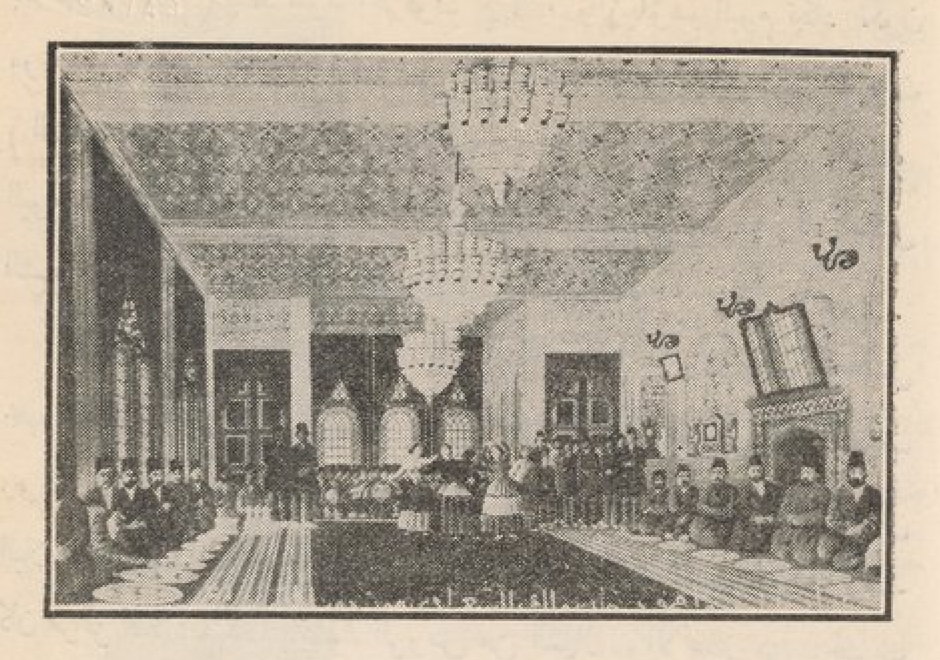


عرش الطاووس الذى سلبه نادر شاه من الهند فى قصر جولستان فى طهران

أرجاء البلدة فراقنى بواباتها العالية المزدانة بالقيشانى والنقش البديع وهى من أخص مميزات طهران أذ كرتنى بعاصمة الصين : بكين وبواباتها . أما اسواق البلدة فحدث عن جاذبيتها شعابها لا تدخل تحت حصر وكلها مغلقة بالاقبية وجماهير الناس بها متلاصقة وأصواتهم لا تخبو قط . وغالب البيوت ذات مدخل مزركش بالقيشانى يؤدى الى فناء يتوسطه حوض ماء كبير يغتسل فيه القوم ويغترفون ما يحتاجون من ماء والحجرات تطل على الفناء فى مربع ذى شرفات جميلة ويغلب أن تزينه حديقة بسيطة والفرس مشهورون بميلهم للحدائق مثل اليابانيين وان أعوزها التنسيق وكمال الذوق.

وبالمدينة عدة مساجد فارسية الهندسة قصيرة المآذن نحيلتها . والمقاهى هناك قليلة بالنسبة لما رأيته فى العراق وأحب وسائل اللهو دور السينما والنساء نصف سافرات يلبسن الازار المهفهف وعلى الوجه ظلة مخرمة أفقية وقليل من لبس الزى الافرنجى وهن أكثر حرية من نساء العراق وجمالهن فائق لولا طول الانوف وتحديبها والمبتذلات منهن هالتنى كثرتهن فأنت طوال الطريق تراهن فى زينتهن وطــلاء وجوههن يسرن ذهابا وجيئة يحاولن اجتذاب المارة بالنظرات والغمزات والوكزات ولا يكاد يخلو منهن مكان وقد علمت أن فى طهران وحدها من أولئكن ثلاثين ألفاً حسب الاحصاء الرسمى وهذا بلاء زواج المتعة المنتشر هناك ولعل للاباحة الروسية الممقوتة التى أدركت البلاد زمنا أثرا فى ذلك الانحلال الخلق المشين وأنت ترى الرجال كل يساوم غانيته على قارعة الطريق فى غير حياء كأن الامر عادى وذلك شر ذائع فى بلاد فارس كلها بنسبة لم أرها فى أى بلد آخر اللهم الا فى شنغاى بالصين وهى هنالك تعزى الى انتشار العوز والاباحة الروسية ويقينى أن تلك وصمة عار فى جبين الدولة الفارسية

قمت يوم الجمعة متعبا لان شدة الحر لم تمكنى أن آوى الى مضجعى الا فى ساعة متأخرة من الليل والجو هناك أميل الى الحرارة لكنه أرحم بكثير من بلاد العراق والسماء تغشاها الغيوم المتقطعة مما يخفف من وهج الشمس بعض الشيء خرجت أجوب ارجاء البلد واذا المدينة هادئة الحركة مغلقة المتاجر لأن الجمعة هو يوم العطلة العامة وغالب أصحاب الاعمال يحترمونه



مثل من الحفلات الراقصة القديمة فى قصر الشاه

فيوقفون أعمالهم والناس هناك أنظف من أهل الريف وان كثر بينهم المتسولون كثرة مروعة فالتسول والفقر فى فارس آفة مهلكة وأن وجد من بين الفرس أفراد مفرطون فى الغنى ومن العادات المنفرة بينهم جميعا التجشى والبصق والتمخط اينما وجدوا وحتى المهذبين منهم ترى الواحد لا يمسح انفه بمنديله بل يضغطه بين اصبعيه وينفر نفرة تشمئز لها النفوس على أنهم مؤدبون تسمعهم يرددون (خيلى ممنون) ومعناها (عظيم الشكر) دائما وأن أرادوا الاستفهام أو النداء أو الرضى بما يقال صاحوا قائلين (بلى) بأمالة اللام فى رقة وأدب ويبدأك الكبار بقولهم (سلام عليكم) والصغار

بقولهم (سلام) فقط سواء أعرفوك أم لا . وأزياؤهم اليوم تكاد تكون موحدة فكلهم يلبسون الحلل الافرنجية وعلى رؤوسهم القبعات (البهلوية) وهى المميز الواضح لهم جميعا ولا تكاد ترى للزى القديم اليوم من أثر وهو العمامة (أو القاووق) والعباءة من الصوف وقد استثنى الشاه من ذلك رجال الدين يظهرون فى عمائمهم السوداء وقليل ماهى

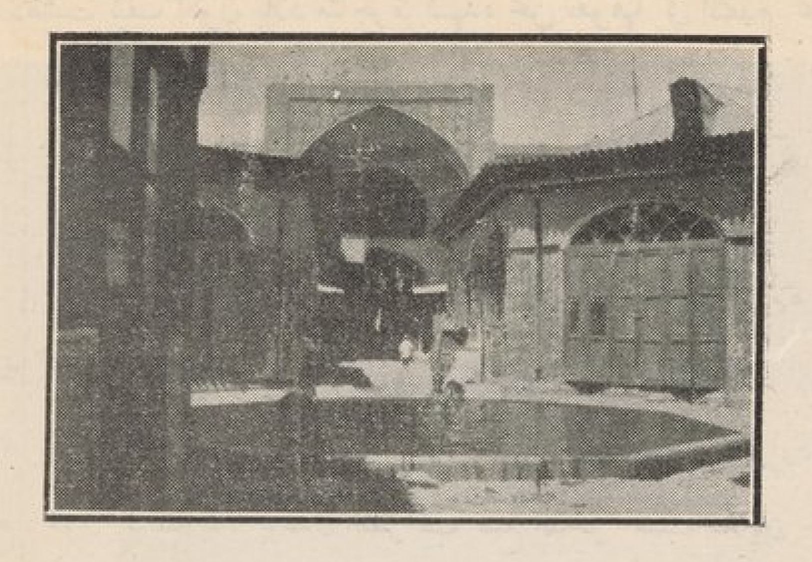
ويخيل الى أن مستقبل طهران بل وايران كلها سيكون عظيما بفضل مجهود الشاه الحالى فهو يريد أن يرى بلاده تناظر فى القريب بلاد الغرب رونقا ورواء لذلك أخذ يهدم القديم وينشىء الحديث بسرعة عجيبة فى كل البلاد ولقد أعاد لبلاده هيبة فى قلوب الاجانب انتزعها منهم انتزاعا وقد كان مركز البلاد مهددا باعتداء الروس من الشمال والانجليز من الجنوب وزاد ذاك الخطر منذ سنة ١٩٠٦ حتى كانت الحرب الكبرى فتقدموا داخل البلاد بحجة مطاردة الاتراك ولما أن انسلخت الروسيا عن الحلفاء خشيتها أنجلترا واحتلت بلدة (قزوين) وماجاورها خصوصا وقد نشطت حركات البلشفيك عند بحر الخزر وفى اذربجان واخذت شروط ولسون تلعب بلب الناس فى فارس تحت زعامة رضا خان فعرض الروس تنازلهم عن معاهدة ١٩٠٧ واستعدادهم للتنازل عن جميع الامتيازات التى كانت للروسيا فى فارس وفى يونية سنة ١٩١٩ قدم ممثل السوفيت فى فارس التصريح التالى :

(١) التنازل عن الديون الروسية فى فارس (٢) التنازل عن التدخل فى شؤون فارس (٣) الغاء الامتيازات والمنح الروسية هناك (٤) التنازل عن


مثال للجمال الفارسى

البنك الروسى فى فارس (٥) ترك الطرق
والسكك الحديدية الروسية للحكومة
الفارسية (٦) تنازل الروس عن كل
أملاكهم هناك. وكان غرض الروسيا
من ذلك احراج انجلترا ولقد اعترفت
روسيا باستعدادها لمساعدة فارس عسكريا
ضد أى اعتداء وجعل بحر الخزر بحراً
حرا لها وبذلك أضحت العلاقة بين
الدولتين وثيقة جدا لكن العلاقة ضعفت
قليلا لما حاولت الروسيا بلشفة فارس
وكانت على وشك الزحف لولا أنها
خشيت انجلترا من الجنوب وكان الفرس
مهرة فى انتهاز الفرس وأتاحت لهم الظروف قائدا عظيما مخلصا (هو
رضاخان) من عائلة متوسطة حارب مع الروس وأحبه جنوده فزحف
بهم على طهران سنة ١٩٢١ وأصبح القائد العام ووزير الحربية وفى اكتوبر
١٩٢٣ اضحى رئيس الوزراء ثم اعتلى العرش فشابه مصطفى كمال فى أنه رجل
سياسة ورجل سيف معا وهو محب للنظم الاوروبية لكن يظهر انه كان

أحكم من مصطفى كمال لانه أدخل اصلاحاته دون أن يغضب رجال الدين ووجه أول اهتمامه لاصلاح الجيش فأعد جيشا محترما من أربعين ألف مقاتل وبينا السلطان احمد شاه يتريض فى الرفييرا كعادته قام رضاخان وكاد ينتخب رئيس المجلس لكنه قال بأن النظام الجمهورى يتنافى مع أصول الدين الاسلامى فتوج ملكا سنة ١٩٢٥ وأجلس على عرش المغوليين فى قصر جولستان وكان قد اغتصبه نادر شاه من الهند قديما ثم عدل الدستور وتم ذلك دون اراقة قطرة دم واحدة،وأخذ توا فى اعادة النظام وأصلح الضرائب والمالية بمعاونة بعض الاجانب من أصدقائه وفى ١٩٢٨ فتح البنك الملى (الاهلى) ووطد علاقاته السلمية مع جيرانه وفى ١٩٣٢ اصبحت بلاده عضوا فى عصبة الأمم وطالبت بما يأتى : (١) الغاء اتفاق الروس والانجليز سنة ١٩٠٧ والغــاء المحاكم القنصلية والحرس القنصلى (٢) تعويض عن المناطق التى خربت خلال الحرب وألغاء المنح المالية لتستقل البلاد ماليا (٣) تثبيت الحدود الفارسية . لكن الانجليز اشترطوا ان تتعاون فارس مع انجلترا وأن تقبل مستشارين منهم ومدربين للجيش الفارسى فكان رد الشاه على ذلك الرفض فى أباء والتهديد بالحرب، فكأنهم اعتمدوا على نفوسهم وأزاحوا الكابوس الاجنبى والغوا الامتيازات التى كانت تفت فى عضدهم وأضحى بغضهم للاجانب شديدا وبخاصة الانجليز . والشاه والشعب الفارسى يتصرفون فى كل ماله علاقة بالاجانب فى شدة وصرامة لا تقبل هوادة . بلغنى أنه حدث مرة أن احدالالمان زار طهران ولما عاد



لايخلو بيت من أحواض الماء فى فارس ويرى هذا الحوض وسط سوق طهران والرجل يغتسل فيه

لبلاده كتب نقدا لفارس عموما ولاستبداد الشاه خصوصا وكانت الكتابة ماسة بكرامة البلاد فعرض سفير الفرس فى برلين الأمر على القضاء فحكم ببراءة الكاتب وبمجرد وصول الخبر لمسامع الشاه أصدر أمرا بالاستغناء عن جميع الموظفين من الالمان فى بلاد فارس كلها - وقد كان جل الخبراء الاجانب الذين تستعين فارس بخبرتهم من الالمان والفرنسيين - فكانت تلك مباغتة قاسية عاد الالمان يصلحون مركزهم بعدها من جديد وقد لاقانى عالم ألمانى فى مشهد (الدكتورباسوفتس) وهو ممن يقومون هناك بأصلاح ذات البين وارجاع المركز الالمانى لما كان عليه لدى الشاه . تصرف حازم يدل على مبلغ احترام القوم لأنفسهم والمحافظة على قوميتهم

دهشت كيف تكون بلاد متأخرة كهذه نحن نفوقها فى التقدم بخطى واسعة قد تحررت من الامتيازات الاجنبية ونحن نرسف فى أغلالها ؟ أليس الامر مجرد جرأة فى الاقدام على الغائها فى غير تردد فنحفظ بذلك كرامتنا وندل على أنا شعب جدير بالاحترام ؟

بعد أن اطمأن لالغاء الامتيازات وعدم تدخل الاجنبى بدأ بأصلاحاته الداخلية فمن الوجهة المالية اتخذ الذهب معيارا للنقود بعد أن كانت الفضة من قبل وجعل التجارة الخارجية احتكارا حكوميا ليقاوم زيادة الواردات ومنع دخول الفضة بتاتا وعدل الضرائب فبلغ الدخل خمسة ملايين جنيه يضاف اليه ضريبة السكر والشاى وهى حول مليون جنيه وضريبة الطرق حول ستمائة الف جنيه وضريبة البترول وهى ١١٥١٩٧٩ جنيها . وقد نفذت ضريبة الدخل ـ ولا نستطيعها نحن خوفا من الاجانب ـ منذ أبريل سنة ١٩٣٠ وتشمل ٣ ٪ من أرباح الشركات وبين ١ و ٣ ٪ ممن زاد دخلهم على ٥٠٠ تومان (والتومان اثنى عشر قرشا) والجمارك أهم موارد الدخل العام وهو ينفق على الجيش ٤٤ ٪ من مجموع الدخل

ولقد بدأ اصلاح الجيش بمعاونة مدربين من السويد وفى سنة ١٩٢٦ جعل التجنيد اجباريا فخريجو الجامعة لابد أن يخدموا فى الجيش سنة واحدة وطلبة المدارس الثانوية سنة ونصفا ومن يعولون أسرة يخدمون أربعة شهور ونصفا ويشرف على وزارة الحربية الشاه نفسه ومجموع الجيش

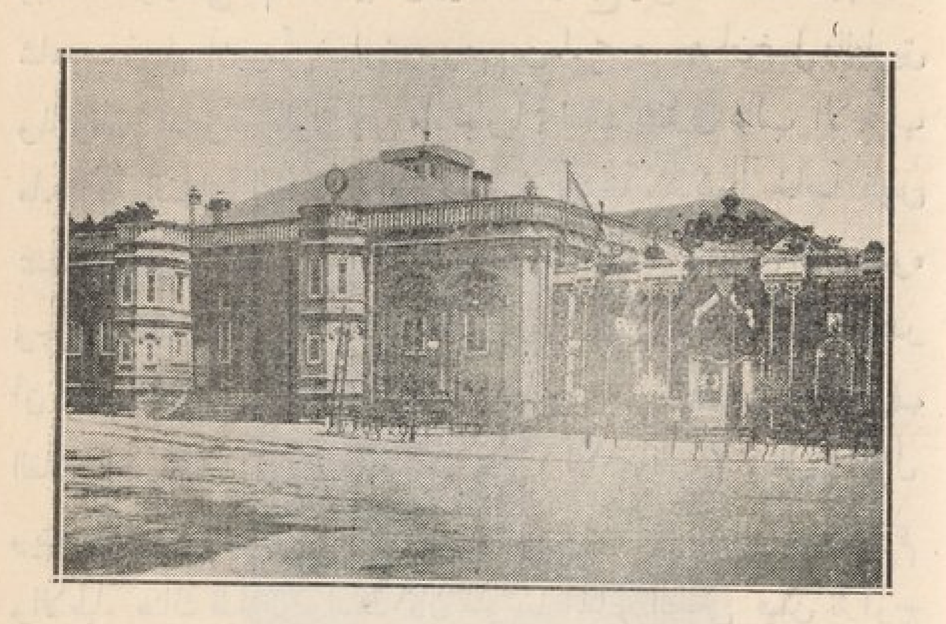


بعض الاحياء القديمة فى طهران

النظامى اليوم كامل العدد ثمانون الفا ويحاولون ابلاغه مائة الف وفى طهران مدرستان حربيتان يدخلها الحاصلون على الشهادة الثانوية فضلا عن البعوث الحربية الكثيرة الى المانيا وفرنسا وقد بدأ نواة الاسطول البحرى والجوى والحربية غير مسئولة أمام البرلمان بل أمام الشاه وحده

أما فى التعليم فقد عمم المدارس القروية ومدتها أربع سنين ومدارس المدن مدتها ست ثم المدارس الثانوية ست اخرى وبعدها المدارس العليا وهو يحاول جعل التعليم اجباريا وأهم ما يرمى اليه التعليم هناك الاعتزاز بالوحدة القومية وتمجيد ماضى البلاد وتثقيف العقل والجسم والتربية الدينية

ويعنى الشاه اليوم بالطرق العناية كلها . حقا شهر الفرس بذلك من زمان بعيد حتى قيل أنهم أول الامم فتحا لها فقد عبدوها منذ سنة ١٧٠٠ ق.م وكنا نشاهد بعض أطلال من القناطر والجسور القديمة لا تزال باقية ولقد كانت شهرتهم تفوق فى الطرق شهرة الروم ولقد كان النقل الى الحرب الكبرى بالدواب لكن تدخل الانجليز والروس ساعد على العناية بالطرق وربطت أطراف البلاد بالسيارات كذلك شجعت الظروف الحربية أقامة المطارات وقد تسلمها الفرس اليوم وبفضل العناية بالطرق زاد نفوذ الحكومة المركزية ورخصت أجور نقل السلع التجارية وخفت ويلات المجاعات وقد أمن الشاه تلك الطرق بأقامة المخافر على امتدادها فى فترات قصيرة وحتى وسط الجبال المقفرة التى لايقطنها أحد الى ذلك الاكثار من (المسافرخانات) أو (كرافان سراى) فى كل مكان ومن أول ما يشغل اهتمام الشاه السكة الحديدية التى يفكر فى نشرها جديا وقد بدأ العمل فى وصل البحرين: الخزر والخليج الفارسى بخط حديدى لكى تستقل البلاد عن جاراتها فى أمور النقل والتجارة وهو ماض فى مدها رغم كثرة الصعوبات التى تواجههم كرداءة الثغور فى البحرين وكثرة الجبال فبين طهران وبحر الخزر ما لا يقل عن ٢٥ ميلا من الانفاق لذلك ستكلفهم السكة غاليا ويرى البعض أنه يفضل مد الخط بين طهران وبغداد ولم يقبل الشاه أن يعرض الامر على شركات أجنبية بل يعتمد فى النفقات على ضرائب سكر والشاى التى تزيد وحدها على مليون جنيه كل عام ويخال بعض



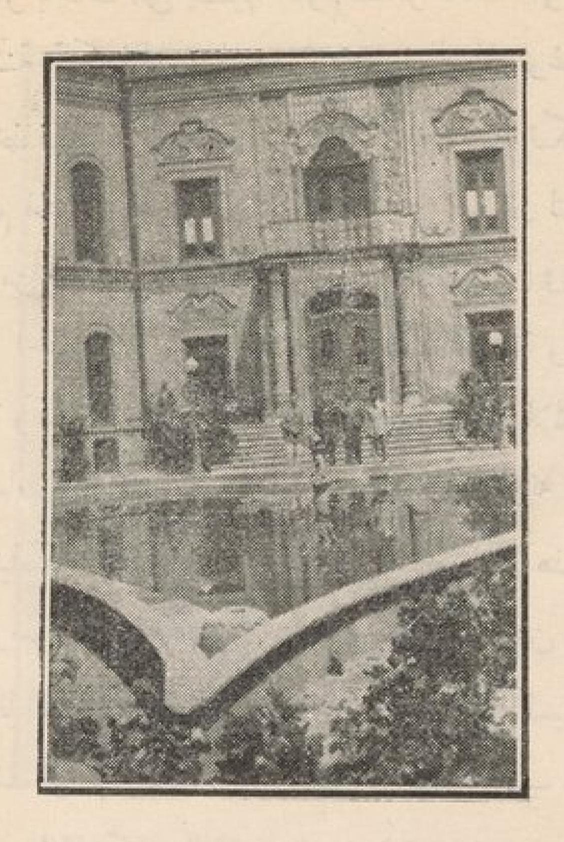
دار البرلمان فى طهران

الاقتصاديين أن فى ذلك خطرا على ثروة البلاد وتعطيلا لاموالها التى هى فى حاجة اليها فى أمور أخرى على أن ما قاسوه من عبء التدخل الاجنبى الممقوت جعله ينأى ما استطاع عنهم وعن رؤوس اموالهم

على أن البلاد ينقصها الشىء الكثير من ذلك الشئون الصحية والعناية بها فمياه الشرب مثلا من المشكلات هناك حتى فى طهران نفسها فهم اعتادوا من زمان بعيد أن يتعقبوا منابع العيون ويخضعوها لحفائر تسير منها سراديب الى أحواض تختزن فيها وكلما طغت سال الماء الزائد الى المجارى التى تسق البلدان وتراها تجرى على جوانب الطرق مكشوفة لكل عابث فترى هذا يغتسل

وبعده آخر يستق ثم ثالث يبصق ويتمخط ورابع يلقى بالماء القذر فيها وقد شاهدت فى طهران قوماً يغسلون وجوههم من ماء يجرى بعد أن غسل به الطريق ولما وقفت مدهوشا قالوا أليس ماء جاريا ؟ لذلك يشترى غالب الاجانب ماءهم من السفارة الانجليزية التى أقامت لها مضخة ومرشحا خاصاً فليس بمستغرب اذن أنك ترى الامراض منتشرة وبخاصة الجدرى الذى يشوه وجوه الكثير وتشويه العيون والقرع منتشر حتى بين الطبقة المثقفة فيندر أن ترى رجلا من الطبقات الفقيرة سليم الرأس ويزيد ذلك سوء عدم صرف القاذورات فكثير من بيوتهم تخلو من (الادبخانات) وغالبهم يبول ويتغوط فى الخلوات ويغتسلون على مجارى المياه التى يستمد منها غيرهم والاطباء هناك قليلون ولذلك كان متوسط المتاع الصحى فيمن تتراوح سنهم بين ٢٥ و ٥٠ سنة أقل من نظرائهم فى البلدان الراقية بعشرة أضعاف

الى خراسان : اعتزمت القيام الى أرض خراسان حيث مقر الامام الرضى أحد أئمة الشيعة وابن الامام موسى الكاظم فى بغداد وضريحه فى مشهد ثانية مدن فارس وأولى البلاد المقدسة فهى كعبتهم تبعد عن طهران مسافة نائية هى فوق مائة وستين فرسخا والفرسخ وهو وحدة قياس المسافات عندهم نحو ستة كيلومترات أعنى نحو ألف كيلومتر أو يزيد كان القوم يقطعونها على متون الابل والبغال والحمير فيما بين اربعين يوما وستين وهى بالسيارات اليوم بين يومين وثلاثة . أخذت مكانا أماميا فى سيارة كبيرة من ذات العجل المزدوج برفقة ركب من الحجاج يناهز الخمسة

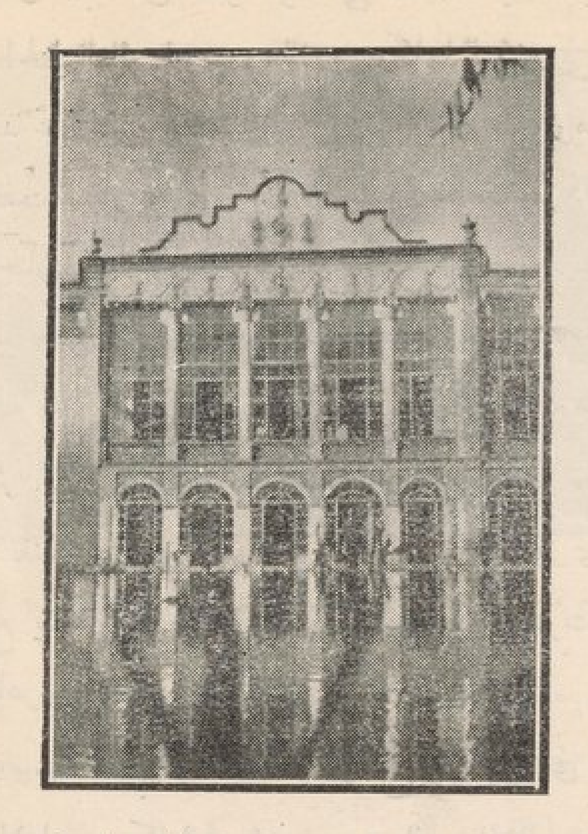


دار المفوضية المصرية العامرة فى طهران

والعشرين عدا بين نساء ورجال وشيوخ وشبان وبدأنا السير ليلا وكلهم أيمان صادق لا يبتغون من وراء كلفهم تلك ونصبهم هذا الا زيارة قبر الامام ومعهم زادهم أما أنا فكنت أعتمد على المحاط وما فيها من وسائل ساذجة للنوم والطعام . وبين آونة وأخرى كان يصيح الجمع فى ابتهال قائلين (لاهم سل ألى مهمد آلى مهماد)

وأخذنا نمر بالمحاط التى يسميها القوم مسافرخانات أو كرفان سراى وهناك نجد أمكنة تحكى الخان بها حجرات فقيرة الاثاث وغذاء بسيط كنا نتزود منه ونأخذ قسطا من الراحة ثم نستأنف السير . ولم تكن تقوى القوم لتنسيهم ملاذهم فقد كان الفريق الاكبر منهم يحمل الغلايين لتدخين الافيون فينتحون جانبا من المكان ويمر الغليون عليهم جميعا وكان فى جوارى الى جانب السائق أحد علماء كربلاء بعامته السوداء الضخمة ولحيته المرسلة وسحنته الناحلة وكان يتيه على الآخرين بعلمه وبأنه من سلالة هاشمية ومن نسل العلم والعلماء ولأولئك على الناس حق العطاء ويسمونه (حق الخمس) يقصدون الاغنياء كلما أعوزهم المال ليأخذوا منهم حقهم هذا لأنهم من السادة سلالة الرسول ولما علم الشيخ بأنى سائح سأكتب عن رحلتى قال لى أكتب عنى (أنا العلامة حجة الاسلام وفخر الملة والدين السيد .....) على أنى لما تحدثت اليه لم أجد من علمه ما يؤيد تلك الالقاب الا أنه رجل طيب القلب وديع الخلق كريم الطبع

جد السائق فى السير على ضوء القمر وقبس مصباحه فخانه نظره وما نشعر الا والسيارة تنحدر بنا عن الطريق وتنزل هوة من دونها وادى سحيق فكادت تنخلع لرجاتها قلوبنا وصاح الجميع وارتطم هذا بذاك وذاك بجانب من السيارة ثم كانت صدمة عنيفة وفرقعة أصمت آذاننا واذا هى صخرة كبيرة ناتئة فى منحدر الوادى توقف السيارة قبل أن تنقلب وقد أصيب من الركاب كثير ونالنى من ذلك شج بين العينين سال منه الدم سيلا



فى (لوقنطة) وهو مثل من القصور الفاخرة القديمة

وصدمة شديدة فى الركبة اليمنى أحدثت بها كسرا لا أزال أعانى منه فقفزت من السيارة ونمت على الصخر تائها حتى الصباح حين رأيت العجلة قد كسرت من أساسها ولولا لطف الله لكنا اليوم فى عالم غير الذى نحن فيه . أمضينا يوما كاملا فى تلك البرية المقفرة ولم يكن لدى زاد ولا قوت فتبلغت بكسرة أعارنيها أحد الحجاج حتى عاد السائق ومعه بديل عما كسر وكان تدرجع الى طهران ثم عاد الينا وأصلح ما أفسدت غفلته واستأنفنا سيرنا حامدين

شاكرين الله أن أنجانا من خطر الموت فى تلك الناحية النائية وكم من سيارة خانها الحظ العاثر فهوت وهلك من ركابها الكثير فى تلك الطرق الوعرة . ولقد عزا القوم سلامتنا الى رضى الامام عنا ، وما كدنا نسير بعيدا حتى وقفت السيارة فجاءة وتبين أن البنزين قد نفد ولم يكن لدينا منه شىء فلبثنا مكاننا حيارى ساخطين جزعين أربع ساعات حتى مرت بنا سيارة أخرى اعارتنا بعض البنزين والسيارات الكبيرة تمر تباعا ذهابا ورجعة فى كثرة هائلة كلها تحمل جماهير الحجاج ويقولون بأن هذا الخط على وعورته أكثر البلاد حركة فى نقل المسافرين لان مشهد خير لديهم من مكة المكرمة تغنيهم عن حج بيت الله الحرام فى زعمهم فترى الغانى منهم والفقير المدقع يدخر أجر السفر ليصل اليها ويود لو يموت بها ليدفن فى أرضها الطاهرة .

لبثنا نسير وسط الربى وصعدنا ما هو بالغ الوعورة فى طرق ليانها المتعاقبة من الاعاجيب وكلها مجدبة عريت عن النبت الا فى بعض بطون من الاودية حيث كنا نرى سيلا من الماء يتلوى وتقوم القرى على جوانبه بأبنيتها الوطيئة من الطوب واللبن وبعد يوم ونصف دخلنا سهولا غالبها صحراوى وتلك بداءة أرض خراسان التى بدت أكثر جدبا من سابقاتها ومن البلدان الكبيرة التى مررنا بها (سمنان ودمغان وشاروت وسابزوار) ثم نيسابور وكلها كمراكز الصعيد عندنا حولها تكثر البساتين والمزارع وعجبت لانى رأيت القطن يزرع هناك بكثرة ويؤتى محصولا لا بأس به

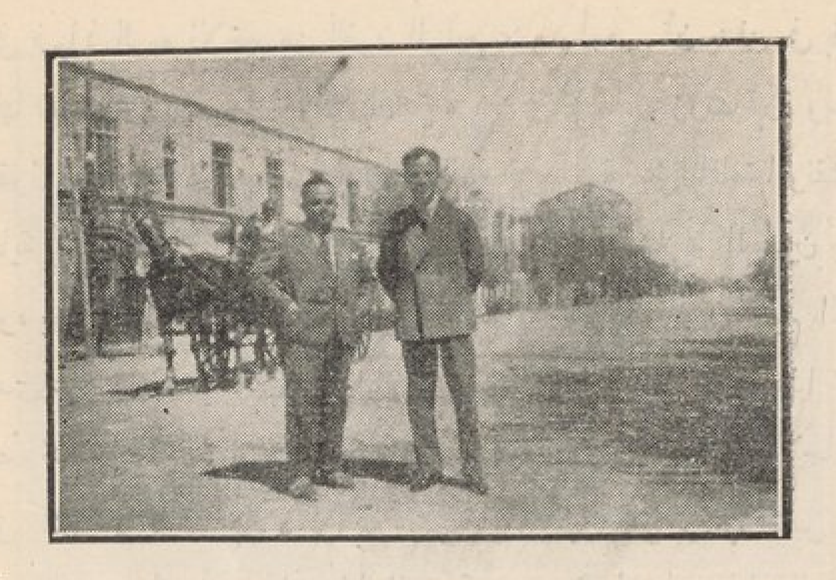


نستريح قليلا فى أحدى (المسافرخانات) التى تنتشر فى غالب طرق العجم

وقد أقاموا له بعض المصانع التى تستهلك غالب الخام وقد بلغنى أن ثمنه قد انتعش وأنا هناك فبلغ ١٢٠ قرشا للقنطار بعد أن هبط هبوطا مخيفا وزراعة الحبوب خصوصا القمح والشعير منتشرة فى كثير من بلاد فارس خصوصا خراسان وقد يزيد المحصول على حاجة الناس لكن رداءة طرق المواصلات وغلوها توقف تصديره وتجعله كثيرا رخيصا فى بلد وشحيحا غالياً فى مكان آخر أهله يتضورون جوعا لذلك اضطرت الحكومة أن تحتكر الحبوب فى بعض الجهات وهى تتقاضى ضرائب الارض حبوبا فى بعض الاحيان وبذلك حفظت أثمان الحبوب عند حدها المعقول وقاومت المجاعات التى كانت تفتك بالناس من قبل فتكا ذريعا وقد أقامت مخازن للقمح فى البلدان الكبيرة لمقاومة

ذلك والعادة أن الناس هناك يأكلون خبز القمح ممزوجا بالشعير أما فى مناطق الشمال على مقربة من بحر الخزر فالارز عمادهم ومن النبات الكثير النمو هناك الطباق والفاكهة والتوت لتربية دود القز ويزرع قصب السكر حول بحر الخزر والبنجر فى جهات عدة فالزراعة الآن هى عماد البلاد والصناعة فى بدئها وتحاول الحكومة رغم فقرها أقامتها مقتفية أثر اليابان فى ذلك خصوصا مصانع النسيج وتجفيف الفاكهة والسكر ولا يزرع من أراضى العجم أكثر من عشرها فقط وفوق نصف المساحة كلها لا يصلح حتى للمراعى الفقيرة اذا فرضنا أن رأس الغنم يحتاج الى ثلاثة أفدنة فقط أما الاغنام ذوات الذنب المنتفخ الغليظ الذى يزيد وزن الواحد على ثمانية عشر رطلا أواخر الربيع فيلزم للرأس منها عشرة افدنة فى العام ومع ذلك ترى الاذناب ضامرة جدا فى فصل الشتاء وكنا نرى من هذه الكثير فى سيرنا والرعاة ربع سكان العجم وهم طبقة مغيرة يخشى بأسها وبخاصة اهل خراسان ومثلهم مع المزارعين مثل الذئاب مع الحملان والاراضى غالبها فى ملكية طائفة قليلة من الملاك لكنهم يحسنون معاملة المستأجرين لقلة الايدى العاملة والملاك هم الذين يقدمون الماء والبذور ويدفعون الضرائب مقابل استيلائهم على نصف المحصول والزراعة على قلتها عماد ثروة البلاد رغم أن المزارع يغالب الطبيعة القاسية

قطر البلاد نادر وثلجها لا يسقط الا فى الشتاء والربيع وبفضله امكن الزرع ولما كان المطر غير ثابت أثر على الينابيع والمجارى فى الجهات الخصبة لذلك



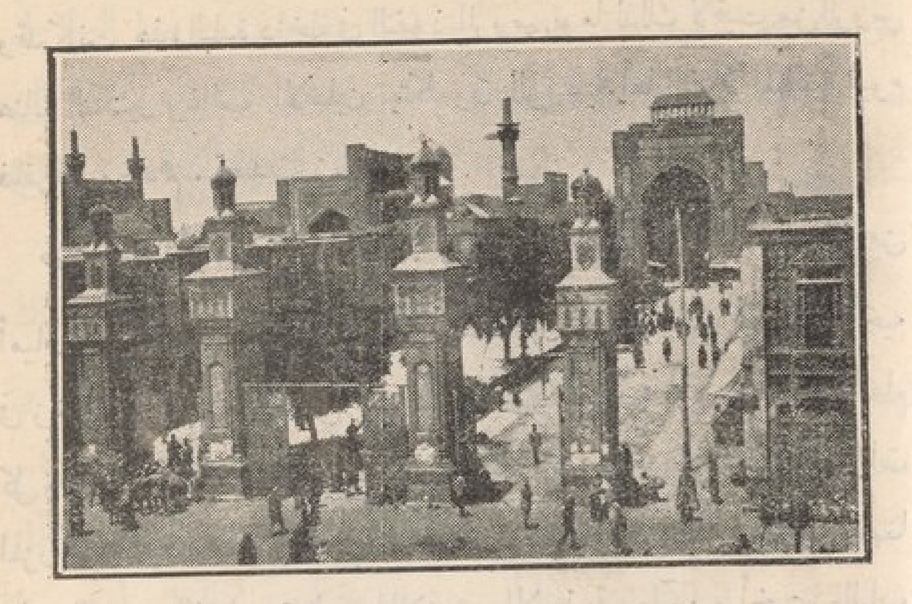
فى خيابان بهلوى اكبر شوارع مشهد الى جوار صديق السورى

لا تكاد تزرع الاراضى الصالحة الا مرة كل خمس سنين فى المتوسط ويخال البعض ان طريقة الزراعة (البعلى) تفيدهم كثيرا لو لجأوا الى استخدامها

وحالة الفلاح هناك لا بأس بها يسكن بيوتا من الطين وغذاؤه القمح والجبن واللبن الحامض ويسمونه (دوك) وفى الصيف يستهلك قدرا كبيرا من الفاكهة والخضر أما اللحم فمرة كل أسبوع فى الشتاء فقط . وأحسن الطبقات حالا التجار وهم معروفون بالمكر والدهاء حتى جرى المثل قائلا : ارمنى واحد يغلب عشرة من الاغريق لكن فارسيا واحدا يلعب بعقول عشرة من الارمن

استوقفت السيارة قليلا فى نيسابور مثوى رفات (عمر خيام) الذى عاش فيها فى الربع الاخير من القرن الرابع عشر وأوصى أن يدفن فى بقعة تظلها الاشجار ويكسوها ورقها الذابل مرتين فى كل عام . زرت قبره وسط الحقول تظله حقا أدواح عالية قديمة وبجانبه قبة أنيقة عنى باقامتها ونقشها العناية كلها فخلتها له واذا هى مدفن محمد المحروق من سلالة الحسين وقد أسموه بالمحروق لأنه نزل ضيفا على أحد سراة القرية ولما أن خيم الليل اعتدى على بنت مضيفه فأحرقه الناس فى مكانه هذا ورغم جرمه هذا شيد قبره وقدسه الناس لانه من سلالة طاهرة ! ويزور الخيام من الاجانب خلق كثير لأنه قد خلد ذكرا بما كتب فى رباعياته التى ترجمها الناس الى جميع اللغات ولقد أبى عليه علماء الدين تشييد مدفنه لاتهامهم اياه بالزندقة لانه كان إباحيا فى شعره والحكومة تنتوى اقامة بنيان يليق بمقامه لكنها لا تزال تخشى غضب رجال الدين . عادت الربى فتسلقناها ثم اشرفنا على مشهد وهى فى حجر الجبال بعد ان لبثنا فى الطريق ثلاثة أيام وأربع ليال كاملات قاسينا خلالها كثيرا . هنا وقف السائق ونبه القوم أن هاهى مشهد فارقبوها تبركا فأخذوا يحاولون رؤية القبة وسط الضباب والدخان المنبث وكل من لمح منها قبسا قرأ آيات التبريك وعمد الى قطع الاحجار يجعلها فى كومه ثم أقبل على السائق يهبه من أنعامه ما تيسر

مشهد مقدس : (طوس قديما) دخلنا مشهد تحفها المزارع والبساتين وهى فى منطقة غنية بالفاكهة وبخاصة العنب ويسمى (أنجور) والخوخ واستوقفنا



المدخل الرئيسى للحرم الشريف فى مشهد

البوليس لفحص الجوازات وقد تكرر ذلك فى الطريق اكثر من عشر مرات ثم أخذنا نخترق طرقاً فسيحة يحفها الشجر وتقوم عليها المبانى الحديثة الوطيئة وقد كانت من قبل أزقة مختنقة كسائر بلاد فارس لكن يد الاصلاح تناولتها اليوم على نحو ما فعلت فى طهران وقد حللت نزل(مهمانخانة ملى) وهو جميل نظيف وقد استرعى نظرى بناء القنصلية البريطانية بعظيم امتداده وهو أثر من آثار النفوذ الانجليزى الذى كان يسيطر على البلاد حتى قال القوم بأنه حدث مرة أن حاول بعض الناس ان يعلو

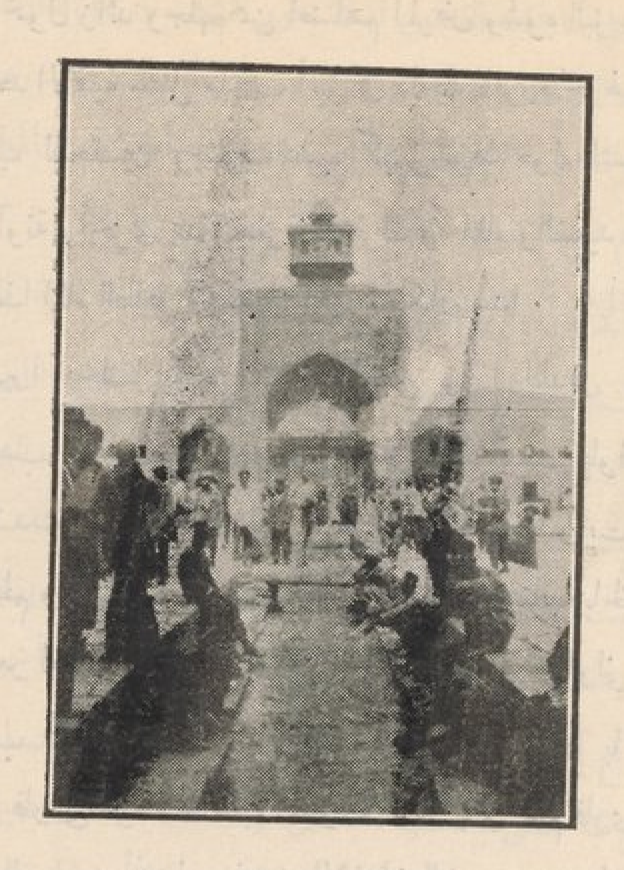
ولد بها الغزالى والفردوسى صاحب الشاهنامة

جناء بيته الملاصق لها فمنعه القنصل اذ لا يجوز كشف حرمة الدار الانجليزية
وقد كانت هذه البلدة داخلة فى النفوذ الروسى يوما لذلك لاقيت من الروس
هناك الكثير وغالب الاهلين يتكلمون الروسية أما النفوذ المطلق اليوم
فللفرس وحدهم . قصدت زيارة :

ضريح الامام الرضى : الذى بدت لنا قبته الذهبية البراقة من
أميال واذا المسجد والحرم فاخر الى حد كبير مداخله عدة الباب تلو أخيه
فى زخرف جذاب وفن شرقى بديع بالقيشانى والبلور والمرمر والرخام وأمام
كل واجهة رئيسية - وهى أربع - بهو (أو صحن) مربع تحفه الحجرات
المزركشة أقيمت لطلاب العلم فى طابقين وتتوسطه قناة الماء يغترف منها
الجميع للشرب والغسل وتنظيف الملابس والاحذية ومآرب أخرى والباب
الرئيسى للضريح يكسى كله بالذهب الخالص فى فجوات وتعاريج جذابة
وفوق الضريح قبة تكسى بالذهب الخالص وللمسجد مئذنتان دقيقتان عليهما
غشاء من ذهب الى ذروتيهما أماعن العالم المتراص كالموج المرتطم هنا وهناك
فحدث فى دهشة فائقة . كنت أسير ولا أكاد أشق لى طريقا بينهم ومنهم
المثقف أنيق الهندام والمتسول البائس فى الخرق البالية والاقذار التى يشع
منها الوخم وينبعث منها مكروب المرض فيوشك أن يخترق أجسادنا .
هذا الى العلماء فى عباءاتهم وعمائمهم السوداء للشرفاء منهم والبيضاء لغير
الشرفاء يخضبون لحاهم المرسلة بالحناء ومن زوار الاجانب خلق كثير عراقيون
وهنود وافغان ومن كافة العالم الاسلامى والى جوانب الجدران كلها يرتمى

الكثير فى خمول زائد وجلهم ممن أضناهم المرض وشوه البؤس أجسادهم ويتوسط أحد الافنية سبيل مذهب أنيق فى داخله نافورة حولها السلاسل تحمل العقاب للمحتسين ويشرف عليهم كهل توقد حوله الشموع صباح مساء وبين آونة وأخرى يمد (مغرفة) يحرك بها الماء والسعيد من استطاع أن يتذوق هذا الماء الطاهر ويسد الجماهير المكان سدا .

أخـيرا دخلنا باب الضريح الفضى واذا المدفن وسط شباك الفضة والذهب ترصـعه الجواهر الثمينة وقد أتممت طوافى حوله فى ثلث ساعة كدت اختنق خلالها من كثرة الزحام وهنا رأيت عجبا نواح وصياح ولطم وتقبيل واستلقاء على الارض ولمس للاعتاب بالخدود وما ألى ذلك مما تقشعر له الابدان . هنا أسرع شيخ يطوف بى وناولنى أدعيـة مطبوعة يجب أن أقرأها وأركع واسجد وأقبل فاسرعت بالتخلص منه بفضل زميل فارسى عرفته نخاطب المطوف قائلا بانى عالم قارىء خبير بكل أولئك وقد علمت بعد أنى لو رفضت الاذعان للامر وحدى لظن أنى ملحد ولكانت ما لا تحمد عقباه . خرجت الى الفناء واذا فى كل ركن من أركانه عالم يرتقى منبرا وحوله خلق كثير جلوس على الارض فى وجوم وشبه ذهول وهو يقص عليهم أنباء على والحسن والحسين والاسرة الشريفة كلها وجميعهم يبكون وكلما أشار فى قوله الى الفاجعة صاحوا عالياً ولطموا جباههم وخدودهم فى فرقعة مؤلمة ومنهم الطفل و المراهق والسيدة والعجوز والكهل الفانى والمثقف والامى الجاهل وكنت أعجب لسيل دموعهم



فى داخل الحرم يشقه مجرى الماء

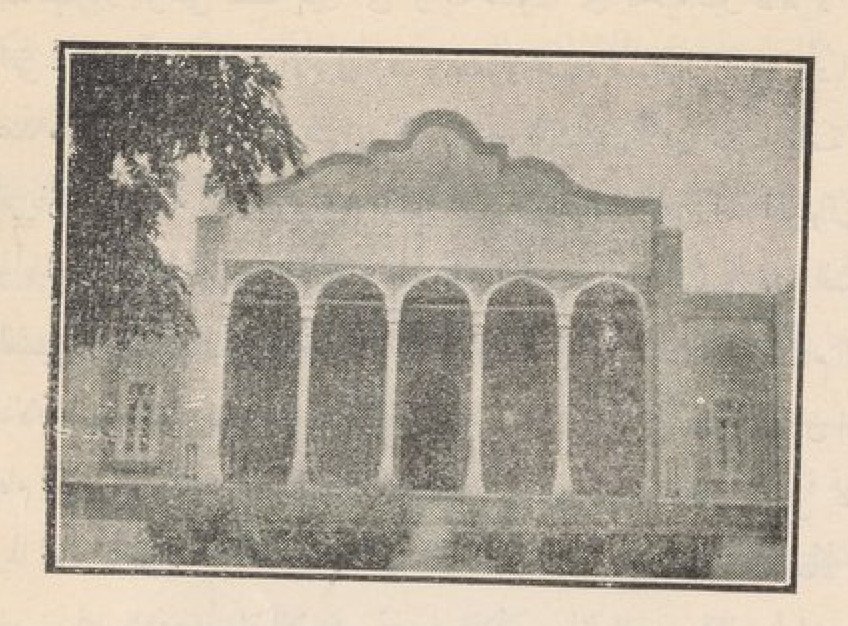
وبكائهم المر وذاك التبشير يظل طوال اليوم فى جميع أركان الافنية وما أن أوشك الغروب حتى سمعت من شرفة الباب الاوسط طبولا تقرع فى نقرات مثلثة ثم أعقبها صياح وتلا ذلك نفخات من أبواق طويلة مزعجة وظل ذلك حتى غربت الشمس فكأنهم يودعونها كما يفعل المجوس بذاك الذى يدخل الرهبة ويلقى الرعب فى القلوب وفى وقت الاذان ترى عددا كبيرا كل يصيح فى ناحية ثم تقوم الصلاة ويجلس صبية صغار على المنابر يصيحون بعبارات

التبليغ والقوم يصلون . جهل فادح واعتقاد فى الترهات والبدع ما كنت أخاله بلغ هذا الحد فكأنهم يعبدون الرضى من دون الله فمامر من الابواب فرد كائنا من كان الا واجه الضريح وانحنى وتمتم ثم قبل الباب وانصرف وهم يرمقون شذرا كل من جاز الباب من الغرباء ولم يفعل ذلك . فقلت فى نفسى أهكذا يلعب رؤساء الدين بأذهان البسطاء من أفراد الشعب لا ابتغـــاء مرضاة الله بل لملء جيوبهم هم وذراريهم الذين لا يحصيهم عد ؟ وهل خلقنا للبكاء والعويل واهاجة الشجون بتكرار أقاصيص ما أنزل الله بها من سلطان ؟ تأخر معيب وتدهور يعطى الأجنبى عن البلاد أسوأ الفكر وحتى تقضى حكمة الشاه على كل أولئك سيظل حجر عثرة فى سبيل تقدم البلاد

وبجوار المسجد مكتبة حوت مجموعة قيمة من المخطوطات فى سائر العلوم الاسلامية حتى قالوا أنها أكبر مكتبة اسلامية فى الدنيا وفيها بعض المصاحف بخط سيدنا على نفسه . وفى وسط أحد الافنية مصلى يسمونها جوهر شاه وكانت بيتا لسيدة اسمها جوهر فلما أراد الشاه اقامة المسجد رفضت أن تبيعه إياه فتركه لها وأقام مسجده حوله وبعد اتمامه اقامت هى فى مكان منزلها مصلى ولذلك سميت (جوهر شاه) ويؤدى كثير من أبواب الحرم الى أسواق مشهد المسقفة الملتوية وهى من أجمل أسواق فارس ويحرم على غير المسلمين دخولها لانها داخلة ضمن الحرم المقدس وارضه مقدسة ولمجرد الشك فى شخص غريب ينهالون عليه ضربا مبرحا وكثيرا ما مات من الغرباء لهذا السبب وكم من مرة سئلت ان كنت مسلما ومن أية ولاية جئت فكنت اجيب (بلى مسلم)

وكان بعضهم يعود فيسأل (مسلم شيعى ؟) فأعيد الجواب (بلى مسلم) وهم يمقتون السنيين مقتهم للكفار وكلما شرب أحدهم قال (لعن الله عمر وبنى أمية) اذ يكرهون اسم عمر جدا وأكثر الاسماء بينهم ذيوعا حسين ثم حسن ثم على ثم محمد . عصبية عمياء وايمان فى غير تفكير ولا تعقل . ويناهز الحجاج الى المكان سنويا الملايين وبخاصة فى شهر رجب وعربات نقل المسافرين لا تغيب عن العين ساعة واحدة

أخذت أتجول فى القسم المستحدث من المدينة وهو جميل طرقه فسيحة يجانبها الشجر وتجرى الى جوارها قنوات المـــاء وتقوم عليها المبانى الوطيئة وهناك بعض متنزهات لا بأس بتنسيقها تكتظ بالمتريضين فى كثرة هائلة ومن بينهم كثير من المبتذلات اللاتى يفقن الرجال عدا وكنت أخال ان للرضى حرمة تمنع ذلك لكن يظهر أن الحالة الاجتماعية فى فارس كلها هكذا وحتى فى النزل لا تخـــلو حجرة من الخليعات يحتسى الجميع الخمر وكانوا يدهشون لى كيف أنام فى غرفتى وحيدا وحتى فى الحرم الشريف يقصد الرجل ورفيقته الى الفقيه العالم معلنين إياه أنهما يريدان زواج المتعة (أو الصيغة) ليلة واحدة او اثنتين مقابل كذا فيقرهما ويعد الامر بعد ذلك مباحا وقد بدا لى أن غيرة الرجال على نسائهم تكاد تكون معدومة فكأنه يحل لها بعض ما يحل لنفسه والامراض السرية لا يكاد يخلو منها أحد وجل موتى الغرباء بسبب (الزهرى) وقد حاولت الحكومة جعل البغاء رسميا فى مناطق معينة لتخفف من ويلات تلك الاباحة فلم يقبـــل علماء الدين ذلك



مدفن نادر شاه فى مشهد

قصدت زيارة الحضرة يوم الجمعة فكان الزحام فوق كل تصور وحاولت دخول الضريح فلم أستطع لأن أرضه فرشت بالزائرات بحيث لم يبق موطىء قدم وكان يسير فى الطرقات كثير من المهرجانات يصيح الصبية حولها احياء ليوم الجمعة وبأيديهم الاعلام وبعد صلاة الغروب أخذ العلماء يقصون على الناس نبأ فاجعة على والحسين والجماهير حولهم عرايا الصدور يضربونها بأكفهم تارة وبسلاسل ثقيلة تارة أخرى وفق نغمات موحدة فى شكل بشع مرعب وهكذا تتحكم الشعوذة فى قلوب القوم تحكما معيبا . حاولت دخول الضريح رغم الزحام الكثيف لأرى قبر هرون الرشيد الذى علمت أنه

بجانب قبر الرضى نفسه غير أنى رأيته منبوذا فى ناحية غير ظاهرة حتى انى لم ألاحظه فى المرة الاولى وقد وضعوه بحيث يلمسه الزائرون بأدبارهم عند ما يطوفون حول الرضى وذلك احتقارا لشأنه وكثير منهم يلعنه بعد الزيارة ويرفسه برجله ووجهه مقابل للامام ويقول (لعن الله المأمون وأباه) وذلك لأنه سنى أولا ولأنه والد المأمون الذى اتهم فى دس السم فى العنب للامام ثانيا وقد سافر الرشيد الى هناك فى حملة ضد أحد الحكام الذين مالأوا بنى أمية فوافته منيته هناك فأوصى بأن يدفن فى هذا المكان الذى اقام عليه الاسكندر المقدونى علما وتنبأ بأنه سيكون مدفن رجل عظيم ولما جاء المأمون ولى الرضى حاكما على تلك البلاد من قبله ولما عاد الى بغـــداد وهزم أخاه الامين وتم له الأمر دس للرضى فمات ودفن الى جوار الرشيد

وعندمدخل المسجد مكان القصاص لمن أذنب داخل ارض الحرم والحكم لرئيس الحرم فكأنها حكومة وحدها وفى خارج الباب مضيفة يعد فيها رئيس الحرم طعام الغداء يوميا لمن طلب من الغرباء ذلك . وقد مات أحد العلماء ويسمونهم (مولاه) فكانت جنازته مهيبة وفى صباح الجمعة قام عالم يؤبنه ومن دونه الجموع المحتشدة جلوس على الارض يبكون وكانت عبارات التأبين من قصة الحسين أيضا وعلمت أنه منذ خمس سنين فقط كان اذا مات أحد العلماء وجب تعطيل مصالح الحكومة واغلاق المتاجر والبنوك ثلاثة أيام كاملة

وللأمام الرضى من الاوقاف شيء كثير فكل المبانى التى تقع فى الحى كله ملك له هذا غير الاراضى الزراعية والهدايا الثمينة التى تقدم اليه فكلما مات غنى أوقف جل ماله عليه وفى أحد أبواب المسجد فيروزة معلقة فى حجم بيض النعام يقولون بأنها لاتقوم ويقصون عنها من الخرافات ما لايقبله العقل ، فمثلا لما احتل الروس البلدة ابان الحرب الكبرى ربطوا خيولهم داخل (الصحن) وضربوا القبة بالقنابل فلم تصبها وحاولوا ضرب تلك الفــيروزة مرات فطاش سهمهم وحجر الفيروز كثير هناك ومناجمه فى قرية فيروز أباد فى جنوب شيراز وفيها جبـل جل كتلته من الفيروز على اختلاف طبقاته

والحى الذى حول الحرم كله محرم على غير المسلم تطوقه السلاسل عند مداخله وكثيرا ما كان يلجأ اليه المجرمون والقتلة والمدينون ليحتموا فيه فترفع عنهم العقوبة ما داموا داخله

والذى شجع الفرس على اتخاذ مشهد كعبة مقدسة الشاه عباس اكبر الصفويين هناك وعاش أوائل القرن السابع عشر وكان عصره ثالث العصور الذهبية فى تاريخ فارس كله. صرف قومه عن زيارة مكة المكرمة لكراهتهم للعرب ولكى يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من أموال طائلة فى بلاد يكرهونها وكثير من الحجاج كانوا من السراة . فاتخذ مشهد كعبة وجه اليها الشعب ولكى يزيدها قدسية حج اليها بنفسه ماشيا على قدميه مسافة تفوق ١٢٠٠ كيلومتر فتحول اليها الناس جميعا ويندر من يزور الحجاز اليوم



الموسيقيات المتجولات (والتارة) احب الآلات الموسيقية عندهم

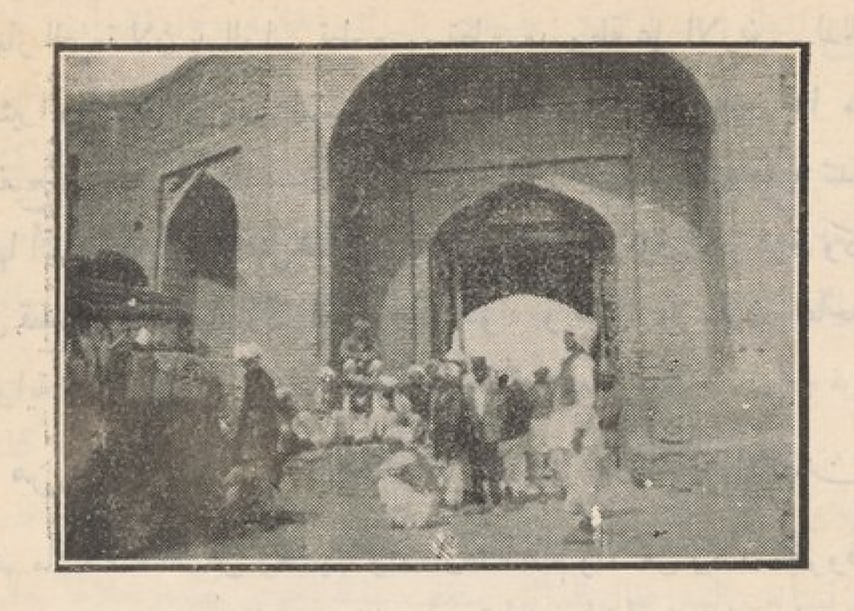
وهم يحترمون كلمة (مشهدى) عن كلمة (حجى) لان من زار مشهد لا شك أكثر قدسية واحتراما ممن زار مكة ! وكم كنت أسمعهم ينادون بعضهم باسم (مشهدى فلان) حتى فى مشهد نفسها

وقد لاحظت من بائسى الروس هناك عددا كبيرا رجالا ونساء وأطفالا

وكلما دخلت (النظمية) مقر البوليس وجدت مهاجرين منهم وافدين من بلادهم هروبا مما يقاسونه من مضض الجوع والبؤس وأنت ترى الفتيات يجلسن على جوانب الطرق تفرش كل منديلا أمامها لتستجدى المارة وكثير من الفـــرس يتزوج من الروسيات وغالب خدام النزل منهم . وقد زرت مدفن (نادر شاه) الذى مد نفوذ بلاده وفتح الهند وأخذ من الاسلاب القيمة شيئا كثيرا من بينها عرش الطاووس الذى لا يزال يعرض فى قصر جولستان فى طهران وعليه توج الشاه الحالى والمدفن يقوم وسط حديقة فسيحة تحوطها الاسوار العالية وتكاد تكسوها الادواح الكبيرة. وملاهى القوم قاصرة على المقاهى ودور السينما أما الراديو والتمثيل والمراقص فنادرة وموسيقاهم شرقية بحتة وهى أقل تشذيبا من الموسيقى التركية وأحب الغناء ما كان صيحات أشبه بأغنية الفلاح المصرى وهو يسقى زرعه بالعود فى صعيد مصر وغالب الانغام من (نغمة العجم) مما يؤيد أن هذه البلاد هى أصل تلك النغمة وأحب الآلات الموسيقية لديهم عود يسمونه (تاره) ذوأربعة أوتار مزدوجة من السلك الرفيع ولا تشد عاليا ورقبته بالغة الطول وهى مقسمة بأربطة وبطن العود (القصعة) دقيقة الوسط منتفخة الجانبين وهى أصغر من (قصعة) عودنا ونغمته مطربة بين (المندلين) و (الطنبور) والدف والناى مستعملان بكثرة والكمان على قلته

وحساب الايام عندهم شمسى يقسمون السنة الى اثنى عشر شهرا كل شهر من الستة الاولى واحد وثلاثون يوما ومن الثانية ثلاثون وعامهم

هذا هو سنة ١٣١٢ وبدؤة الهجرة النبوية على أنه أفترق نحو أربعين عاما
بسبب زيادة أيام السنة القمرية وأسماء الشهور متفقة مع البروج الفلكية
(الحمل والثور والجوزاء الخ) بأسمائها الفارسية التى ترجمت عنها الى العربية
ويكتبون برج كذا بدل شهر كذا وهم يحتفلون بأول السنة وهو أول يوم
فى الربيع ويسمونه النيروز (نو معناها جديد و روز يوم) وفيه تعطل
الاعمال ومصالح الدولة أسبوعا ويظل الاحتفال فى البلاد نحو عشرين يوما
ويرعاه المسلمون والزردشتيون ويرجعونه الى عهد جمشيد الاكبر الذى حكم
قبل الطوفان ويقولون عن هـــذا الملك أنه عاش سبعمائة عام وفى السنة
الاخيرة من عمره بلغ قوة الآلهة فأرسل صورا منه ونصبا له فى جميع الجهات
ليعبدها القوم وفى العيد يلبس الناس زينتهم ويروون قصص زهراب ورستم
وكوش على مسمع من الاطفال . أما شهرا محرم وصفر فايام حداد لايدار
فيها لهو ولاموسيقى ويحيون لياليها بجلسات الحداد يستمعون لقصص على
والحسين وهم يبكون وغالب البيوت تراعى ذلك ليلة الجمعة من كل أسبوع
حتى فى غير هذين الشهرين وفى يوم عاشوراء (العاشر من محرم) تقام
حفلات فى البلاد كلها لمأساة الحسين فتقرع الطبول وترفع المشاعل ويسير
الجماهير ويضربون صدورهم وجباهم بالسيوف والسلاسل واذا سار الموكب
جىء ببعض الخيل وألبست أردية بيضاء وجواد الحسين عليه ثوب خضب
بالدماء تخترقه السهام ومن خلفه الحسين والعباس وباقى أفراد العائلة المقدسة
على الخيل فى كامل أسلحتهم ومن ورائهم الناس فى أردية خضراء ويلى
ذلك هودج يمثل حجرة الزواج لقاسم الذى كان زفافه ليلة الفاجعة وكان



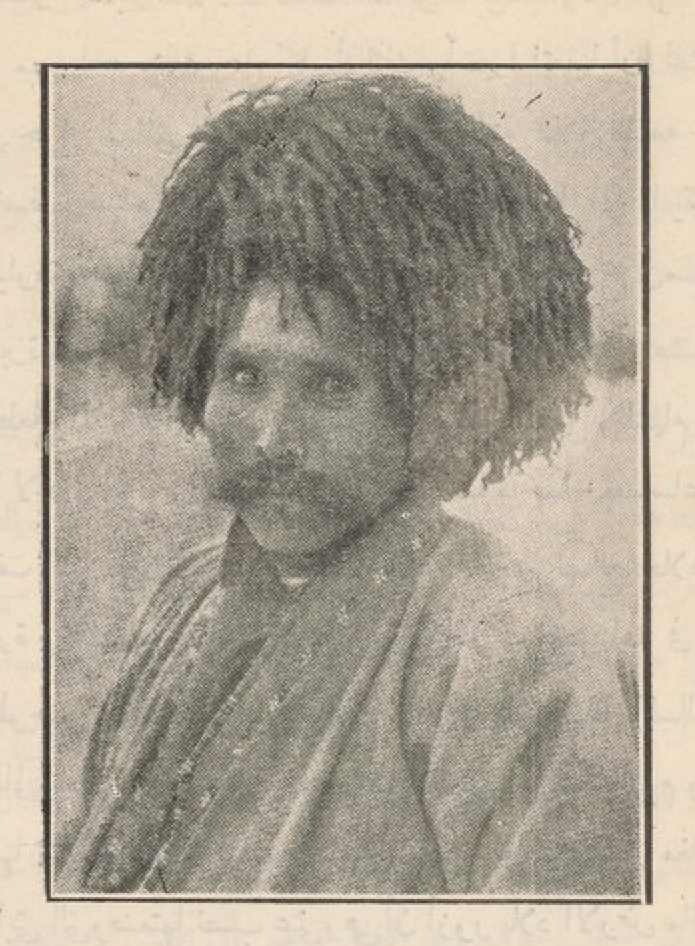
كبار الحكام فى (أسلام قلعة) يشرفون على تفتيش متاعنا على حدود أفغانستان

عبد الله رضيعا لذلك يحمل فى مهده وحوله أطفال يركبون الخيل وبعد ذلك جماهير حملة السيوف والسلاسل ثم من ورائهم (شمر) اللعين الذى قتل الحسين ومعه أتباعه فى أردية حمراء وتنتهى الحفلة بتمثيل موقعة كربلاء والقتال بين الفريقين ثم تحمل جثة الحسين والعباس وعبد الله وغيرهم وأيديهم وأرجلهم مطلة من ثيابهم تقطر دما وترفرف على جثة الحسين حمامتان مخضبتان بدم وتقول خرافاتهم ان الحمام هوى على جثة الحسين يبكى فتخضبت أرجله بالدم ولبس الحداد فى رقابه ولذلك نرى أرجل الحمام حمراء ورقابه يطوقها السواد والى جانب الجثة تسير فتاة تمثل بنت الحسين وقد نفشت شعرها ولطخته بالعشب والوحل وكثير من المشيعين يحملون يدا مبسوطة هى

شعار الشيعة لان يد العباس قطعت وسقطت مبسوطة على الارض - لذلك كثيرا ما كنت أرى من المتسولين المشعوذين فى فارس يحملون يدا من صفيح على عصى طويلة يستجدون بها - ويحمل رجل عصى من حديد تتدلى منها أشرطة من قماش تمثل لسان (شمر اللعين) وقد مزق كل ممزق وكل من قطع واحدا منها باركه الله وأجاب سؤله وكثيرا ما يمثلون الفاجعة برواية تعرض على المسارح ويحضرها الاطفال جميعا

من خراسان الى الافغان : اعتزمت زيارة بلاد الافغان رغم ماسمعت هناك عن وحشيتها وافتقارها للنظام والأمن وكأن الظروف جميعها تضافرت على تعطيلى فقد لبثت أربعة أيام وأنا أنتظر قيام سيارة الى هيرات وكل يوم يرجئنى صاحب (الجراج) الى الغد حتى كان مساء الجمعة آخر ميعاد وعنده رجانى أن أظل حتى الصباح ثم جئت فى الصباح أخاطبه تلفونيا فقال عصرا نقوم فاحمل متاعك الينا فى الرابعة مساء فكان ذلك وهناك استبقانى حتى يكمل عدد المسافرين وظل ذلك الى ما بعد العشاء ولما هممنا بالركوب اختلف احدهم وهو أفغانى وأصر أن يجلس الى جانب السائق وهو المكان المعد لى وله اجره الزائد وظلت المناقشات والمحاورات الى العاشرة مساء فغضب الرجل وأضرب عن السفر فقالوا تعال صباحا فعدت الى النزل وآويت ليلتى وفى الصباح لم يكن النزاع قد فض فعرضوا على أن أسترد نقودى لأن الرجل يصر على الانسحاب هو وسبعة من صحبه فقلت هل هذا مقـــدار محافظتكم على عهودكم ؟ أهكذا تعاملون ضيفا تعطل نحو

اسبوع انتظارا لسيارتكم ! فأخذت السائق الحماسة وقال انى أوثر أن أقوم برا بى واحد مثلك على كل أولئك وأخيرا اتفقنا أن نحشر نحن الاثنين الى جوار السائق رغم أن الرجل كبير الجثة عملاق القامه . تحركنا التاسعة ونصف صباحا والمسافة كلها فوق ستين فرسخا أى ما يقرب من أربعمائة كيلومتر قطعنا ثلثها الى الرابعة مساء حين وقفنا نستريح فى مسافرخانة بدوية صغيرة بها حجرات مختنقة من طين أمامها بستان غير مشذب ولم نجد من الطعام الا الخبز الاسود السميك والبيض المقلى والشمام فأكلنا أكلا شهيا لأن الجوع والاعياء كانا قد أخذا منا مأخذا . بعد ساعتين قلت هلم نستأنف السير فقال السائق سنقف ساعة أخرى نصلح خلالها بعض مافى السيارة وتلك الساعة أسفرت عن ثمان كاملات أمضيناها فى هـذا المكان الموحش . فقلت فى نفسى ماالذى دفع بى الى هـذا المسلك الوعر الممل! ومالى وبلاد الافغان التى يقصون عن همجيتها مايثبط العزم ويصرف المسافر عنها ؟ لكن عدت فقلت فى نفسى وهل اللذة الا فى مغالبة ذلك وتحقيق غايتى التى وضعتها نصب عينى وهى أن أزور بلاد الارض مااستطعت وهل المرء فى الدنيا الا مجاهد يحاول اصابة هدف جعله قبلته فان وفق أرضى ثورة النفس والا فالخير قصد ؟ سأمضى مهما كان الطريق وعرا مخوفا . قطعنا مرحلة أخرى الى الفجر حين اضطرنا التعب أن نأوى الى خان خرب نمنا فيه على الارض حيث لم يكن ثمة فراش وفى الصباح لم نجد مانسد به رمقنا غير خبز قفار اسود سميك وشاى يعلم الله مبلغ ماحوى من



أعجب ما فى التركمان تلك القانسوة من جدائل الوبر والصوف

وكانوا خطرا على الامن فى طرق ايران وأفغانستان الوعرة

اتربة وأقذار . وقبيل الظهر كنا فى الجمرك الايرانى فى قرية كاريز هنا تجلى اهمال الموظفين وبطؤهم المسئم فى فحص متاعنا ثم جاءت الثانية بعد الظهر فذهب الرئيس للنوم تاركا ايانا فى مكان قفر ليس به ما يقى وهج الشمس

ولا غبرة الجو ولم تمض الجوازات الا عند الغروب وكان يطالب القوم بنقود وهم يرجونه تخفيفها وأخيرا قبض منا ماتيسر ضريبة غير مشروعة عيانا

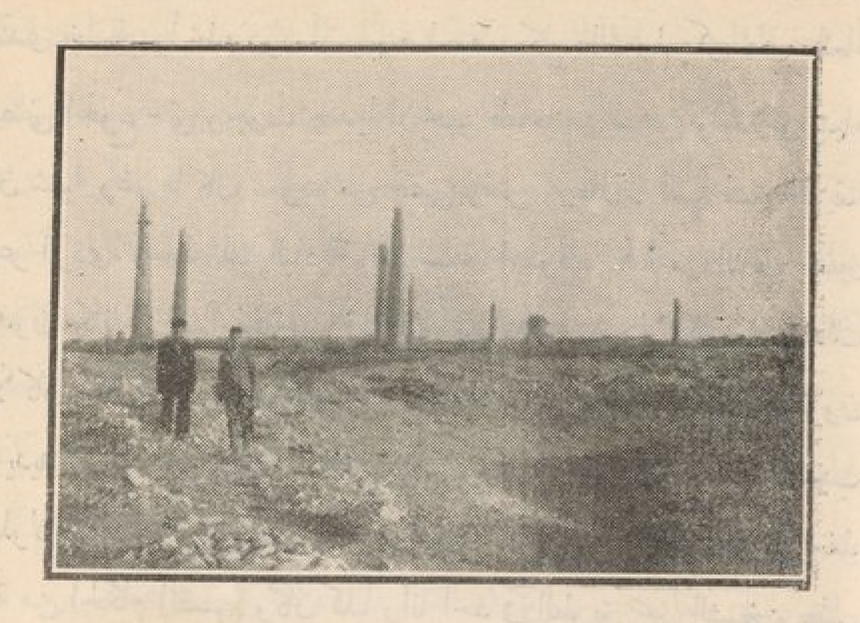
بعد ذلك تهامس السائق وبعض الركاب قائلين بان الافضل امضاء الليل هنا فثرت محتجا وقلت كفى ابطاء وعطلا فالمسافة كلها كان مقدرا لها يومان وها قد مضى اليومان وبقى فوق ثلث الطريق قالوا اننا سنقضى الليل فى غير طائل على الحدود الافغانية وهى أمعن فى الجدب والوحشة وسوء المعاملة فأمضينا ليلتنا فى ذاك المكان القفر ورجوت صاحب الخان أن يمدنى بفراش على (مسطبة) فى الشارع لان داخل الخان قذر لا يطاق ففعل ونمت نوما عميقا وفى باكورة الصباح قمنا الى الحدود الافغانية فى اسلام قلعة

افغانستان

أرض الجبال

أسلام قلعة : وصلنا الحدود فى ساعتين عندها مخفر فارسى أبرزنا له جوازاتنا ولم تمض الا بعد أن عززناها بقروشنا ثم دخلنا القلعة واذا اسمها أكبر منها وهى عبارة عن بناء كبير خرب أقيم من الآجر كنت أخال حولها مدينة فأذا بها تقوم وسط صحراء مجدبة يكسو أرضها الحامول والعاقول والهالوك اليابس وقد كانت من قبل تسمى (كافر قلعة) يوم كانت ملكا

لفارس وكانوا يطلقون عليها ذاك الاسم لاعتقادهم أن الشيعة من الفرس
كفار ولما أن ضمها ملك الافغان السابق (أمان الله خان) لبلاده أسماها
(اسلام قلعة). وقفنا وسط تلك الصحراء أو الداشت كما يسمونها أمام مدخل
القلعة وكان يتقدمها بعض الجنود فى سراويلهم الفضفاضة تكسوها الى الركبتين
جلابيب طويلة وعمائمهم الطويلة فى شال ممدود تترك منه ذوائبة خلفية هادلة
الى العجز. طلبت لقاء رئيس القلعة فدخلت اليه فى غرفة تفرش بالبسط وهو
ووكيله جلوس على الارض فسلمته خطاب التوصية الذى حملته من سفارتهم
فى طهران بعد أن عاونتنى فى ذلك مفوضيتنا العامرة هناك فأشار أن أجلس
وأشرب الشاى. والرئيس ذو وجه مقطب وسحنة غاضبة أمى لا يعرف القراءة
لذلك ناول الكتاب لوكيله الذى أطلعه على ما فيه . طاف الغلام علينا
بأقداح الشاى الاخضر وناول كلا منا بعض فتات السكر فى أيدينا كى نلقى
بقطعه فى أفواهنا ونشرب وراءها الشاى وكلما فرغ القدح عاد فملأه لنا
جميعا رغم انى كنت أشير بأنى اكتفيت ولا أستطيع المزيد فكرر ذلك
الى القدح السادس وهنا أضربت عن تناوله فبدت عليهم علامات التأثر
وعلمت بعد من السائق أن من الواجب على أن أبقى فى القدح بعض الشاى
ثم أنكسه بما فيه فوق الطبق علامة الاكتفاء . نزلنا لفحص الأمتعة فأقبل
جمع من الموظفين والرقباء بعمائمهم المنتفخة وأحذيتهم الملتويه فى ذؤابات
رفيعة ومقوسة امام الحذاء وخلفه وجلس الجمع على الارض وبيد كل ورقة
ثم أخذ الجند يحملون المتاع من السيارة قطعة قطعة ويفتشونها بكل دقة وبطء

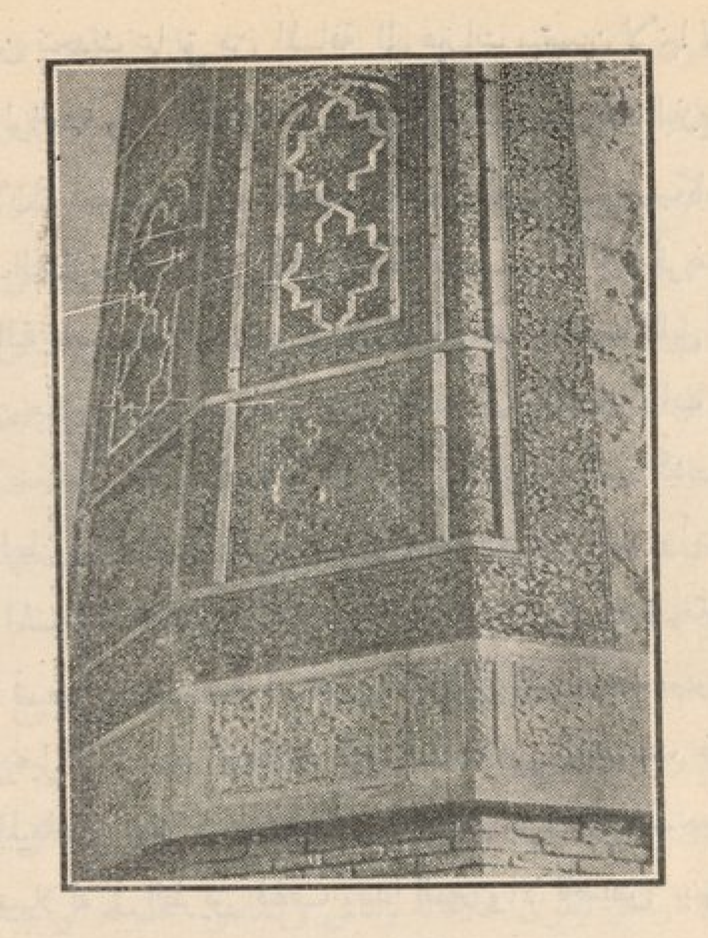


تلك القبة والمآذن السبع بقايا مساجد العباسيين فى مدخل هيرات

وكلما وجدوا شيئاغريبا أو جديدا أمسكوا بهوأداروه عليهم جميعاوأخذوا يقصون حوله الاقاصيص فى بطء عجيب حتى انا لم نفرغ من هذا العمل إلا بعد ثلاث ساعات . قلت هلم فقد تم كل شىء قالوا انا ننتظر الجوازات ولبثنا على تلك الحال النهار كله الى الرابعة مساء وخلال كل ذلك كان يطالب المسافرون بنقود دفعوها أربع مرات لاشخاص مختلفين والجدل والمساومة والممانعة فى تسليم الجوازات كانت علانية . وكلما وجد جنودهم شيئاً يروقهم من متاع المسافرين أخذوه ثم تكون مجادلة بين الجندى وصاحب المتاع حتى يتفقا وقد أعجب جنديا أبريق من نحاس لكن صاحبه

استعاده وهو غاضب ولما وضعه فى السيارة وأوشكت أن تستأنف السير أقبل الجندى خلسة وأخذه دون أن يعلم صاحبه. كل ذلك ولم يكن لدى طعام فأمضنى الجوع حتى رجوت جنديا ان يجهز طعاما من البيض والخبز والشمام فكان شهيا رغم ما كان يسوده من حصى وقش ورمال. قمنا نشق طريقنا الوعر الردىء وسط تلك البادية وبعد ساعة استوقفنا جمع من الناس غفير يريدون مكانا فى السيارة لاحد (الملاه) رؤساء الدين. ولا يمكن رفض ذلك والا كان مالا تحمد عقباه فأخلى جارى مكانه للشيخ وأخذ الجميع يتكاثرون على يديه تقبيلا رغم شيخوخة الكثير منهم وطول لحاهم التى نال منها الشيب (والمولاه) هناك هم المسيطرون على اذهان الناس وهم اكبر مقاما وانفذ كلمة من الحكام انفسهم وكان كلما رآنا احد فى الطريق يحيى الشيخ ويظهر له الخضوع والاجلال وقد كنت أتفاهم مع الشيخ بصعوبة وهو من عائلة (المجددى). وطبقة (الملاه) يكادون يقسمون البلاد فلكل ناحيته التى يطوف عليها بين آن وآخر ليقوى علاقاته بالناس ويتقاضى حقوقه الواجبة عليهم قبله. لبثنا نسير فى تلك السهول الصحراوية تحفها على بعد سلاسل جبلية وطيئة ولم يتغير المنظر منذ خروجنا من مشهد اذ غالب ارضه مهملة مبسوطة وحيثما يظهر الماء القليل تقوم القرى الصغيرة وكثير منها بالطين فى صفوف من الاقبية (كالقطاطى) وكثير من سقوف الافغان مسطحة وقد مررنا بقرية جل اهلها من مهاجرى التركستان الروسية هروباً من جور الروس وكان رجالهم وصبيتهم يحاولون التفاهم بصعوبة لانهم يتكلمون الروسية فقط. كانت التاسعة مساء

وبينا نحن نتحدث عما بقى من المسافة الى هيرات مبتهجين لأنها لا تجاوز الساعة الواحدة واذا بالسيارة تقف فجأة والسائق يعلن نفاد البنزين فكدنا نصعق لان الوقت ليل بهيم والمكان مقفر مخيف والجو عاصف مترب كادت الريح أن تقلب السيارة على ثقلها — وشهور آخر الصيف وأوائل الخريف ريحها هناك شمالية عاصفة لا تكاد تحتمل فى بلاد الافغان جميعها — لبثنا الليل كله ولم أنتقل من مكانى بالسيارة وصفير الريح وشدة البرد وكثرة التراب لاتحتمل وزادها ضغثا أن زجاج نافذة السيارة كان مكسورا وأنى كنت جائعا خاوى البطن لأنى كنت أتوقع تناول العشاء فى هيرات . أرأيت كيف يتعرض المسافر فى تلك البلاد للأخطار وضياع الوقت ؟ يعتزم السفر والعودة فى ميعاد محدود ويؤكد القوم ذلك واذا بالساعة عندهم يوم واليوم شهر . ويخيل الى أن وسائل النقل الرديئة هناك هى التى ولدت فيهم عدم احترام الميعاد أو تقدير قيمة الزمن، ترى السائق منهم وأنت تستعجله السير يلاقى زميلا له فى الطريق فيقف وتبدأ السير والأقاصيص بينهما وهو لا يقدر مسئولية قط يقف بسيارته حيث كان وسط القفر من سهل وحزن غير أن تلك الوسائل على ابطائها الممض اليوم خير من الابل والحمير والبغال التى كانت تقطع تلك المسافات فى شهور وكنا نمر بها فى سيرها الوئيد ليلا ونهارا فى قاطرات طويلة تحمل المتاجر وتتدلى من رقابها اجراس ثقيلة تنبه عن وجودها . أخيرا قدر لنا ان نصل هيرات صباحا وقد مرت بنا سيارة صغيرة حملت الينا ما أعوزنا من بنزين فاذا هيرات (أو هرات)



تكسى المآذن القديمة فى هيرات بذاك الابداع الفنى من القيشانى رائع الالوان

بلدة حقيرة على عظيم امتدادها فى حضن جبل يكاد يطوقها وتحفها المزارع الممدودة، مبانيها باللبن وطرقها مختنقة وفى غير نظام اللهم الابيوتات علية القوم التى أقيمت من الآجر الابيض والاصفر وشارعان متعامدان حديثان صفت عليهما الحوانيت الجديدة من بقايا ماخلفه الملك السابق (أمان الله خان) لما ان حاول الاصلاح . أما عن التراب والاوساخ فحدث فهى اكداس

فى كل مكان وأظهر مافى المدينة بقايا مسجد قديم بقبابه ومآذنه السبع التى كانت تكسى بالقيشانى الملون الجميل الى أعلى ذراها بدت مشرقة ونحن على بعد أميال من البلدة . بحثت عن نزل آوى اليه فعلمت أن ليس هناك من أمكنة معدة للنوم قط حتى ولا مسافرخانات تحرت فى أمرى وقلت لصاحب (الجراج) أليس لديك مكان أنام فيه ؟ قال (ناخير) أى كلا ، اقصد الى احد علية القوم ليضيفك عنده فى داره قلت ألا توجد مطاعم عندكم ؟ فقادنى الى المطعم الوحيد الذى لم يمض على وجوده فى البلدة شهران فاكلت فيه ثم رجوت صاحبه أن يعد لى فراشا بسيطا لديه فقال (انجا أغاخوب نيست) أى لا يليق هذا المكان قلت هو خير من لا شىء فزودنى ببساطين (سجادتين) واحد افترشته عند مدخل المطعم والثانى التحفت به واستخدمت حقيبتى وسادة ولم يكن للمدخل باب يحجبه عن الشارع فكنت كانى أنام فى الطريق وكم من مرة كنت انظر فارى جمعا من النـــاس يقفون وهم يرمقوننى وأنا أقرأ أو أكتب جالسا أو مضطجعا وبعد يومين علمت أن الرجل قد أقام غرفا فى أعلى المطعم لم يكمل بناؤها فرجوته أن أنام فى احداها ولما تكن قد سقفت وحولها أكداس الطوب وانقاض البنـــاء فآثرتها على مكانى عند مدخل المطعم . وهيرات هذه ثانية مدن الافغان بعد كابل وقد علمت أن كابل نفسها وهى عاصمة البلاد ليس بها الا نزل صغير واحد أما قندهار ثالثة المدن فهى شبيهة بهيرات تماما . بلاد لاتزال فى معزل عن العالم الخارجى فى كل شىء تعيش على الفطرة التى لم تفسدها المدنية فى زعمهم .

تناولت العشاء وأغرب شيء فيه أن الارز يقوم مقام الخبز تدفن فيه قطع اللحم (الجوشت) والى جانبه بعض الباذنجان يسبح فى الزيت (أو الروغان) كما يسمونه. سألت الخادم وكان اسمه (أفغان) أن يقودنى الى المراحيض وسرت وراءه حتى جاء خرابة مكشوفة على جانب الطريق وقال (أنجا) أى هنا قلت كلا فأنا أريد مستراحا فعلمت أن ليس لذلك وجود يقيمون أبنيتهم ويغفلون هذا اتكالا على الخلوات والامكنة الخربة وسطوح المنازل وهذه حالهم فى جل بيوتهم الا النادر وفى الصباح أردت الاستحمام فقيل لى اذهب الى الحمام وهم هناك وفى فارس كلها لا يقيمون حمامات فى البيوت مهما عظم شأنها ارتكانا على الحمامات العامة التى لا يطمئن المرء الى نظافتها وطهارتها أبدا على أنهم فى فارس يستعيضون عنها بحوض الماء الذى يتوسط فناء الدار دائما أما فى الافغان فليس لذلك من وجود لأن الماء شحيح ومستمده الآبار العميقة. طفت بأرجاء البلدة وراقتنى قلعتها المشرفة التى يحتلها الجيش فى هندامه المرقع ومنها أوغلت فى أسواق المدينة (بازار) وهى ضيقة مغلقة مظلمة لكنها بالغة الطول غاصة بالمتاجر وهيرات أشهر بلاد الافغان كلها فى التجارة.

والنساء هناك محجبات لدرجة مبالغ فيها فالازار الخارجى يحكى (الكيس) قد زر عند الرأس بحيث يلبس فيها وهو فضفاض من أسفله وأمام العينين قطعة منه مثقبة بخروق للنظر والتنفس وتحت الازار سروال أسود سميك يتدلى الى الحذاء ويربط فيه فترى السيدة تمشى وهى تدب دبيبا



على ضريح الفخر الرازى من أكبر مفسرى القرآن فى هيرات

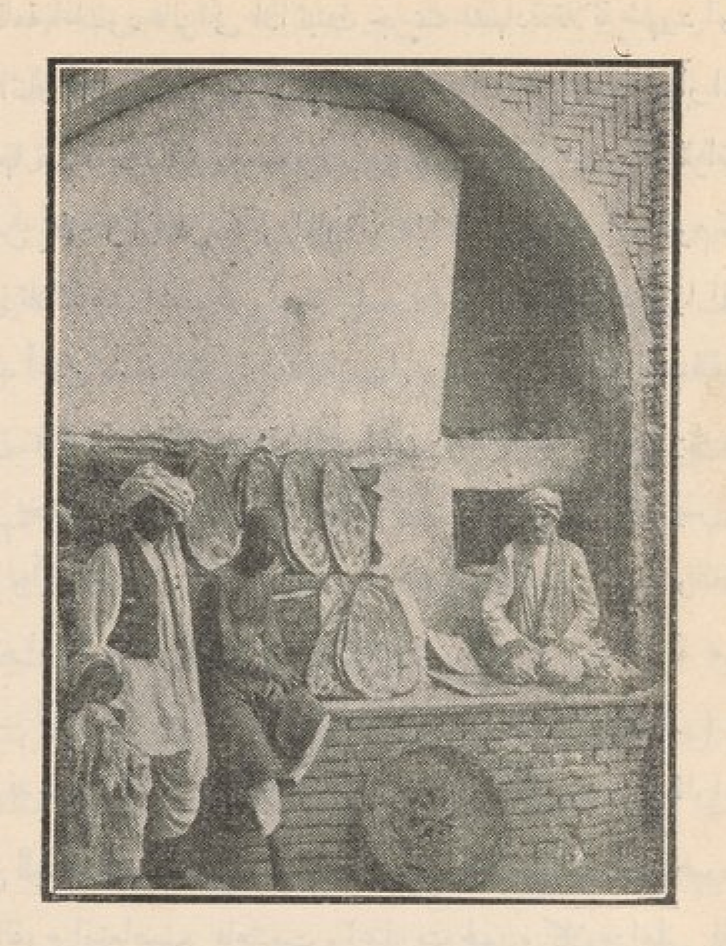
فى كتلة واحدة تسترعى النظر وبقـــدر ما رأينا من اباحة الفرس كانت
الرجعية هنا فى أشدها وغالب القوم هنا سنيون يمقتون الشيعة وتصرفاتهم
ورغم ان الحكومة اليوم تشجع لباسا للرأس جديدا كأنه قلنسوة يكسوها
وبر أو جديل أسود فانك لا ترى واحدا فى المائة ممن يلبسونها وكلهم
يلبس العمائم ذوات الذوابات الطويلة والاحذية العتيقة تنتهى بذوابتين
طويلتين معقوفتين حتى الاغنياء منهم لذلك لم أعجب للانقلاب السياسى الذى

حدث وطردوا من أجله الملك السابق أمان الله خان فهو لم يفهم قومه قط اذ كيف ساغ له أن يلبسهم القبعات ويرغمهم على السفور وما الى ذلك مما أتاه مصطفى كمال ويحاوله اليوم رضا خان بهلوى ؟ هم لا يؤمنون الا بتقاليدهم ويتمسكون بدينهم فى ايمان شديد ويكاد يحكم البلاد جماعة (الملاه) الذين يجب على الحكومة إرضاؤهم قبل الشروع فى انفاذ شيء جديد

ولم أكد أرى أجنبيا واحدا بينهم ولا غير مسلم ولذلك كانوا يرمقوننى أينما سرت فى شيء من الريب ويسألوننى (مسلمان) فأسرع بالاجابة (بلى) وسوادهم أمى وفى جهل عميق وغالبهم يتكلمون بالفارسية وقد ظهر لى أن جل ثقافة المتعلمين منهم فارسية يجيدون كتابتها ويروون أشعارها وآدابها وقد نقلوا جل آدابهم عن فارس وفى مدارسهم الساذجة يقرأ الصبية الادب الفارسى إجباريا وتكاد تكون اللغة السائدة فى الطرقات هى الفارسية وكثير منهم يتكلم الهندوستانية ولغتهم خليط من الفارسية والهندية لذلك كنت أتلمس فيها الفاظا عربية كثيرة كانت هى وماعرفته من الفارسية عونا لى على التفاهم بعض الشيء والافغانية الصحيحة يتكلمها أهل قندهار فقط أما فى هيرات وكابل فالفارسـية والهندية . وموسيقاهم خليط من الفارسية والهندية ايضا فى نغمات سائغة لآذاننا على انها بدوية والغناء أميل الى الصياح المرتفع وأحب الآلات الطنبور وآلة أخرى أضخم منه يسمونها (مادام)

والحالة الاجتماعية تثير الدهشة فرغم الحجاب الذى يحوط المرأة فان الفساد منتشر سرا والامراض السرية شائعة والعجيب ان ذلك يقع

رغم اقامة الحدود فالزانى اذا ثبتت جريمته بشهادة ثلاثة شهود أو واحد يزكيه اثنان محترمان القى علانية من فوق قلعة البلدة الى الاحجار المتراكمة من دونها مسافة لاتقل عن خمسة وعشرين مترا و يغاب ان يموت والزانية توضع فى كيس يحوطه الجند ويؤمر المارة برجمها الى ان تموت . واليوم كان موعد قصاص ثلاثة من اللصوص ثبتت عليهم جريمة السرقة فاحضروا الى السوق وكان قد أعلن مناد ذلك فى المدينة ونفذ فيهم قصاص قطع اليد فتقدم رجل البوليس ولف حبلا حول ساعد الرجل وضغط الرسغ بين عضادتين من خشب كى يمنع سيل الدم ثم أمسك رجل البوليس بيد الجانى وأتى الجلاد بالسلاح الحاد ثم شرع يقطع الجلد والعروق فى احتراس وبطء شديد أعقب ذلك ضربة قوية بآلة ثقيلة من حديد فانفصلت اليد بعيدا ثم غمر الجرح على الفور فى زيت (روغان) يضطرب غليانا وقد نفذ ذلك فى ثلاثة أشخاص وهم فى تألم شديد ونقلوا بعد الى مستشفى البلدة البسيط حتى تلتئم جراحهم وقد حاولت أخذ صورة لذلك فأبدى القوم امتعاضهم فامتنعت واعتذرت لهم وكان يزاملنى الدكتور باشفتس الالمانى . والعادة أن السارق لاول مرة يسجن واذا تكررت قطعت يده ثم رجله والذى يحكم بذلك (المولاه) وهو مفتى الحكومة وطبقة العلماء هم القوام على القانون فى تلك البلاد وقد شاهدت رئيس الشرطة ونحن فى مجلسه مرة يسأل الالمانى عما يفعلون لمنع الفساد فوق ماهم فاعلون اليوم فقال بأن شيئا من الحرية والتسامح فى الاحكام خير وأجدى ! وقد



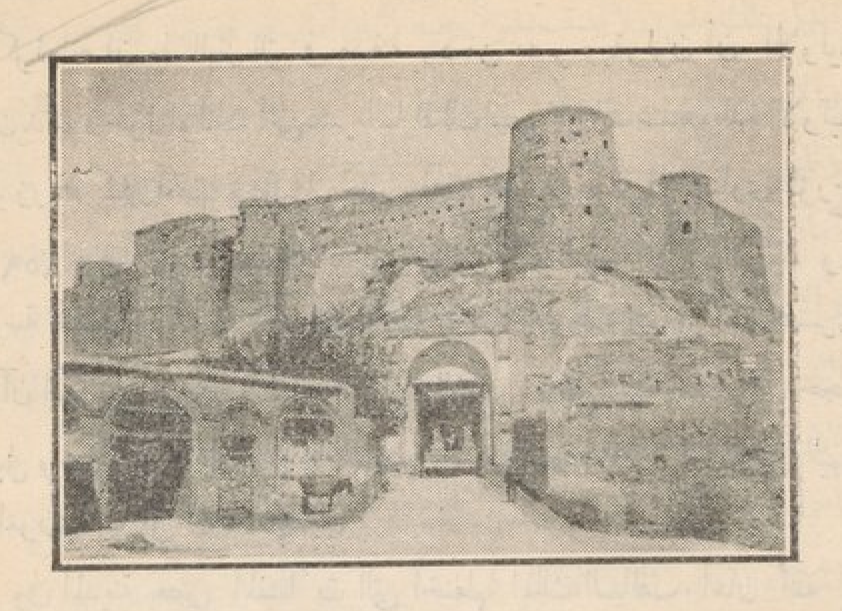
الخبز يعرض فى سوق ديرات وكأنه ألواح حجرية مثقبة

أقترح اباحة البغاء الرسمى فى مناطق معينة وهو هناك لا يباح قط
وسرنى مالاحظته هناك من عدم وجود التسول رغم فقر البلاد وعوز
أهلها مما أشعرنى بأن فى نفوسهم شمما يأبى عليهم الاستجداء عكس مالافيته
فى فارس التى يرى الانسان فيها من أمر المتسولين و كثرتهم عجبا والحكومة

الافغانية تحرم التسول وقد اعدت (دار ايتام) فى البلدة يأوى اليها العجزة والمعوزون وهناك مستشفيان احدهما عسكرى والآخر مدنى لعلاج المرضى وايوائهم مجانا وتلك فضيلة أخرى . ويلحظ الزائر الفرق الشاسع فى اجسام الناس فى تلك البلاد فهى ممتلئة تبدو عليها علائم القوة والصحة عكس ابناء فارس النحال الهزال من سوء التغذية والاسراف فى المسكرات والافيون والغانيات ولان كثيرا منهم من اللقطاء الذين أهملتهم امهاتهم من زواج المتعة فشبوا مفتقرين الى الرعاية الصحية والتغذية الوافية

زرت يوما احد سراة القوم وهو مختار زادة من أكبر تجار هيرات وكان معى له خطاب توصية من بعض خلانه فى مشهد فدخلت داره واذا مدخلها من السوق صغير لا يشعر بعظمة لكنى الفيتها من داخلها فاخرة قسم الحريم منعزل فى الداخل والجزء الظاهر (وهو المضيفة) أعد بالبسط الثمينة والحشيات والتكات ويتوسط كل حجرة مصباح فى طول قامة الرجل يوقد بزيت البترول وقد استقبلنى بعض ذويه وشربت شايهم الممتع ولبثت أنتظر حضور صاحب الدار نحو ساعتين فلم يحضر فقمت وشكرتهم وتركت لهم خطاب التوصية وأفهمتهم منزلى من المطعم السابق ذكره وكنت انتظر من كرمه الذى سمعت عنه أن يزورنى فى مكانى فلم يفعل ذلك فقلت فى نفسى وأنا آسف ان زرته هل يقع مثل ذلك فى مصر وهل يجيزه الكرم المصرى ؟ وخيل الى أن الكرم الذى سمعته عن ذاك الرجل لا بد ان يكون كرما نفعيا يختص به عملاءه ومن لهم قبله مصالح مادية

وهيرات محط أغنى المموّلين فى ايران لانها أكبر المحاط التجارية وحولها مزارع غنية وأرض خصبة وماء وفير وخير ما تصدره القطن والافيون والرعى والفستق والجوز واللوز والبندق على أن افتقار البلاد للتعليم ورؤوس الاموال لم يمكنهم من استغـــلال أرضهم . ويخضع لولاية هيرات نحو مليونين من مجموع سكان الافغان البالغ عددهم ستة ملايين ووحدة النقود الافغانية (القران الافغانى) وكان يعادل القران الفارسى سك من معدن خفيف كأنه الالمنيوم الممزوج بالنحاس فى لون أغبر قذر وهو أكبر أنواع النقود ولا يزيد حجمه على القرش عندنا وله كسوره النحاسية الكبيرة وليس فى البلاد نقود ورقية (بنكنوت) قط لانهم يحرمون إقامة المصارف فالتعامل التجارى كله بالقران فالتاجر يقبض دينه أو ثمن بضاعته منه مهما كثرت لذلك ترى كلا منهم يحمل آخر اليوم أكياسا ثقيلة كبيرة يكاد ينوء الواحد بحملها وترى كلا ينتحى جانباً ويكدس النقود بجواره ويشرع فى عدها ويستغرق فى ذلك زمنا . وكان سائق السيارة التى ركبتها عائدا إلى فارس يحمل كراءه من القرانات فى أكياس ثقيلة أعنى خمسة عشر جنيها كلها من تلك النقود المعدنية وكانت فوق الف قطعة وكم كان ارتباكى عظيما عند ما دخلت فارس ولم يكن معى سوى ورق فارسى قيمته اثنى عشر جنيها فلم يقبله منى أحد اللهم سوى جمهرة من صيارفة اليهود وقد تقاضوا عليه عمولة فاحشة وهم لا يقبلون أى نوع آخر من النقود أو الورق أما الشيكات التى كانت معى فلم استفدبها هناك قط لذلك اقترضت من السائق ما احتجت اليه فوق ما معى من نقودهم على أن اردها اليه فى فارس وقد أودعت معه



قلعة هيرات ومن فوقها يلقى بالزانى إلى هوة وراءها

بعض الشيكات رهينة حتى صرفتها فى مشهد واعطيته حقه

ويظهر لمن يزورها لاول وهلة أنها بلدة قديمة أثرية بناها الاسكندر المقدونى على نهر آريوس الصغير المعروف بنهر هراة أو هرى وسماها آرية باسم النهر والاسكندرية باسمه وقد فتحها الاحنف بن قيس فى خلافة عمر وأظهر ما يرى فيها أطلال سورها القديم وقلعتها المشرفة وبقايا مسجدين فاخرين تقوم منائرهما السبع وإحدى القباب يغشاها جميعاً القيشانى فى لون اللازورد والفيروز وفى اشكال هندسية وقد بناها هارون الرشيد وفى البلدة مدافن لكثير من أولياء الاسلام وعلمائه أ ذكر من بينهم الفخر الرازى

وعبد الرحمن الجامى وعبد الله الانصارى والحجة عبدالله المصرى ويقصون عن كراماته ان ماء البئر التى فى مدفنه يرد من مصر ويقولون أن الاولياء الذين يدفنون حول اولئك اثنى عشر الفا لذلك تسمى هيرات عندهم بلدة الاولياء وقد زرت كثيراً منها وغالبها متهدم ولعل أفخرها مدفن الانصارى المؤرخ فى ٨٥٩ ﻫ فهو وسط مسجد فاخر حول فنائه مجموعة من الاولياء وبه مدرسة لحفظ القرآن ووقفت بقبر الفخر الرازى طويلا وهو من كبار مفسرى القرآن الكريم وصاحب كتاب مفاتيح الغيب . وكل تلك المدافن فى حجر الجبل وحولهم المزارع والاشجار وفى مواسم خاصة يحج الناس اليهم وينامون فى اماكن أعدت لذلك

وفى المدينة بعض المنشآت التى اختطها الملك السالف أمان الله فى شوارع فسيحة أقيمت على جوانبها المبانى المتشابهة من الآجر الاصفر الكبير يتوسطها بعض الشجر والزهر لكنى ألفيت غالبها متهدما من يد الثوار فقد كان ذلك الملك مصلحا طموحا الى رفع شأن بلاده وكان فى أخريات حكمه ينقل نظمه كلها عن تركيا والمانيا ويجاهر بالنفور من الاجانب وبخاصة الانجليز لانه علم بمدى مطامعهم فى بلاده المجانبة للهند لكن أولئك انتهزوا فرصه غيابه فى رحلته وبثوا الدعوة ضده وقام (لورنس) يهب الاموال للعشائر ويشوه سمعة الملك وأنه أضحى ملحدا يريد الاعتداء على الدين كما فعل مصطفى كمال فى تركيا بدليل أنه يريد نشر القبعات واختلاط السيدات بالرجال ومخاصرتهم أياهن ونشر بعض صور للملك وزوجته يرقصان وسط الرجال فى مراقص أوروبا حتى قالوا ان المال الذى أنفق فى

سبيل ذلك مليون و نصف مليون جنيه وكان أمان الله قد نقل كثيرا من العادات والازياء الاوروبية حتى لبس كثير من أهل هيرات الاردية الافرنجية وظهرت القبعات فاهتاج الشعب الساذج وقام بالثورة وحطم كل ما أقامه أمان الله من أصلاح حتى آلات توليد الكهرباء التى رأيناها محطمة هى والاسلاك التى مدت فى أرجاء المدينة على أنى كنت أسمع من الكثير نعمة الندم على ما فعلوا لأنهم أدركوا مبلغ وطنيته ولاحظوا مدى بسط النفوذ الاجنبي اليوم وان كان خفيا وكان يتفقد جنده بنفسه ويوصيهم بقوله : اعملوا لوطنكم أولا ثم لدينكم ثانيا ثم لأنفسكم وكان ذلك مما أهاج عليه المولاه رجال الدين لانهم فهموا أنه يريد القضاء على شعوذتهم كما فعل مصطفى كمال

وكان يسترعى نظرى كثرة السحن الصينية وأولئك من التركمان اذ أن جزءا من التركستان داخل فى حدود الافغان وتركستان الروسية على مسيرة أربع ساعات من هيرات فقط وهؤلاء يتكلمون لغة خاصة وأعجب ما فى لباسهم غطاء الرأس فهو للرجال كرة هائلة من الوبر أو الصوف الاسود المنفوش وللنساء شبه اسطوانة كبيرة القطر لكن ارتفاعها لا يعدو عشرة سنتيمترات تكسى بالقماش الملون . والافغانيون طيبو القلب الا أنهم على شيء من الجفاء فى الحديث والخشونة فى اللفظ وغالبهم سذج لا يزالون على فطرتهم ويبدو أفتقار البلاد الى المال من بساطة دور الحكومة وما فيها من أثاث لا يكاد يعدو البسط تفرش ويجلسون عليها فى جلابيبهم وامام



حول باب قندهار أجمل البوابات الخمس لهيرات

والأسوار من الطين وعلوها خمسة عشر مترا

مدخلها الاحذية الغريبة تراها تصف فى شكلها البدوى وبعضها لعلية القوم ملونة مزركشة (بالقصب) كذلك رجال البوليس والجيش فهندامهم مختلف بعضهم بالجلابيب والبعض بالحلل المهلهلة وعلى رءوسهم قبعات فطساء من امام ومن خلاف وفى قبعة الضباط ذؤابة من جدائل لامعة تتدلى الى اليمين من وجوههم . وقد زرت رفقة صديق الالمانى رئيس الشئون الخارجية (مأموريتى خارجى) ويجب على كل زائر أن يمر عليه ليتسلم منه

جواز السفر مؤشراً عليه منه والا لا يسمح له بالخروج وهم هناك كثيرو الشك فى الوافدين والراحلين تسلموا الجواز منى بمجرد دخول السيارة البلدة وحفظوه فى (النظمية) وعند السفر كان لا بد من الذهاب لتسلمه من رئيس الخارجية. هناك قدمت خطاب التوصية فاحسن استقبالنا وشربنا الشاى وبعد القدح الثانى نكسته فى الطبق بعد أن أبقيت فيه جانبا فسألنى رفيقى الالمانى عن سبب ذلك فافهمته ففعل مثلى وبعد أن تسلمنا الجوزات ضرب المأمور معنا موعدا أن يوافينا عصرا لزيارة بعض أماكن هيرات بمعاونته فشكرناه وانصرفنا على أنه لم يف بوعده ولم يعتذر فلم يرقنا منه ذلك رغم ثقافته ومكانته فى بلاده

لبثت أقيم على مضض منى فى هيرات انتظارا لسيارة وفى كل يوم يؤكد لى صاحب (الجراج) ان السفر (فاردا) اى غدا وفى اليوم الخامس قمت صوب قندهار وبعد مسيرة يوم فى تلك الارض الجبلية المقفرة تعطلت السيارة ولم نقطع ثلث الطريق وفهمت أننا سنقف حيث نحن طويلا واذا بسيارة راجعة الى هيرات وهى تنقل سلعا تجارية ففضلت ان اعود فيها لانى خشيت فوات الوقت على وفى هيرات مكثت يومين آخرين رفقة زميلى الالمانى وكنا نجول سويا ونجلس فى المطعم نتناول الشاى ومن حولنا بعض أهل البلدة وقد بلغت بهم سذاجتهم أنهم كانوا كلما رأوا معنا شيئا أحبوا ان يهدى اليهم وحتى الكوث (الشبشب) طلبه احدهم منى وأصر على أخذه وكانوا يسألوننا بعض صور السيدات فقط فقدم لهم (پاسفتس) بعض صوره هو فرفضوا وقالوا

مالنا وهذه نحن نريد صورا لسيدات جميلات وكانوا يشربون جميعا (النرجيلة او الشيشة) وبعضهم يمضغ مسحوقا اخضر من مركبات خمسة أو أكثر عرفت منها الطباق والجير والملح والزرنيخ ويظلون يبصقون بشكل منفر بصاقا أخضر كريها

أما رفيقي باسفتس فرجل واسع الاطلاع يتجول لحساب حكومته ويعمل على توطيد العلاقات بينها وبين البلاد التي يزورها وهو يجيد عشر لغات ومعه من الآلات الكاتبة وآلات التصوير الدقيقة شيء كثير وقد قص على انه كاد يفقد حياته لما ان دخل الحرم فى مشهد ولم ينقذه من المسلمين الا شهادة ابتاعها من احد علماء طهران تقول بانه مسلم وتلك يعطيها عالم خاص هناك لكل من طلبها مهما كانت ديانته مقابل دفع عشرين تومانا (اى نحو جنيهين ونصف) فابرزها لهم وادعى انه مسلم فعفوا عنه والافغانيون شديدو التعصب أيضا وقد حاول دخول مسجدهم الجامع فى يوم الجمعة فأبوا عليه ذلك وكان المسجد مكتظا بالمصلين وكانت جميع الاعمال معطلة لانهم يحترمون يوم الجمعة احتراما كبيرا

قمت صباح ٢٩ اغسطس اتوقع خبرا بالسفر من رب (الجراج) شأنى فى كل يوم وقد نفد الصبر ومللت البقاء هناك واذا بسيارة كبيرة تقف امام المطعم ينادينى صاحبها فاستبشرت وودعت الرفيق الالمانى الذى كان ينتظر سيارة الى كابل وركبت برفقة وفد من المسافرين يقصدون مشهد وفى طليعتهم (مولاه) افغانى الاصل لكنه يقيم الآن فى مشهد . رجل وقور نال منه الشيب وارسلت

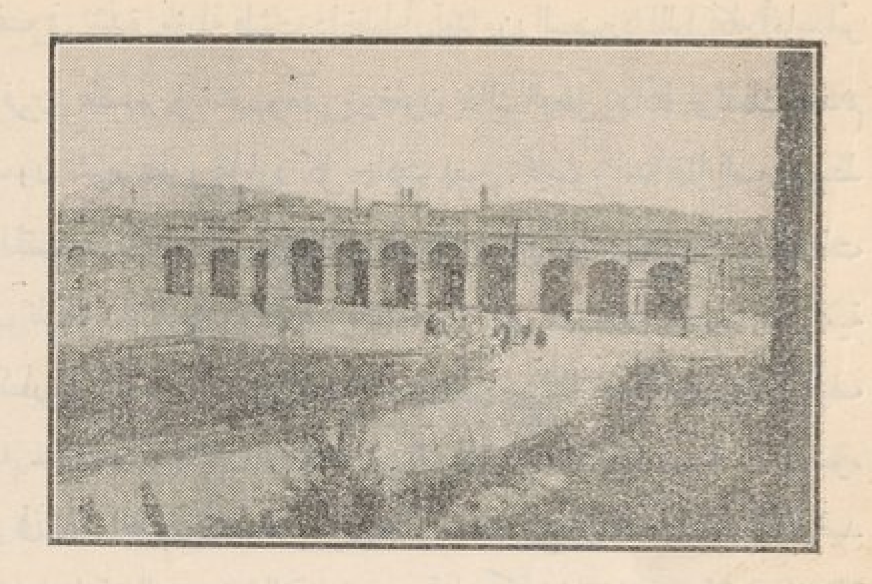


بقايا منشآت (أمان الله خان) وإلى جانب أحد تلك الأبواب
المفتحة أمضيت أسبوعا كاملا

لحيته تحت فمه الكبير وانفه المنتفخ الغليظ وبعد ان قرئت الفواتح والدعوات وانهال الناس على يديه تقبيلا تحركت السيارة بسم الله مجراها وما كدنا نستغرق ثلاث ساعات حتى اعتراها عطب جوهرى وبعد محاولة فاشلة لاصلاحها استغرقت ساعة حمل السائق محور العجلتين (الاكس) رجلا وكلفه أن يعود به إلى هيرات ماشيا على الاقدام ليصلحه ويعود الينا وقد قرر الجميع انه سيعود فى (بنج ساعات فقط) فقلت أيقطع الرجل فى خمس ساعات ما قطعته السيارة فى ست ذهابا وأيابا مما أثبت لى عدم درايتهم بالزمن قط ولبثنا ننتظر اليوم كله الى الصباح اى نحو خمس عشرة ساعة . وكان وقوفنا

هذه المرة فى جوار رهط من البدو ضربوا خيامهم بجانب الطريق يجاورهم مجرى للماء فاحاطوا بنا وسرعان ما احضروا خيمة اقاموها للنساء من ركبنا ثم دعوا فريقا منا لزيارة خيامهم وكانت الداعية هى رئيسة القبيلة عجوز شمطاء قد أحنى ظهرها كر السنين وقد بدا لنا انها صاحبة الكلمة النافذة فى كل من حولها . جلسنا وسط الخيام وكان عددها يناهز العشرين اقيمت فى شكل هلال وأخذنا نسمع جلبة فى داخلها وحركة اهتمام بأمرنا وبعد قليل قدمت لنا قصعة ملئت من فطير صب عليه المسلى فى كثرة عافتها نفسى والى جانب ذلك كثير من الرقاق وكعك اسمر تعوز كل أولئك النظافة ولم تكد النفس تسيغ الاكل لولا أنه فرض علينا وكم تعثرت اسنانى فى الحصى والاوساخ هذا الى قذارة يد العجوز التى كنت أراها تكنس الارض بها وبين آونة واخرى تمخط فيها ثم اعدت لنا بعض الفطير بنفسها وقد تبين لنا انهم فقراء مدقعون فأدهشنا هذا الكرم الذى لا يفارق البدو حتى فى بلاد الافغان وبعد أن أكلنا نحن الاضياف نقل الاناء الى العجوز جوارنا فأكلت منه قليلا ثم سلمت ما تخلف لرجال القبيلة فاكلوا جانبا منه ومابقى بعد ذلك حمل الى النساء داخل الخيام وأكثر من ثلث سكان الافغان من هذا الفريق المتنقل الذين يرحلون بقطعانهم من الابل والحمير والخيل والاغنام وقد هجمت تلك علينا ونحن نأكل عند الغروب حين وفدت من مرعاها فكانت كأنها اليفة مستأنسة يقرب البعير برأسه حول وجوهنا كأنه يقبلنا وكأنه ورث الكرم عن سادته .رجعنا الى سيارتنا وكانت الريح الشمالية

تعصف فى شدة مؤلمة فلبثت داخلها أرتعد من البرد الليل كله أما سائر
المسافرين فلديهم فراشهم وهم يتوقعون ذاك العطل دائما ولذلك تجدهم
لا يهتمون لشىء قط ويقابلون كل حادث بصبر عجيب . استأنفنا السير وسط
تلك المتسعات شبه الصحراوية حتى وصلنا اسلام قلعة وتعطلنا خمس ساعات
بسبب تلكؤ الموظفين وذلك أمر الفناه من قبل ثم جزنا الحدود الفارسية
وفى كاريز فتشت أمتعتنا وواصلنا السير حتى خيم الظلام فاضطررنا للوقوف
حيث كنا لامضاء الليل لان مصابيح السيارة أصابها العطب والسير فى ضوء
القمر فى تلك الطرق الرديئة خطير جدا فسحب كل فراشه ولبثت أنا أرصد
النجم وسط قر البرد حتى الصباح حين قمنا مبكرين نشق سهولا مهملة الا
فى بعض بقاع رأينا بها القطن فى نوره الاصفر البديع ولم يعد علوه القدم
الواحدة مما يشعر بضعف نتاجه هناك والقرى التى كنا نمر بها صغيرة نادرة
والاراضى مهملة الا فى زراعة البطيخ والشمام وهذا جيد ورخيص كنا
نشترى بخمسة مليمات ثلاث شمامات أو أقة من (الانجور) او العنب الذى
تشتهر به البلاد وكثير منه (بناتى) بالغ الحلاوة وكنا كلما مررنا بقرية
أقبل أفواج من أهلها يقبلون ايدى الشيخ (المولاه) ويطول الحديث
بينهم وكان يزورهم أحياناً فى بيوتهم وكلما مررنا ببلدة بها ولى قصد الى
زيارته ونحن له منتظرون فلم أطق صبرا على هذا العطل الممض فأعلنت
احتجاجى وكان الشيخ يفهم شيئاً من العربية فكان كل ما يقوله هو وسائر
المسافرين (صبر كون) أى اصبر لكنى لبثت مظهرا الامتعاض حتى أثر فيهم



دار البلدية في هرات ولعلها البناء الوحيد الجديد بالذكر

وسرنا هذا اليوم بدون توقف حتى اقبلنا على مشهد الساعة التاسعة مساء وكلما هموا بالتوقف للاستراحة صحت غاضباً بالفارسية (راحات لازم نيست) وأول ما بدا قبس من أضواء المدينة المقدسة صاحوا جميعا (لاهم سلي ألى مهمد آل مهمد) ثم قرأ العالم دعوات طويلة جلها مدح في الرضى ولعنات على من قتله ثم اخذ كل يناول السائق بعض انعامه وكنا كلما تقدمنا نحو المدينة في سيرنا البطيء على قبس مصابيح السيارة الفاترة تتكشف أنوار الحرم حتى بدا متلألئا بالثريات التي تكاد تكسو مآذنه وقبابه كلها وتظل كذلك طوال الليل على الدوام فيبدو مشهدها ساحرا. ثم مررنا بمخفر البوليس عند مدخل المدينة حيث وقفنا للتأشير على جوازاتنا وأخذ رجال البوليس يتلكأون حتى ناولهم

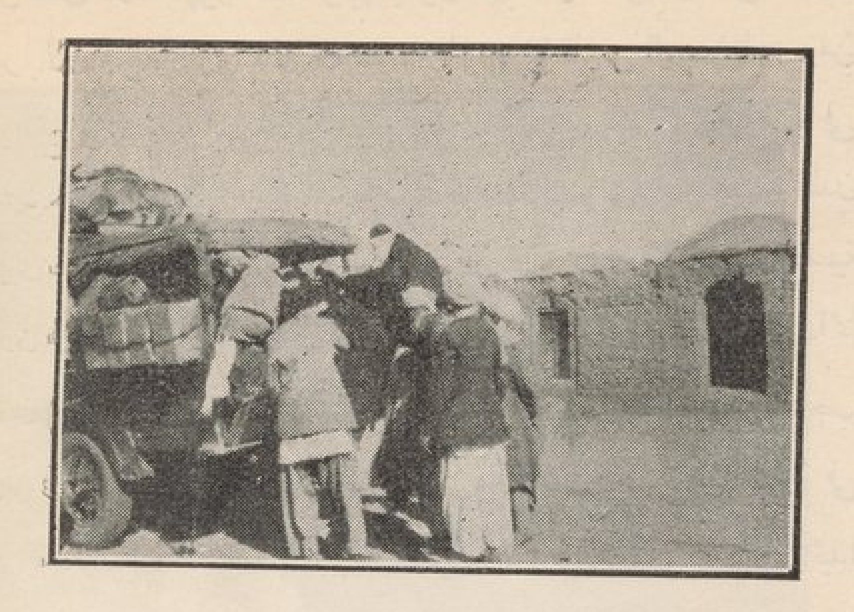
السائق بعض ما تيسر وهكذا كان (القران) هو المذلل لكل الصعوبات فى تلك البلاد ! ونمت ليلتى فى النزل نوما عميقا وكنت اشعر بحمى خفيفة من اثر ما اصابنى من برد الليلتين السابقتين .

وفى الصباح زرت صديقى (أمين غنيمة أغا) وهو بيروتى على جانب كبير من كرم الطبع ورقة الحاشية يتجر فى مشهد فى شئون الحاكى (الجرامفون) ويحبه القوم حبا جما وكانت معرفتى به يوم حللت مشهد لأول مرة فبينما كنت أسير فى الطريق واذا شاب مهذب ينادينى بالعربية وهو يحب مصر ويشيد بذكرها وحوله زمرة من السوريين يتجرون فى السيارات ولوازمها ويربحون من وراء ذلك ربحا طائلا وفى الحق ان الشعب السورى لنشيط يسعى وراء الرزق فى أقاصى الأرض ولا ينسيه حنينه لوطنه المادة والمال فهو يقيم حيث يطيب له العيش ولا يقنع بالقليل زهدا فى التغرب والنزوح بعيداً عن بلاده ولقد كنت من قبل أسيء فهم السوريين لما كنا نراه من شرذمة نفعية ممن يعيشون معهم فى بلادنا ولكن تلك أقلية لا شك توجد فى كافة شعوب الارض مهما سمت

الى طهران ثانية : قمت فى سيارة صغيرة جديدة فكان حظى موفقا هذه المرة اذ سرنا فى سرعة مدهشة عوضت شيئاً مما سلف فقطعت المسافة كلها فى يومين بالضبط وكنا نسير النهار من مشرق الشمس الى مغربها ونستريح الليل وقد بدا طريق خراسان ممهدا بالنسبة لطرق الافغان الوعرة لكن لم تخل رحلتى هذه أيضا من تنغيص هو التراب الذى أفسد

على كل شيء مزاجي وملابسي لذلك كنت اضطر للوقوف مرة كل ساعتين اغسل وجهي بالماء . وأكثر من النصف الأول من الطريق سهول تحفها التلال في الآفاق وتكثر بها القرى وتزرع بها بقاع متفرقة وهنا أرض التركان الذين كانوا نذير الفزع وقطاع الطرق وكانت تخشاهم حتى الحكومة نفسها فكم أبادوا من قوافل ونهبوا من متاع وأموال لكنهم اليوم عادوا أطوع للحكومة من سائر الطبقات بفضل شدة الشاه الحالي الذي ضرب على أيديهم وأخذهم بالقوة فأينما سرنا كنا نرى محاط البوليس بأسلحتهم الكاملة والايرانيون يفاخرون اليوم بأن الأمن سائد في جميع بـــلادهم رغم مافيها من مخابىء ومفاوز .

ويقولون بأن الشاه يمر بنفسه على الحكام ومخافر البوليس متخفيا في الليل والنهار مهما بعدت أطراف الاقليم ليقف بنفسة على مايجرى ولا يترك صغيرة تنفذ في البلاد كلها دون أن يجيزها بنفسه حتى ترقية الضابط او الموظف الصغير وكان يرافقني في السيارة شيخان عراقيان وسيدة وفدوا للحج الى مشهد وكانوا كلما مرت بنا سيارة تحمل الحجاج يصيحون عاليا (التماس دعاء) ولقد عجبت لكثرة تلك السيارات فقد أحصيت في سبع ساعات من الليل ثلاثين سيارة كبيرة متوسط حمولة كل عشرون شخصا اعني نحو مائة سيارة في كل يوم بها ما بين ١٥٠٠ ، ٢٠٠٠ من الحجاج يفدون الى مشهد مع العلم بأنا لم نكن في موسم الزيارة فأدهشني هذا الايمان العجيب في الرضى ومكانته السامية من قلوبهم وكثيرا ما سألني رفقاء السفر (أفي مصر شيعيون؟) فأقول كلا وعندئذ



المسافرون يتأهبون للرحيل عن هيرات
بعد أن انتظرنا قيام تلك السيارة أسبوعا كاملا

يبدون علامات الاسف ويرمقونني بنظرات كانت تنم عما تكن قلوبهم لنا من لعنات

استرحنا ليلتنا الاولى فى (سبزوار) وهى عاصمة ولاية كبيرة وفى ظهر اليوم التالى وقفنا قليلا (بشاروت) وهى شبيهة بسابقتها وبعد (سمنان) وهى من العواصم الكبيرة انتهت السهول وبدأت الربى بتعقيدها الشديد فاخذنا نصعد ونهوى فى ليات مخيفة من دونها الهوى والوديان السحيقة تتوسطها مجارى الماء ومن حولها الشجر والقرى وقد كان البرد شديداً وبدت بقع من الثلج الابيض فوق الذرى والثلج يكسو بلاد خراسان كلها وغالب بلاد

فارس مدى ثلاثة شهور الشتاء وفيها يكون البرد قارسا والسير فى الطرق متعذرا لان جوها قارى متطرف شديد الحر صيفا قارس البرد شتاء . ومن هذا الثلج وما يجمد من النقائع يدخرون جليد الشرب (ياخ) فى سراديب عميقة فى الارض تفرش بالغرائر (الخيش) ومن هذا تستمد المدن والقرى مرطبات الصيف وانا لانكاد نمر فى طريق اوقرية الا ونرى الصبية يحملون الماء والثلج فى كتل غير مشذبة تمازجها الاتربة والاوساخ وهم دائما ينادون (آب ياخ) اى (الماء الثلوج) وهو زهيد القيمة جدا . ومن أعجب المناظر فى طهران الحمالون الذين يسيرون وعلى ظهورهم كتل من الثلج فى حجم الصخرة الكبيرة يكسوها القش والاتربة يسير الرجال بها وئيدا وهى تقطر ماء من جميع جوانبها ويقولون بان هذا الثلج خير للصحة من الثلج الصناعى .

هبطنا آخر الربى فبدت طهران وسط صحراء مجدبة فى بقع متفرقة خضراء كأنها الواحة وقد شعرنا بأنها أدفأ جدا من أرض خراسان . استرحت فى طهران يومين زرت فيهما بعض مساجدها الفاخرة بقبابها المتعددة ومناراتها القصيرة ثم البرلمان المتواضع وكنت أمضى كثيرا من وقتى فى دار المفوضية المصرية وهناك كان يؤنسنى آلها بما جبلوا عليه من الخلق النبيل والطبع الكريم وكم اسدوا الى من خدمات سهلت لى كل عسير ورجال المفوضية على جانب عظيم من الاخلاص والجد والخلق العظيم يمثلون مصر فى تلك البلاد الاسلامية تمثيلا مشرفا يشيدون بمجد مصر ويقومون لها بدعاية طيبة وللسفارة



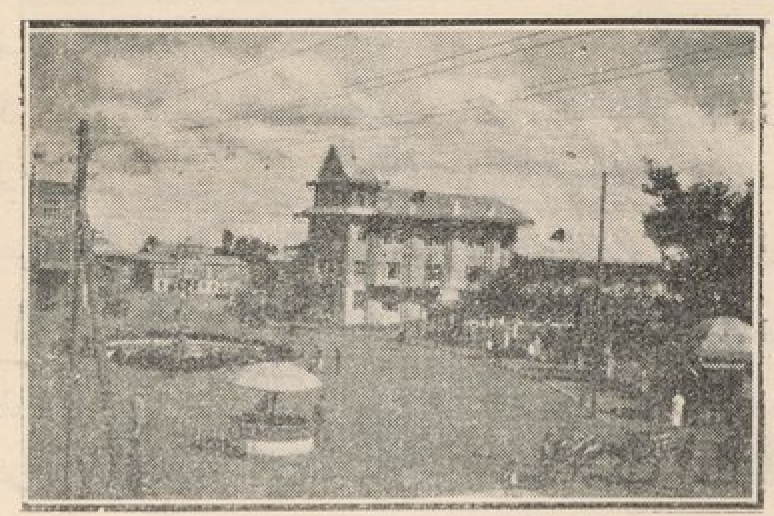
جباة الضرائب خارج أسوار هيرات
وترى أكداس النقود الفضية أمامهم إذ ليس فى البلاد نقود ورقية

داران أحدهما فى وسط البلدة وبها دار لوزيرنا الهمام ينزلها شتاء ومنزل الصيف فى ضاحية تسمى (شمران) فى حصن جبل (دمافاند) ويقطنها طبقة الارستقراطيين والاغنياء والسفراء والداران من القصور الفاخرة التى تدل على الفرق الشاسع بين ماكان عليه الحكام والارستقراطيون . وهم أقلية فى قوم فارس من البذخ والرفه وبين ما كان عليه العامة من البؤس والشقاء ويخيل الى أن همهم كان ابتزاز المال من الناس والاستمتاع به دون أن يعنوا بشئون العامة كثيرا ولا قليلا وكان يعرف عن حكام الفرس

أنهم يولون بكثرة ما يدفعون للشاه وللحكام والوزراء من مال وكانت
كل الوظائف تباع وبعد قليل يوقف الموظف ليولى بدله على أن المرفوت
يخرج موفور المال رغم قصر مدته فى العمل ويقص البعض أن أحد الولاه
هناك بكى ليلة ولما سئل عن ذلك قال بأن النهار قد انقضى ولم يزد ما جمعه
على الف جنيه فقط وكاد يؤيد هذا لدى ما رأيته

فبعض تلك القصور قد بلغت من الوجاهة حدا لا يكاد يرى فى
الممالك الاخرى بينا ترى سواد الامة فى أجحار وأقبية من الطين ليس فيها
وسائل الراحة أو شئون الصحة حتى شهر عن الفرس التقشف وأنهم لا
يعنون بوسائل الراحة والترف كما يعنى بها الاوروبى وقلة وسائل الترف
لا تؤثر على كرامتهم أو سمعتهم فى نظرهم وهم يعدون ذلك فضلا يجب
على الغربيين ان يتعلموه عنهم

الى بحر الخزر: قمت صوب شمال طهران لأرى الجزء الشمالى من
إيران وما كدنا نخرج بوابات المدينة — وبوابات طهران فاخرة تؤدى
منها الى جميع الجهات وهى أخص مما يسترعى نظر السائح هناك — حتى
استوقفنا البوليس كعادته ولما رأى الجواز قال هذا لا يكفى ولا يباح
الخروج من طهران إلا بتذكرة من (النظمية) قلت ولكنى سائح
سأغادر بلادكم قال هذا لا يكون ولابد من العودة والحصول على الترخيص
المطلوب وكان رفيقى فى السيارة من كبار الموظفين فتعاونا على افهام رجال
البوليس بان تأشير النظمية موجود وأروهم طابعا فيه وبعد جدل طويل غلبتهم



الميدان الرئيسي فى رشت

حيلتنا وجزنا النطاق وقد ساعد على ذلك جهل البوليس فهو هناك لا يكاد يعرف القراءة ٠

لبثنا نسير من السادسة مساء الى الاولى صباحا وقد تعب رفيقاى وكان أحدهما طالبا فى بروكسل وهو عائد لاستئناف دراسته عن طريق بحر الخزر والروسيا فاضطررنا ان نوقف السيارة وسط الطريق ونمنا ونحن قعود بها وادهشنى ان رفيقاى قد شعرا بارتباك فى المعدة اعقبه قىء من أثر ارتجاج السيارة فاذكرنى بمرض البحر وما كان يسىء الى يوم كنت حديث عهد بركوبه ومسافة الطريق الى بحر قزوين ستون فرسخا — أى نحو اربعمائة كيلو مترا كانت المناظر فى النصف الاول منها مألوفة من ربى تحوط متسعات

من أرض مهملة وما كدنا نوغل فى النصف الاخـــير حتى زادت عقد الجبال فى صخرها الاغبر المنحل وغالبه من الجير الذى اسود بمضى السنين وكثرت الالتواءات الارضية وزادت طياتها وكنا نشاهد ذلك فى جوانب الجبال واضحا واخذ الطريق يعلو ويهبط ويلتوى على نفسه مرات متعاقبة وعورة لم نعهدها من قبل وقبيل :

الرشت : بنحو خمسين كيلو مترا اخذت صفحة الجبال المعقدة تتغير معالمها اذ كساها الشجر القصير فى تفرق أعقبه تلاصق عاجل وما نشعر الا ونحن نوغل فى غابة كثيفة اذكرتنى بمناطق الغابات الصميمة فى افريقية وكنا نجانب وادى نهر يسمونه (النهر الابيض) فى اتساع عظيم وهو يتلوى ليات متعاقبة وسط تلك الجبال اللانهائية وكل اولئك جبال البرز المعروفة أما ماء النهر فكان آسنا اذ يفيض بالماء ابان الشتاء حين تكثر الثلوج التى تمده بالماء ولقد ظلت المناظر رائعة ساحرة خلاف ماعهدنا فى ربى ايران المنفرة الى عريت كلها عن النبت ونضبت مياه مسايلها وكان منظر بعض الوهاد بقراها كالمناظر التى شاهدتها فى بعض جهات اسكندناوة أو سويسرة على ان الشجر مختلف فليس لاشجار الصنوبر من أثر حتى فى أعالى الذرى وكله من اشجار البلاد الحارة تكثر حولها الطفيليات النباتية والاعشاب المتسلقة التى تسد الغابة سدا ولذلك يطلق القوم عليها كلمة *(Jungle)* الانجليزية

وكلما قاربنا الرشت بعدت عقد الجبال ، انفسح السهل وغص بالقرى والمزارع التى شهرت من اجلها البلدة وبخاصة فى الارز والطباق وهذه الناحية اشهر

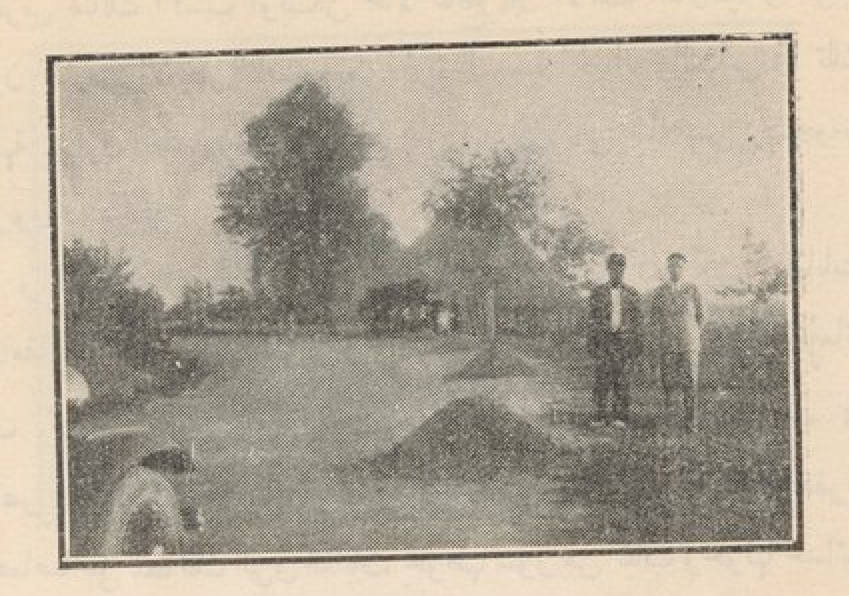


على شواطىء بحر الخزر فى بهلوى

بلاد فارس فى الزراعة والطباق اليوم آخذ فى الزيادة هناك على حساب الارز وقبيل الساعة العاشرة صباحا دخلنا : الرشت : التى كانت عاصمة بلاد الديلم قديما وهى اليوم عاصمة مقاطعة جيلان بدت مدينة عامرة كبيرة اخف روحا حتى من طهران نفسها وارضها انظف وأهلها اكثر حركة ورشاقة وقد حاكت المدن الاروبية ويظهر انها تأثرت طويلا بالروس يوم كان لهم النفوذ فى هذه المنطقة لذلك كانت جموعهم كثيرة فى البلدة نساء ورجالا واللغة الروسية منتشرة بين الجميع الى جانب الفارسية وغالب مبانيها من طابق واحد تظهر وكأنها اقيمت كلها من جديد والبيوت ذوات سقوف متحدرة يكسوها الآجر الاحمر خلاف ماشاهدنا فى سائر جهات فارس ذلك

لان مطر المنطقة غزير جدا يفوق مقداره المتر ويظل المطرا كثرمن ثمانية شهور وبخاصة فى شهور الشتاء ولم تخل السماء من الغيوم ساعة واحدة وكان الجو أميل الى الرطوبة وسببها رياح سائدة تهب شمالية غربية من بحر الخزر على تلك المرتفعات فتغرقها مطراً وتكسو ذراها ثلجا وفى الشتاء تزيدها اعاصير البحر الابيض التى تندفع من قزوين الى بحار الهند الدفئة وخفيفة الضغط حتى فى هذا الفصل الجاف لذلك قل بها التراب الذى كان ينغصنا فى بلاد فارس كلها وكان جوها لطيفا محتملا عن طهران ألا اذا انكشفت الشمس عن الغيوم فعندئذ يصبح الحر شديدا على ان الجهة تعرف بكثرة الحميات فى جوها غير الصحى بسبب الحرارة والرطوبة معا وقد زادها حرا انخفاض سطح بحر الخزر وهو اوطأ من مستوى البحر الاسود ٨٤ قدما لذلك يجرى القول على لسانهم هناك : ماذا اذنب فلان حتى يولى حا كما على الرشت : على ان حظى كان موفقا اذ كانت أيامى هناك اجمل ايام قضيتها فى ايران كلها . وبالمدينة مجموعة من متنزهات منسقة انيقة تقوم بها المقاهى الحديثة وفيها يسمع المرء الموسيقى الشجية وقد اختلطت الانغام الفارسية بالروسية وكلاهما مما تستريح له آذاننا

اقلتنا السيارة الى بهلوى على شواطى بحر الخزر — ولا يسمونه هناك بحر قزوين قط — والمسافة اربعون كيلو مترا فكان الطريق يتلوى وسط الاحراش الكثيفة المغلقة التى حاكت الاحراش التى رأيتها فى بنغالة فى بلاد الهند ويقولون بان فيها كثيرا من الحيوان المفترس خصوصاً النمر ومن أعجب



نبدأ دخول الغابات الكثيفة حول بحر الخزر

ما رأيت فى الطريق كثرة الكروم البرية التى كانت تنمو فى كل مكان
ويقول البعض ان كروم اوربا جاءت عن تلك الناحية وعن القوقاز . اخذ
الشجر يقل كلما قاربنا البحر حتى انعدم واضحت السهول تكسى ببساط من
خضرة الى البحر وكنا نرى بيوت القوم اخصاصا من اعواد الخشب يكسوها
القش الثقيل فى شكل مخروطى او منحدر السقوف فذكرت مساكن الغابات
الاستوائية على ضفاف فكتوريا نيانزا تماما والقوم يستأصلون الاحراش
من مساحات يزرعونها من الارز والطباق والقطن والكتان والعمل يقع
كله على السيدات اللاتى كن يظهرن فى ملاءات بيضاء ناصعة وقد استرعى
جمالهن نظرى فهو مخالف للسحن الفارسية البحتة ويظهر ان اختلاط الروس

بالفرس هنالك اكسب اولئكن جمالا عالج كبر الانف الفارسية وأشرب اللون الفارسى الابيض الناصع بعض الحمرة الروسية الجذابة والناس فى تلك الجهة يمونون انفسهم بكل شىء من عمل ايديهم وحتى الملابس ينسجونها ويربون دود القز .

والمنطقة المجانبة لبحر الخزر الى شمال جبال البرز كلها كثيفة الغابات من مقاطعة (مازندران) شرقا الى (اذربيجان) غربا وسكانها يفوقون مائة الف وكل تلك السهول من مخلفات بحر الخزر الذى كشفها وهو آخذ فى النقص من أثر البخر الشديد . اخيرا دخلنا بهلوى : فكانت بيوت الفقراء اخصاصا على نمط تلك التى فى الغابات يحوطها سور من غاب وحولها حدائق لا بأس بها وعلى البحر اقيمت الميناء تحفها مجموعة من أبنية غالبها للجمرك ومرسى السفن وتصف ازاءها الزوارق للنزهة وتلك الجهـــة تسمى (غازيان) واذا ركبنا البحر أقبلنا على شبه جزيرة تبدو بها المبانى الفاخرة والشطآن المنسقة وهذه هى (بهلوى او أنزيلى قديما) . ركبت البحر إليها فى ربع ساعة واذا بها آية فى التنسيق والنظافة بيوت فخمة وطرق مرصوفة ومتنزهات عدة وقد مدت على شاطىء البحر الحدائق والمقاهى فكنت وكأنى فى احدى مدن الرفيرا تماما وفى الحق أن تلك الجهة من فارس فريدة تختلف عن سائر جهات فارس فى كل شىء فى طبيعة الارض وفى الجو وفى النبت وحتى فى سكانها فهم اكثر نشاطا وجمالا أما الناحية الخلقية فهى هنا اكثر فسادا ولا شك ان للاباحة الروسية المقيتة اثرا كبيرا فى ذلك . قامت



على مياه بحر الخزر (وهو بحر قزوين فى عرفنا وبحر طبرستان عند القدماء)

الباخرة الروسية من الميناء تقل رفيقى الى باكو فى ثمان عشرة ساعة ومن ثم يستقل القطار الروسى الى بركسل وقد حدثنى طويلا عن الروس وماهم فيه من بؤس مميت اذ لا يكادون يحصلون على القوت يجبرون على العمل مقابل تذكرة تبيح للواحد منهم تناول الطعام من مطاعم الدولة وكثيرا ما ينتهى الطعام قبل ان يحصل جميع الناس عليه لكثرتهم فيطردون الى الغد والحياة هناك غالية غلوا فاحشا حتى لاهل البلاد ورقابة البوليس بالغة الشدة ولكن رغم ذلك يفد الكثير من الناس الى البلدان المجاورة هروبا من ظلم واقع وجوع محيق وقد لاحظنا من هؤلاء جموعا غفيرة فى بلاد فارس والافغان ويقول صاحبى بان سكة الحديد الروسية

القوقازية قذرة جدا لا يجد الواحد فى الطــريق شيئا يبتاعه قط ليتبلغ به ومن الغريب أن الجيش والبوليس وهم نفر قليل يسيرون الامور على هذا الحيف القاتل ولا يستطيع الناس القيام ثائرين لعجزهم وعوزهم وأنت تدهش اذ ترى بعض المنتجات الروسية تغرق الاسواق الخارجية فالسكر يرد الى فارس بسعر قرانين للأقة (اى نحو قرشين) ثم يعيده المهربون من فارس الى روسيا ليبيعوه بعشرين قرانا للروس أنفسهم وكذلك السجاير وبعض المنسوجات . تفعل حكومتهم ذلك بقصد الدعاية للسوفييت ولا أدرى ما قيمة الدعاية لنظام فاسد أهلك الاهلين ألا نفرا قليلا من السادة هناك

واليوم فقط (الخميس ٧ سبتمبر) حققت حلماً طالما جال بخاطرى هو ان أركب بحر الخزر - وهو بحر طبرستان - يوما وأطوف بسواحله ذات الطبيعة المختلفة من غابات كثيفة تغص بها سهوله الجنوبية الى غابات جبلية فى غربه الى كلأ وعشب شبه صحراوى فى شرقه الى أرض مالحة فى شماله . لكن الشبح الروسى لم يتح لى التجوال كاملا فلبثت اليوم كله أجول فى مياهه الفارسية وراء ثغر بهلوى وقد كان ماؤه أملس هادئا على أنه أبان العواصف يعلو موجه ويضطرب وقد تذوقت ماءه فاذا به قليل الملح على خلاف ما عهدت فخلت ذلك راجعا الى قرب بعض المصاب العذبة من تلك الجهة لكن القوم خبرونى أنه أميل الى ذلك فى كل أرجائه ودللوا على ذلك بكثرة اسماكه نوعا وعددا ولذلك كانت مصائده هامة للدولتين الروسية



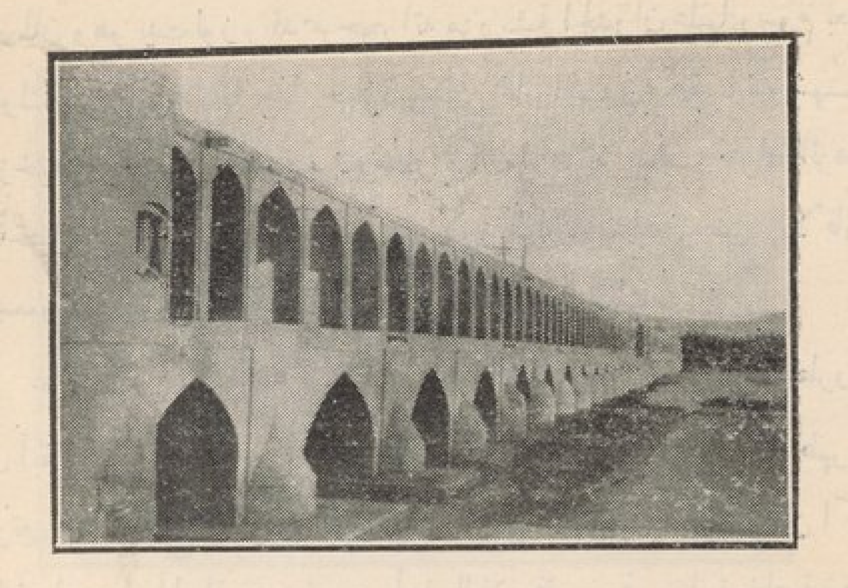
خيابان جهار باغ (الحدائق الأربع) فى أصفهان

والفارسية وكانت زوارق الصيد تسد الافق سدا والسمك غذاء رئيسى للناس فهو والارز عماد الطعام وكان لهما أثر حسن فى أجسامهم فهى هناك ممتلئة عن سائر جهات فارس الاخرى اذ لم أعثر على القامات الطويلة والاجساد السمينة الا فى تلك الناحية من بلاد فارس كلها

اصبحنا يوم الجمعة والجو جميل والسماء تنتثر بالغيوم المتقطعة وقد أمضينا ليلتنا فى نزل (سافرى) فى رشت وهو يطل على ميدان البلدة الجديد الذى تمتد منه الطرق المستحدثة البديعة وتزينه المتنزهات والمنظر من شرفة النزل رائع : السماء تنقشها الغيوم والخضرة تمتد الى الآفاق والمبانى حولنا فاخرة وجماهير الناس فى أنظف ثيابهم — لانه يوم الجمعة يوم الراحة القومية

يروحون ويغدون فى كثرة تسترعى النظر ولا يخلو الجمع من طائفتين : الغانيات فى أزارهن الاسود المهفهف والمتسولين الذين يمسكون بتلابيبك يصيحون فى نغمة البائس المتماوت قائلين أرباب . . أغا . . واكفهم مبسوطة وكثير منهم من يظهر فى هندام نظيف ووجه مشرق مما أثبت أنهم على شيء من اليسار لكن التسول اضحى فى القوم عادة متأصلة ذميمة . وكثير من مبانى الرشت وبهلوى بالخشب لكثرة الغابات حولهما لذلك نرى فى كل برجا عاليا يظل فيه الرقيب ليلا ونهارا لينذر بالحريق اذا مابدا دخانه أو لهيبه فى اية ناحية من البلدة

قمنا فى الاصيل مودعين رشت ومنطقتها البديعة التى تصلح خير مستراض فى الربيع والخريف واخذت سياراتنا تشق الخضرة التى زادت كثافتها تدريجا وبعد ان قطعنا ثلاثين كيلو مترا بدت جبال البرز اعنى ان السهول الى البحر تمتد سبعين كيلو مترا وكانت الاشجار الكثيفة تغطى الجبال الى اعلى ذراها والربى تبدو مدرجة الواحدة وراء الاخرى وسحاب السماء يكاد يلامسها وان لم يبد للثلج فوقها من أثر وكانت طيات الوديان بمائها الشحيح تختفى وراء الربى تارة ثم لا تلبث ان تنكشف فى مباغتة تقر لها العين وكان المنظر العام ونحن وافدون من الرشت أروع منه لمن يدخل البلدة قادما من طهران وظل جلال الغابات حولنا زهاء خمسة وعشرين كيلومترا ثم ندر الشجر وانعدم فجاءة واضحت عقد الجبال قاحلة منفرة مسافة ذرعها سبعون كيلو مترا كان الطريق فوقها طيات

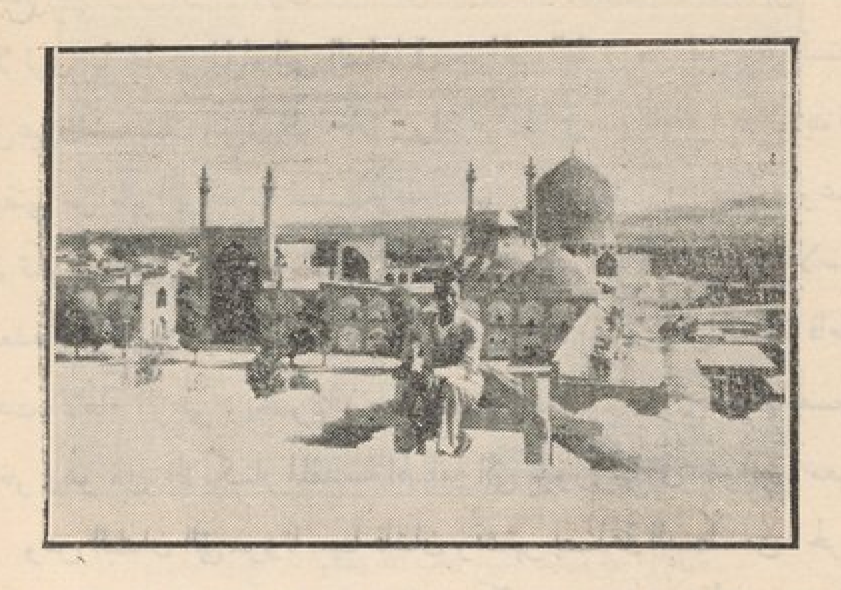


قنطرة جلفا اعجب قناطر الدنيا فى اصفهان

قاسية رهيبة خصوصا فى ضوء القمر الشاحب وفى سكون الليل الموحش وفى باكورة الصباح دخلنا طهران للمرة الثالثة وكان معى موظف كبير فى المالية ومعه اولاده الصغار وقد الفت نظرى أنهم يدللون النشء لدرجة انك لو كلمت الرجل فى شأن ابنه (حسين) مثلا عاد فكرر الاسم قائلا ابنى (حسين خان) ويبيحون لهم تدخين الطباق امامم وهم لم يبلغوا الحلم بعد . ولما اردت ان أتشرف باسم الرجل نفسه قال فى نغمة مضخمة أسمى (أغا على خان) وقد زرت فى رفقته بعض القصور ثم كان وداعى لحضرات ممثلينا الكرام فى المفوضية المصرية العامرة

وقد تناولنا طعام الغداء فى مطعم فارسى بحت يسمونه (لوقانطة) أمام دار البرلمان وهو بيت لوزير قديم حجراته مزركشة الجدران عليها رسوم بعض ملوك الفرس وعظمائها وبها حجرة وسطى يحار اللب فى تعقب نقوشها وزخرفها والفناء مكشوف تتوسطه بركة ماء هائلة نسقت حولها الزهور وأخص الوان الطعام الفارسى الارز الفارسى عليه بعض الأفاويه ويسمونه (بيلوف) والكباب الشهى المسمى (شيشيك)

عرجت على (النظمية) لانجاز جواز الخروج من طهران فاضطررت أن أبقى يوما سائلا حتى فاتتنى سيارة البريد التى تقوم الى جنوب طهران مرتين فى الاسبوع وتضييق البوليس فى فارس قد بالغ فيه فأضحى من اكبر المنغصات على المسافرين حتى من أهل البلاد فقمت فى سيارة خاصة رفقة بعض الطلاب وقفوا بنا طويلا فى ناحية تبعد عن طهران بسبعة كيلومترات ويسمونها (حظرت عبد العظيم) على اسم عالم وولى أقاموا له ضريحا هناك زرته فادهشنى اتساعه وعظيم زخرفه وفى حجرة منه دفن السلطان نصر الدين شاه فى ضريح من المرمر الشفاف فى خرط بديع ويقوم تمثاله ومن حوله عدة علماء تعلق فوق كل منهم صورته الزيتية الكبرى وتلك ظاهرة استرعت نظرى اذ لم يكن يباح فى الاسلام اقامة التماثيل ولا وضع الصور المكبرة هكذا ويظهر أن الشيعة أكثر مرونة وأميل الى الاباحة من أهل السنة .
(وحظرت عبد العظيم) مزار مقدس وبخاصة عند النساء اللاتى يعتقدن أنه يفك عسر العقيم منهن . هناك تعطلت السيارة لان رفقائى أضافهم للغداء



من قصر الشاه عباس اشرف على (ميدان شاه) يزينه (مسجد شاه) فى أصفهان

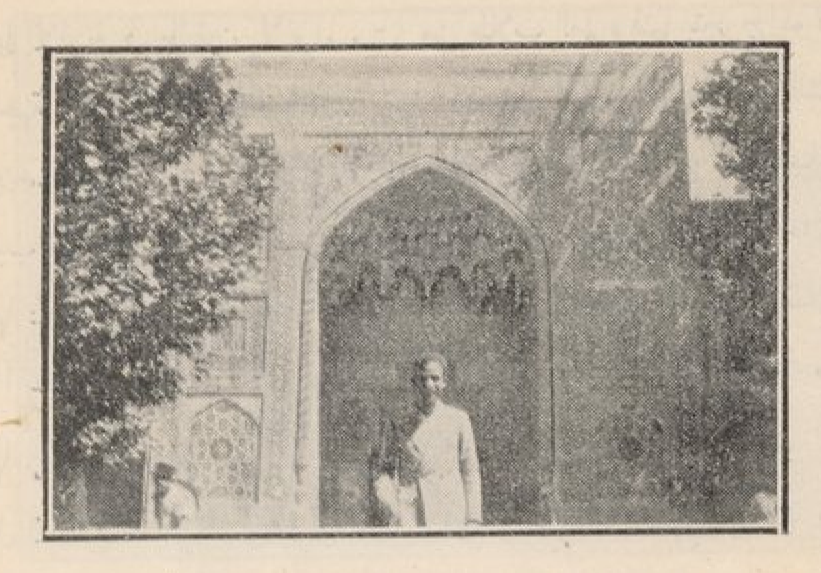
أقرباؤهم ولما طال بى المكث صحت محتجا فتكاثروا على حتى أدخلونى دارهم فاذا هى من الداخل فسيحة مشيدة تتوسطها الحديقة الفارسية وحوض الماء وتلك شهرة لفارس من قديم وهم يقيمون أوجه أبنية البيت فى مواجهة المدخل وبيت الحريم يبعد الى الداخل وفى غرفة الاستقبال جاسنا القرفصاء على البسط الوثيرة (وصموار) الشاى متقد الى جانبنا لسق الاضياف من الشاى الأخضر زكى الرائحة

قمنا نشق طريقنا وسط سهول زراعيـة تربتها سوداء الى مسافة ثلاثين كيلومترا ثم بدأت التجاعيـد الجدبة المنفرة فاضحى المنظر صحراويا شديد

المحل وقد ظهر الى يسارنا متسع لانهائى من بسيط تكسوه الرمال يختلط بها الملح المبيض وندرت القرى جدا حتى انا كنا نمر بالقرية الصغيرة كل ساعتين فلا نرى بها مجارى المياه التى الفناها فى جوانب الطرق من قبل وهى تستقى من عيون أشبه بتلك التى فى الواحات. وقد صادفنا فى سيرنا سيارة البريد التى سبقتنى من طهران أصابها عطب فوقفت اليوم كله فقلت فى نفسى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) بعد أن أسفت لفواتها أمس شديد الاسف وبعد مائة وخمسين كيلومترا من طهران وقفنا ببلدة (قم) مدفن السيدة فاطمة أخت الامام الرضى ويسمونها (معصومة) وقد اقيم حول ضريحها مسجد فاخر وهو من الامكنه المقدسة الهامة التى يزورونها فى مواسم معينة

ومن البلدان التى مررنا بها قاشان وتشتهر بصناعة البسط من الحرير فى جميع الاحجام. استعرضت بعضها فاذا بها آيات فنية لذلك لم أعجب من غلو أثمانها فكان بعضها يباع بمائة جنيه للقطعة على ان الانسان يستطيع ان يبتاع قطعة صغيرة بمائة تومان (اى اثنى عشر جنيها) وقد أردنا امضاء الليل هناك لكنهم اخافونا لانها تغص بالعقارب لدرجة مخيفة حتى أن التجار انفسهم لايستطيعون المبيت فيها فواصلنا سيرنا الليل كله وفى الصباح أقبلنا على :

أصفهان : أو أصبهان (وطن ابى الفرج الاصبهانى صاحب كتاب (الاغانى) وكثير غيره من أهل العلم والادب) بعد ان قطعنا نحو خمسمائة كيلو مترا فى اثنتى عشرة ساعة فالفيناها فى حجر جبل من دونه سهول مترامية

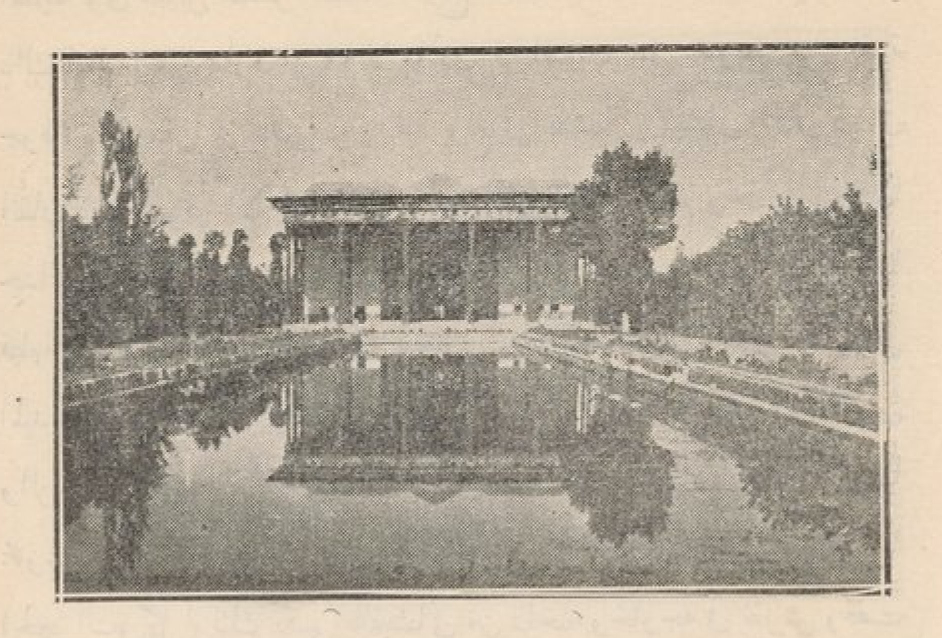


امام واجهة مسجد الشيخ لطف الله بنقشها الرائع ـ اصفهان

فى تربه سوداء غنية بمزارعها على ان مدخل البلدة مترب منفر لا يوحى بشىء من العظمة التى خبرونى عنها هنالك ثم حللت نزل (امريكا) الجميل الذى يطل على اهم شوارع البلدة ويسمى (خيابان جهار باغ) اعنى طريق الحدائق الاربع وهو فى امتداد عظيم واستقامة تكاد تشق المدينة كلها وتعبر النهر وتمتد الى ضاحية (جلفا) وكأنه ثلاثة طرق متجاورة الاوسط الفسيح تحفه اشجار الشنار الهائلة وهى متجاورة تكاد تظل الطريق كله يجانبه طريقان آخران أقل سعة وبينهما وبين الاطارين شجر يماثل الاوسط وفى مجاورة صفوف الشجر مجارى المياه المألوفة فى بلاد فارس كلها وهو مستراض الناس طيلة اليوم وبخاصة عند الاصيل حين يغص بالغانيات يتلمسن من المارة رفيقا

وتطل على وسطه مدرسة (جهار باغ) الدينية تحت قبة زرقاء بديعة تمتد حولها الالونة فى طابقين لايواء ١٦٠ من طلاب العلم وفيها يتخرج المولاه وواجهة أحد المداخل اية فنية فى نقوشها وزخرفها الفارسى البديع اقامها الشاه حسين سنة ١٧٦٠ وفى أحد طرفى الطريق قنطرة جلفا التى تسترعى النظر ببنائها العجيب تقوم البوائك والمقاصير على جانبيها فتتخذ مأوى لمن أراد وتتدلى خلال بعضها درجات تؤدى الى بطن الوادى الذى لايكاد يجرى به ماء الا فى نقائع ضحلة آسنة لاتمنع المرور الى الجانب الآخر مع ان النهر اكبر انهار فارس كلها ويسمونه (زندة رود) الذى يصب فى مستنقع داخلى اسمه (هامون) ويخال البعض انه هو الذى اغرى الشاه عباس ان يقيم عاصمته (اصفهان) على ضفافه ويقول بعض الكتاب عن تلك القنطرة انها افخر قناطر الدنيا وابهاها وقال عنها (كرزون) أنها وحدها خير مبرر لزيارة بلاد فارس . على أنى لم أر فيها من هذا الجلال شيئا اللهم ألا انها غريبة فى نظامها وهندستها وكان يخصص أحد جانبيها لمرور النساء والجانب الآخر للرجال وعلى الجانب الآخر من القنطرة ضاحية جلفا وهى مأوى لطائفة من الارمن المسيحيين الذين خدموا السلطان عباس وبقيت لهم ولذراريهم الى اليوم وهى انظف فى مجموعها من اصفهان نفسها تتوسطها الكنيسة الرئيسيه الهائلة فى الهندسة الايطالية البديعة التى بدت غريبة وسط بلاد فارس وفنها الشرقى البحت

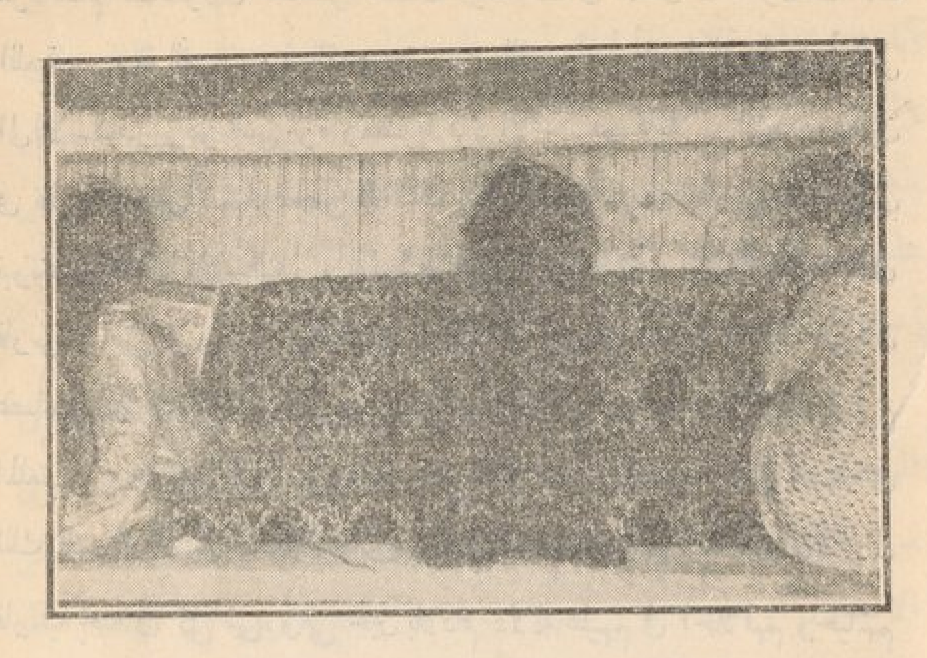
وفى وسط أصفهان (ميدان شاه) موضع شهرة أصفهان وهو فناء مستطيل الشكل فى امتداد لانهائى يشعر بالعظمة حقا يتوسطه حوض ماء كأنه البحيرة



(شهل ستون) بهو استقبال الشاه عباس وتنعكس أعمدته على حوض الماء من دونه

العظيمة ويطل عليه من وسط أحد جوانبه (آلى كابو) او الباب العالى مسكن الشاه عباس وهو شاهق اقيم فى سبعة طوابق يرتقيها المرء بسلم حلزونى ويرد كلامنها بليات وسراديب عجيبة بعضها كالتيه كان الغرض منه اخفاء طريق الهروب أن دعت الحاجة . والجدران كلها نقوش بالذهب والالوان التى يخالها الواحد مورقة والطابق السادس اعد لسماع الموسيقى وجدرانه مخرمة الى سقفه فى أشكال آلات الطرب على اختلافها وفى الطابق الثانى شرفة يسمونها (تالار) اقيمت من خشب على عمد مزركشة وفى وسطها حوض ماء انيق كان يرده الماء فى انابيب أرسلت من جبل شاهق فى طرف

المدينة وفى مقابل القصر مسجد الشيخ لطف الله أقامه الشاه أحياء لذكر ذاك العالم وهو عبارة عن قبة لا مآذن لها اقيمت على مجموعة من اقبية جوفاء تتخذ مقرا فى الصيف والقبة بولغ فى نقشها بالقيشانى الازرق فى اتقان فائق تطوقها الآيات الكريمة فى خط بالغ الحجم وتحف باردانها جدائل من الفيروز ويكسوها الزخرف من خارجها ايضا فهى فى مجموعها قطعة فنية فى رواء خيل الى انها صنعت اليوم . والى يمين القصر يطل على الميدان (مسجد شاه) وهنا يعجز قلمى عن وصف آياته الفنيه فى النقش والزخرف الذى بالغ فيه مبدعوه . قبة هائلة اقيمت على عمد ومن حولها مجموعة من الاقبية تحوطها الالونة تتوسطها احواض الماء وتقوم على جوانبها الحجرات وكل اولئك يكسى بالقيشانى من داخله وخارجه فى نقوش وقفت امامها مبهوتا فهو حقا اجمل مساجد ايران جميعا يأخذ بلبك خصوصا اذا ما أقبلت على واجهته الزرقاء التى تعلوها مئذنتاه الدقيقتان الزرقاوان . ومن نقطة وسط المسجد اذا ضربت الارض أوصحت ردد الصدى صوتك بشكل متكرر ومرتفع يسمع كأنه قهقهة عالية وفى قبالة المسجد من جانب الميدان الرابع مداخل الاسواق وهى ايضا تكسى بالقيشانى ممـــا اكسب الميدان جمالا مقطوع النظير . و تروقك جلسة من شرفة قصر الشاه (تالار) تشرف على كل أولئك وأنت مأخوذ من عظمة ما ترى . مشهد يخدع المرء فيوحى اليه بأنه أضحى من ملوك الارض الجبابرة ويذهب بخيال الواحد الى يوم الشاه عباس وما كان عليه الاقليم من عظمة ورهبة وقد نال منه الدهر اليوم



حتى تلك الطنافس معقدة الرسم يشتغلها الاطفال فى العجم

فاخفى من روائه الكثير وجعل رواده من فقراء السابلة وجماهير المتسولين بعد ان كانوا من علية القوم وعظمائهم فسبحان مغير الاحوال. كان الشاه يجلس فى تلك الشرفة يستقبل الاضياف والسفراء والعظماء ويشاهد حاضرة ملكه وما فيها من حركة ونظام . يمر أمامه الجند يستعرضون من ثكناتهم التى تطوق الميدان كأنها سور من بوائك مزركشة . وكانت تقام الحفلات الرسمية ومن أجلها حفلة عيد النيروز رأس السنة الفارسية وكانوا يشاهدون بها مختلف الالعاب ومصارعة الحيوان والحواة والفرسان وقد احتذى كثير من الملاعب الاوربية حذو ملهى الميدان الفارسى وهنا لعبت كرة البولو لاول

حرة أمام الشاه وكان معاصرا للملكة اليصابات فى انجلترا — وكانت تلك اللعبة معروفة للفرس منذ القدم حتى روى القوم أن أحد ملوك فارس أرسل الى الاسكندر وهو صبي كرة ومضربا فرد الاسكندر قائلا أن الكرة ستكون فى نظره الارض كلها والعصى الاسكندر نفسه وقد عرفت فارس بعد صدق نبوءته اذ دخلها الاسكندر وأسلمها للسلب والنهب وظلت تلك اللعبة سائدة فى فارس وحتى هرون الرشيد لعبها رغم أنه كان قصـــير القامة حتى أن عصاه لم تكد تدرك الكرة وهو ينحنى بها من ظهر جواده ولا تزال قوائم الملعب ترى بقاياها اليوم من حجر . ويمكن للسائح ان هو جلس هنيهة فى تلك الشرفة أن يقرأ صفحة جلية عن أهل العجم وحياتهم . فأصفهان لا تزال فارسية بحتة فى كل شيء وهى خير بلادهم دلالة عليهم فى اخلاقهم وحياتهم وفنونهم التى لم يكد يدخل عليها تبديل وقد كان حكم الشاه عباس هو العصر الذهبي للفن والبناء حتى قال الناس فيه : لما أن مات مولانا عباس مات معه تقدم الفرس وفنهم

وقد حكم الشاه عباس ٤٣ سنة ونقل عاصمته من قزوين الى اصفهان وقد زاره وفد انجليزى لأول مرة فأكرم مثواه ومن رجال هـذا الوفد تعلم الفرس استخدام المدافع فى القتال ولم يكونوا يعرفونها من قبل وكان متسامحا فى الدين دعا سفراء أوروبا اليه وكان اداريا حازما صارما فى الحق ومن قوانينه أنه جعل حكام المديريات مسئولين أمامه عما يقع فى مقاطعاتهم وكان يباشر كل شيء بنفسه ومن أوامره العجيبة (أن الابن اذا عصى القانون

وجب على أبيه أن يقتله فان تراخى الاب فى ذلك أمر الابن أن يقتل أباه فان توانى الابن فى ذلك أعدم الولد وأبوه !) وقد شجع العلم والفن والادب على أنه أهمل تربية أولاده مما أضعف الاسرة بعده وقد أعدم بعض بنيه خوفا من مزاحمتهم اياه فى الحكم لذلك أعقبه خلف ضعيف تسيطر عليهم رجال الدين (المولاه) ثم غزا البلاد الترك الى قزوين والافغان الى أصفهان نفسها وخضعت فارس كلها لملوك الافغان زمانا

ويجرى القول على ألسنتهم بان أصفهان نصف الدنيا ولو لم تكن فى الوجود لما خلق الله الارض جميعا ولا يزال جهالهم يعتقدون أن فى الباب العالى سرا لذلك رأينا كثيرا من الخيوط والخرق موثوقة به تبركا . أما قصر الاستقبال الرسمى فاسمه (تشهل ستون) فى مكان قريب من الميدان وسطه حديقة فيحاء وهو من طابق واحد غالبه من الخشب الذى طلى من داخله وزين بالصور والنقوش للندامى فى مجالس مختلفة والحسان يقدمن الشراب ولوقائع حربية من بينها انتصار جنود فارس على الافغانيين مرة وعلى الاتراك أخرى والصور الزيتية متقنة أذكرتنى بما شاهدته فى قصر الفاتيكان فى إيطاليا ويتقدم القصر بهو الاعمدة الأربعين ولما عددتها الفيتها عشرين لكنهم يعدونها مضاعفة لانها تنعكس على حوض الماء المستطيل الذى يمتد بعيدا امامها . هنا كان يستقبل الشاه عباس اضيافه يجلسون حول حوض ماء صغير تحت السقف الذى بولغ فى نقشه وخرط اخشابه وقد زينت الاركان بقطع المرايا والبلور وهى من احب انواع الزخرف لديهم . كل ذاك



امام المارتين المتحركتين فى جوار اصفهان

البذخ والاسراف جعلنى انكرعلى الشاه عباس ما ادعاه من تقوى يوم ان قام ماشيا على قدميه حتى بلغ موطن الحج فى مشهد التى تبعد عن عاصمته باكثر من الف كيلو متر .

طفت باسواق البلدة بسقوفها الوطيئة وشعابها المختنقة يسير الانسان فيها وكأنه فى تيه لايعرف له أول ولا آخر ويسترعى النظر نوع من الاقمشة المهفهفة يطبع الرجل فوقها النقوش الفارسية بأختام فى الالوان التى ترغبها

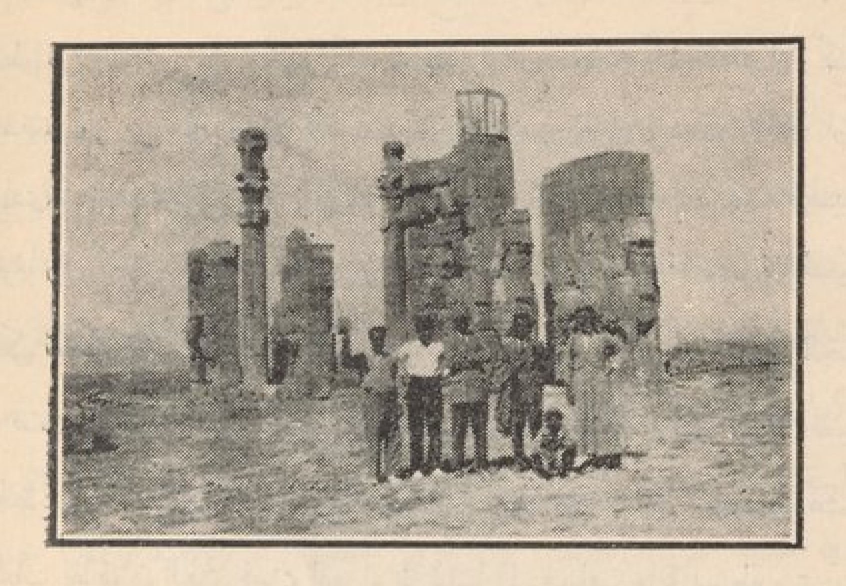
وتلك شهرة لاصفهان . ثم اشغال النحاس الدقيقة . وهناك تكثر المطاعم وباعة الفاكهة ومن اظهرها (الخربوزه) أو الشمام وهى من نوع مستطيل فى لون اصفر برتقالى خشن الملمس وحلاوتها فائقة. والفاكهة هناك رخيصة فأقة (الانجور) أو العنب بنصف قرش كذلك انواع الطعام الاخرى فلقد دخلت مطعما وا كلت الكباب الشهى حتى شبعت وعند الحساب طلب الرجل قرانين أى نحو قرشين ونصف وقد علمت ان الاهالى يستطيعون ان يعيشوا ببضعة شاهيات فى اليوم أى دون قرش مصرى واحد

وفى أسواق أصفهان ضمنى مجلس مع طائفة من مثقفى أهل يزد التى تقع الى شرق أصفهان وهؤلاء كانوا من الزردشتيين أو المجوس عبدة النار الذين فروا فى تلك الصحراء - فيما بين يزد وكرمان - خوفا من العرب والمسلمين ولا يزال منهم عشرة آلاف فيما جاور يزد وحدها وكانوا يضطهدونهم حتى أنهم خصصوا لهم عباءات صفراء ولم يبح لهم لبس العمائم ولا ركوب الخيل الى أمد قريب وقد علمت منهم أن فى يزد (برج السكون) حيث يتركون جثثهم تأكلها العقبان لأنهم من عبدة النار وقد رأينا ذلك فى بمباى فى الهند وكتبنا عنه فى كتابنا (جولة فى ربوع آسيا) وزردشت فيلسوف عاش منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة نشأ فى أذربيجان وكان ذا شخصية عجيبة وكانت تعاليمه تقوم على فضائل كثيرة وقد علم قومه أن الله (أهورا مازدا) يقول بأن هناك نضالا بين الخير والشر وأن الخير سينتصر وقد شجع فى قومه الزراعة وباركها وحرم قتل الكلاب وكان يقول بأن الجنة فوق ذرى جبال

دمافاند وراء طهران تتوجها منطقة بهيجة لا ليل فيها ولا مرض ولا فناء
وظلت ديانته سائدة ثلاثة عشر قرنا حتى اجتاحها الاسلام وساعد على ذلك
أن الحسين تزوج (شهر بانو) بنت آخر الملوك الساسانيين وبذلك ورث
الحسين (العظمة الالهية) التى ورثها من قبل الساسانيون وكانت لكتب
زردشت المقدسة بقية فى مكتبة برسبولس وبعضها بخط يده أحرقها الاسكندر
المقدونى يوم أحرق برسبولس كلها وتلك من اكبر الاخطاء التى ارتكبها
الاسكندر

وقد تفرع عن عبادة زردشت المجوس الزردشتية وظهر لهم رئيس فى
نيسابور أيام ابى مسلم فدعا المجوس ان يهجروا عبادة النار ووضع لهم
كتابا آخر وحرم عليهم الامهات والبنات والخمر وأمرهم باستقبال الشمس
ركوعا فى كل يوم

وبعدذلك قام مانى الحكيم يدعو الى دين بين المجوسية والنصرانية وزعم أن
العالم مركب من أصلين النور والظلمه وأنهما متلازمان لكن أفعالهما متضادة
حسن وقبيح وخير وشر ويضم النور خمسة : النار والنور والريح والماء
وروحها النسيم ويضم الظلام خمسة الحريق والظلمة والسموم والضباب
وروحها الدخان وقد فرض مانى على أتباعه العشرة فى المال والصلوات الاربع
والصدق وترك السرقة والزنا والقتل والبخل والسحر وعبادة الاوثان
ويقول بأن الله بعث زرداشت الى فارس والمسيح الى الروم ومحمد الى
العرب ولا يعترف بسيدنا موسى فى تعاليمه قط



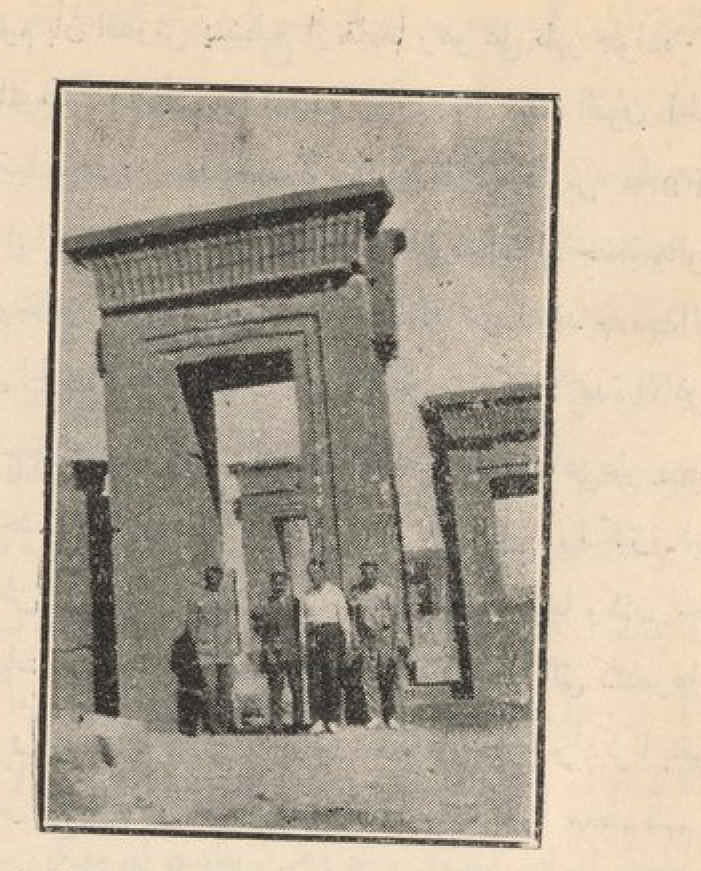
امام مدخل قصر دارا واجزرسيس تتقدمه الثيران ذات الاجنحة
والوجوه الآدمية فى برسبولس

ومن الضواحى التى يقصدها السائحون هناك (الشيخ عبدالله) بها مدفن
ذلك الشيخ تحت قبة تجانبها مئذنتان تسميان (منارات متحرك) ركبت اليها
عربة زهاء الساعة فى طريق وعر مترب منفر وصعدت فوق القبة ثم تسلق
رجلان كل فى مئذنة واخذ الواحد يهز المئذنة فترتج هى ثم تنتقل هزاتها
الى الاخرى فتتبعها اهتزازا ويعزو القوم ذلك الى كرامة للشيخ المدفون على
انى لما انعمت النظر فيهما رأيت بهما كسورا وصدوعا هى التى تسمح لاجزاء
المآذن ان تتحرك وفى ظنى انهما ستنهاران لاشك يوما وبذلك تنهار تلك
الكرامة الموهومة ويثوب القوم الى عقولهم

الى شيراز : قمت صوب شيراز مسيرة خمسمائة كيلومتر تقريبا قطعناها فى شطر من المساء ونهار الخميس كله وسط ارض مغضنة كثيرة الربى وكلها مجدب عار عن النبت الا القتاد وكان جل مسيرنا فى وديان جافة اشبه بوادى حوف عندنا وكم مررنا بحوادث لسيارات انقلبت بمن فيها فاصيبوا جميعا وفى الخامسة مساء كنا فى قرية (سعادت اباد) وفيها اضطررنا للمبيت لكى نتمكن من زيارة برسبولس صباحا والقرية تشبه القرى المجانبة للجبال فى صعيد مصر تماما أو تحكى الواحات بيوتها وضيعة ولقد دعانا طبيب الجيش وأحد ضباطه ان نشرب الشاى فى ثكنته فاذابها خربة متهدمة دهشت كيف يطيقون البقاء فيها ولقد آوينا ليلتنا الى مسافر خانة بسيطة ونمت فى (أطاق) زودنى الرجل فيه (بسجادة) نمت عليها ليلتى نوما عميقا لانى لم أنم الليلة الفائتة . وفى الصباح مررنا بكثير من الخرائب الاثرية من بينها مدر سليمان او قبر سيروز وخرابة كوجاست او مسكن سيروز وكلها اطلال لاتسحق الزيارة وفى التاسعة صباحا اقبلنا على :

برسبولس: او بارس اصطخر او قصر فارس ويسمونها احيانا تخت جمشيد وقد بدت فى حضن الجبل مدينة هائلة باحجارها المشرفة التى اذكرتنى بالكرنك ويقال انها اكبر الآثار القديمة وافخرها بعد الكرنك عندنا اقبلنا على درجها الهائل ذات اليمين وذات الشمال فارتقينا بها علوا شاهقا وكان عدد تلك الدرج مائة واحدى عشرة بلغ من امتدادها وسهولة مرتقاها

أن خبرنا القوم بأن الفارس يستطيع ارتقاءها وهو على ظهر جواده . فوقها
رأينا بقايا تلك المدينة البائدة الى تخيرها دارا الاول بدء القرن الخامس
قبل الميلاد مقرا لقصره وسط اخصب بقعة فى مقاطعة فارس Fars بدا
مدخل قصر دارا وابنه اجزر سيز تتقدمه الثيران ذوات الاجنحة والوجوه
الآدمية فى علو شاهق والى جانب المدخل بهو المائة عمودا وقد تهدمت الابقية
ضئيلة وهى من الجير الابيض البراق نحت فى تجزيع يحكى الاعمدة الاغريقية
وكانت تتوج الاعمدة برؤوس الثيران التى تحمل السقف على علو ٦٥ قدما
والسقف من خشب الارز طعم بالنحاس والبرنز والعاج ولكثرة البرنز
ودقة صنعه ظن أن العصر كان ازهى عصور البرنز جميعا وكان خرط
السقوف فى آيات بينات من الفن وفى بقايا تلوينه فى القطع التى كشفوها من
تحت الانقاض والتى رأيتها فى شبه متحف هناك ما سحرنا وأذكرنا بنقوش
الاندلس وقصر الحمراء حتى ظن البعض أن العرب نقلوا معظم فنهم من
قصر اجزرسيز هذا وابداع الوانها ونقوشها مفخرة للشرق على بلاد المغرب
وكانت تتدلى على جوانب الابهاء البسط الثقيلة الفاخرة لتحجب وهج
الشمس ولاشك أن كثرة الاعمدة الباسقة حاكت فى زمانها غابة من شجر
أبيض ناصع جميل وثم قسم من القصر كشف حديثا ولايزال الالمان
يظهرون خفاياه لذلك منعونا ان نرسم صورا له . ظهرت منه مجموعة درجه
كاملة الحفظ فى النقش البديع والكتابة المسمارية والدرج مزدوج يمينا
وشمالا وبعد قليل ينعرج منعكسا فاليمين يضحى يسارا واليسار يمينا فى ابهة



بقية من ابواب قصر دارا وهي قريبة شبه بابواب الكرنك

وجلال تشعر بعظمة الملك فكم نظر دارا واجزرسيز وهما جالسان فى تلك الجنة استهتارا بالدنيا وتيها على من سواهم من ملوك الارض. على أنى لما رأيت مدخل قصر دارا نفسه وقربه فى الشبه من بوابة الكرنك الرئيسية فى الاقصر ونظام الأبهاء والاعمدة المصرية وانها دون آثارنا ضخامة وروعة شعرت بشيء من الكبرياء لانه بدا لى ان القوم نقلوا طرفا من مدنيتهم عنا وفن تلك البلدة خليط من المصرى والاشورى الى حد كبير ومن الاغريقى الى حد قليل

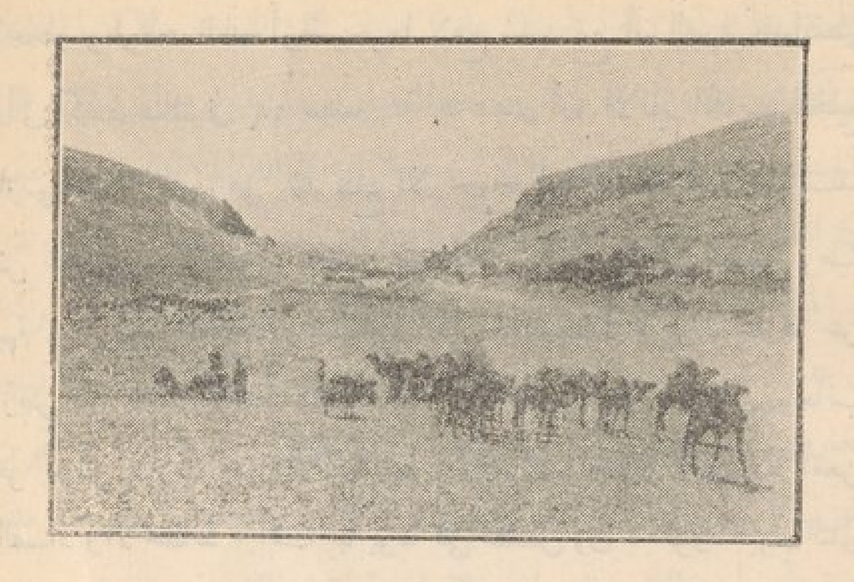
واصطخر كانت مقر ابى اسحاق الاصطخرى صاحب كتاب (مسالك الممالك) وهو من اقدم الكتب الجغرافية عند العرب ويسمونها احيانا تشهيل منار اى ذات العماد

وبعد ان غادرنا برسبولس بنحو ستين كيلومترا جاجلها جبال معقدة اشرفنا على شيراز عاصمة مقاطعة فارس وكانت عاصمة ابن بويه. بدت فى وهدة وسط الجبال وعند مدخلها باب قديم فوقه غرفة بها مصحف كريم بخط الامام على نفسه ويتبرك به القوم فى غدواتهم وروحاتهم وشيراز القديمة مجموعة ازقة ضيقة بيوتها بالآجر يتوسطها (البازار) أو السوق كثير الشعاب فى أقبيته الفارسية المألوفة وامتداده اللانهائى حتى قيل أن نصف سكان البلدة من التجار وخمسهم من اليهود. وجل دور الحكومة قصور قديمة شامخة البنيان فاخرة النقوش أذكر من بينها مكتب البرق والبريد، ومقر الجيش قصر كأنه القلعة وقد اختط خارج القديم قسم من البلد حديث رحب جميل تمتد طرقه الفسيحة الى الآفاق وتجانبها مجارى المياه غير أن الخضرة والاشجار نادرة بحيث تبدو البلدة تحت الجبال وكأنها حلوان. واختلاط القوم وازدحامهم الشديد فى الطرقات الحديثة وبخاصة عند الاصيل يسترعى النظر وميلهم للمجون كبير رغم أن أزار السيدات هناك من النوع العتيق الذى يحكى ملابس الافغانيين

وشيراز تعد خير مراكز العلم والادب الفارسى فيها قبر سيبويه وقد أنبتت كثيرا من علمائهم وشعرائهم نخص بالذكر منهم حافظ وسعدى والاول

كان يميل الى شيء من الزهد والتصوف فى شعره ويقول الغزل فى الحضرة النبوية على مثال عمر بن الفارض أما سعدى فأباحى اشتهر بكثرة المجون والغزل فى الغانيات والخمريات وكان يعده الفقهاء هناك زنديقا ملحدا ولقد زرت مدفنيهما فى حجر الجبل فكان مدفن حافظ وسط بناء فاخر حوله شباك الحديد الملون وبه مشرب شاى كانت جلستى فيه أقرب شيء الى خيال الشاعر خصوصاً عند الاصيل وقد اشرفت على شيراز كلها فى مشهد ساحر لن أنساه . أما مدفن سعدى فأقل اتساعا وأبهة وهو فى مكان ناء عن البلدة وعجبت اذ رأيت حول مدفنه يوم ان زرته جمعاً من النساء والرجال والصبية مرحين يغنون ويصفقون فكأنهم كانوا يرددون شيئاً من نزعة الشاعر وما روى

الى بوشير : قمنا فى سيارة كبيرة الى (أبو شهير) مسلفة تناهز ثلاثمائة كيلو متر لبثنا نسير يومين وليلة استرحناها فى قرية كبيرة اسمها كزرون وكان الطريق جبالا معقدة بدرجة لم يسبق مثلها وبخاصة فى اليوم الثانى فى مكان يسمونه (الدرب) وليات الطريق وتعقيداتها فوقه تدخل الرعب فى قلوب المسافرين بل والسائقين أنفسهم فأنت ترى طياتها عشرات بعضها تحت بعض وهنا تكثر حوادث انقلاب العربات وقد شاهدت عربة انقلبت قبلنا بيومين ومزقت بمن فيها شر ممزق لذلك يحرم البوليس على السائقين السير ليلا وفى الخمسة عشر كيلومترا الاخيرة خرجنا الى سهول مبسوطة كلها صحارى مجدبة تمتد برمالها وحصاها الى

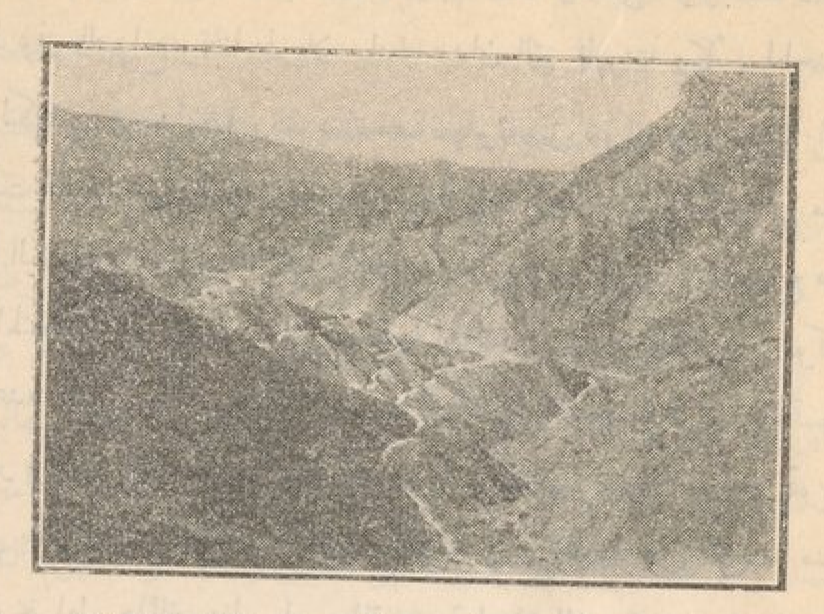


ندخل شيراز فى هوة بين تلك النجاد

شواطىء الخليج الفارسى وقد مررنا بكثير من العيون الكبريتية وفى هذا القسم من فارس رأينا نخيل البلح فى بقاع أشبه بالواحات ولقد أدهشنى أن الجبال فى الشطر الاول من الطريق مجدبة عارية عن النبت وفى وسطها وهى أكثر الجبال ارتفاعا تكسى بالغابات فى أشجار كبيرة متفرقة لذلك كنا نرى محاط لحرق الخشب وتحويله الى فحم يستخدمه الناس فى التدفئة وفى الجزء الاخير فى مجاورة (الدرب) انضمر الشجر ثم انعدم وأضحت الجبال شبيهة بجبال شرق حلوان فى جدبها ويظهر ان ثلوج القسم الاوسط المرتفع هى التى سمحت بنمو الشجر لانهاروته بعصوراتها التى كنا نراها تتجمع فى أودية ضيقة متلوية . أخيرا دخلنا بوشير فى أصيل اليوم

الثانى فاذا بها بلدة حقيرة لم أجد بها سوى مهما نخانة قذرة حجراتها كأنها الاجحار وطرقات البلدة أزقة وحرها لافح شديد مع أن الصيف قد انقضى اذ أنى كنت هناك فى ١٩ سبتمبر مما أيد عندى أن الاقليم المجانب للخليج الفارسى فاسد الجو وهو أشد بقاع الارض حرارة فى الصيف . وبالبلدة بعض المقاهى (البلدية) يجلس فيها الناس فوق مقاعد خشبية وطيئة شبيهة (بكرسى المطبخ) ويتكئون على مناضد لا يزيد علوها عن الارض على قدم واحدة فيخيل الينا أنا جلوس على الارض وجانب البحر مهمل مترب قذر الا فيما جاور الجمرك واخلاق أهلها أمعن فى الفساد و الانحطاط . أقمت بها يوما على مضض وفى باكورة اليوم التالى سرت الى الجمرك حيث فتشت أمتعتنا ثم أقلنى زورق بخارى صغير فى الخليج الفارسى مسافة سبعة كيلومترات فى مياه مضطربة هائجة وجو عاصف أغبر كثر ضبابه ولم تنكشف شمسه وكم آذى ترنح الزورق من مسافرين حتى وصلنا الباخرة (فاسنا *Vasna*) من بواخر شركة الهند الشرقية وكانت راسية على هذا البعد لانها لا تستطيع أن تقرب من الشاطىء الضحل و تلك الشركة تسير بواخرها مرتين كل أسبوع بين الهند و بين بلدان الخليج الفارسى السريعة منها (*Fastmail*) تمر ببعض الثغور والبطيئة (*Slow*) تمر بها جميعا وتقف طويلا وباخرتنا حمولتها عشرة آلاف طن وكانت غاصة بالمسافرين بين هنود وفرس وأعراب وكانت تحمل وسقا ثقيلا من الشاى والسكر والفحم من الهند وتعود اليها بالبلح والشعير . رسونا فى

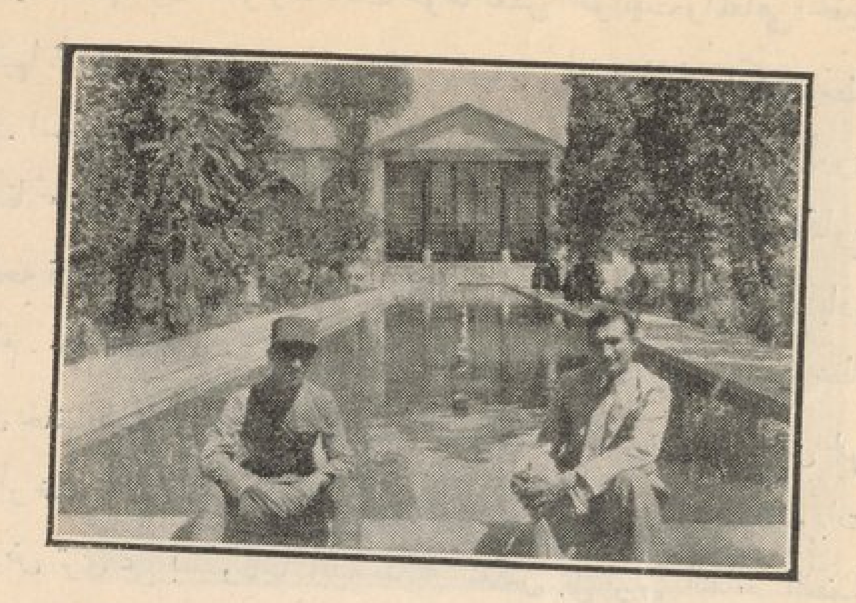
المساء ببلدة صغيرة عند مصب شط العرب تماما وتسمى فاو وبعدها دخلنا الشط وفى الصباح وقفنا طويلا ببلدة عبدان التى ظهرت وكأنها احدى بلاد لنكشير فى مداخنها وضوضاء مصانعها وتنسيق شوارعها ومبانيها التى ماكنت اخالها تقوم فى مثل تلك الناحية النائية فاسدة المناخ لكن هى مقر شركة البترول (النفط) الانجليزية الفارسية التى تجمع الزيت المستخرج من تلك المنطقة الغنية وتكرره فى مصانعها الهائلة ثم يشحن فى البواخر وكنا نرى عددا من البواخر تنقل إليها صفائح البنزين المشحونة على اشرطة تسير بالبخار وترص الصفائح فى نظام عجيب كذلك فهى محطة بترول لتموين السفن بالزيت المحرك لها وقد ظلت باخرتنا تزود بحاجتنا من الزيت مدة ساعة بخراطيم هائلة ويظهر ان حافة هضبة ايران الغربية من قرب بحر الخزر الى الكردستان الى الخليج الفارسى مستمد هائل للبترول الذى يكاد يتغلغل فى جميع طبقات صخوره بمقادير وفيرة والشط هنا اكثر اتساعا من نيل مصر ويسمونه شط عبدان وجانبه الشرقى لفارس والغربى للعراق ويحفه النخيل على جانبيه فى كثافة كأنها الغابات المغلقة وبعد ان غادرنا عبدان بثلاث ساعات وصلنا المحمرة وهى تحكى بوشير فى حقارتها وقد وقفنا بها اربع ساعات نفرغ شحنتنا ثم قمنا منتصف الثالثة صوب البصرة فوصلناها فى ساعتين . وقد سبق ان ذكرنا طرفا عن اقليمها وعن رحلتنا منها الى بغداد وفى باكورة صباح الاثنين ٢٥ سبتمبر قمت فى سيارة الى الشام فى رفقة شابين عراقيين مرحين لم يفترا لحظة عن المزاح طيلة الطريق



نزل ذاك (الدرب) الوعر الى بوشير وشواطىء الخليج الفارسى

وكان معنا شيخ فارسى سان موضع سخريتهم وقديما كانت الكراهة متأصلة بين الشعبين فكلاهما يمقت الآخر مقتا وكان رابعنا سوريا مقطب الوجه لا يميل الى المزاح رغم حداثة سنه وكان يقود السيارة سائقان يتناوبان السوق لانا واصلنا السير النهار والليل فى غير توقف وفى ساعتين وصلنا : الفلوجة : وعندها عبرنا الفرات وفى ساعة اخرى وصلنا الرمادى على حافة الصحراء وهناك تناولت طعام الافطار فى نزل بديع يعادل احدث الفنادق نظاما . بعدها أوغلنا فى صحراء مبسوطة السطح رملية التربة ليس بها من حصى ولا نجاد ولبثنا كذلك الى الرابعة مساء حين وصلنا الرطبة : فى منتصف الطريق (والمسافة كلها ٨٧٠ كيلو مترا) وهى قلعة عراقية وسط

البادية داخلها نزل فاخر وقد قامت حولها بعض الحوانيت والمقاهى الحقيرة تجانبها مجموعة من خيام لاعراب تلك البادية . وهنا محطة لاسلكية ومطار هام. استرحنا زهاء الساعة وتناولنا الطعام الشهى والشاى المنعش الذى أروى ظمأنا ثم واصلنا السير واخذ اديم الصحراء يتغير وانتثر بالحصى وتماوج سطحه قليلا وقد مررنا بوادى حيران الوطىء وعلى مقربة منه دخلنا بادية الشام . خيم الظلام وسادت الوحشة وكان يزيدها رهبة اكداس من عظام لجمال خانها الحظ وبادت ولاتزال العقبان والنسور تنهش ما تخلف من لحمها ولم أر ظاهرة السراب جلية من قبل جلاءها فى هذه الصحراء فكانت تتوءات الارض ترى على بعد وكانها أبنية مدينة تنعكس على بريق النقائع الفضية الوهمية التى ملات الارجاء بيننا وبينها. وواصلنا السير خلال مرح القوم ونكاتهم ومفاخرة السائق بأن تلك الفيافى اضحت مقره فهو جد خبير بها عليم بما فيها من دقائق وكانت آثار عجلات السيارات تميز طريقنا بحفائرها فى الرمال وبين آونة واخرى كان يقوم شاخص من خشب طلى باللونين الابيض والاسود ليهدى الناس سبيلهم . كانت فترة سكون قصيرة خمدت فيها اصوات الجمع وجنح السائق عن الطريق ثم باغتنا بوقفة فنزول عن السياره ونظرة الى السماء دلتنا على انه ضل الطريق فكانت صيحة فزع وبخاصة من زميلنا الشيخ الفارسى. اعقب ذلك صمت عميق ثم ظل السائق يحدق فى السماء ويتلمس بعض بروج النجوم ليسير على هديتها لكن بدا لى من معلوماته الخاطئة عن النجوم انه كان يوهمنا بخبرته ليس غير والحقيقة انه كان فزعا مضطربا هو ورفيقه ولبثنا

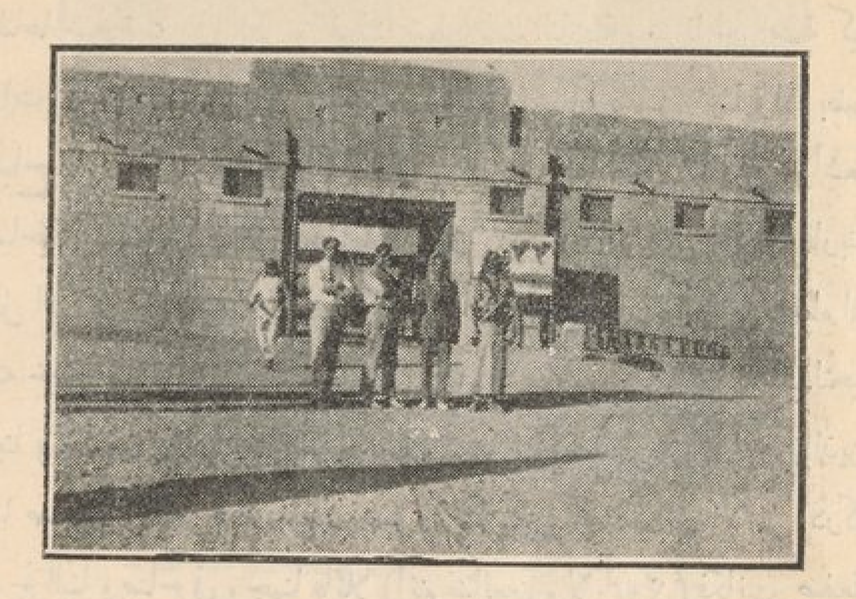


دار البريد فى شيراز وهى من القصور الارستقراطية القديمة

نسير بالسيارة يمنة ويسرة زهاء ساعتين فى غير طائل فخشينا ان ينفد البنزين فتكون القاضية فأجبرناه ان نقف حتى الصباح لعلنا على ضوء الشمس وميلها نهتدى الى الطريق السوى . صور نفسك فى هذا الموقف وليس لديك من زاد ولا ماء وسط بادية مترامية لاترى بها الا بقايا عظام لدابة هلكت أو فضلات لسيارة احترقت . صمت رهيب خلنا معه القوم نياما ولكن كيف ينام الضال القلق ؟ نزلت أجيل البصر فى ذاك السكون الرهيب وتلك السماء التى اخفت خفاف السحب بها بعض النجوم حتى لم يبد الدب ولا النجم القطبى . وبينما كان يجول الخاطر فيما عسى ان يجىء به الغد واذا

بشعاعة ضوء كأنها وهج يتحرك بدت قرب الافق ثم اخذت تخبو وتظهر فخلناها سيارة تمر فى الطريق فولينا شطر تلك الناحية وسرنا نحو خمسة كيلو مترات بدون جدوى فوقفنا ثانية نرقب الآفاق عسانا نتلمس شيئا واذا بضوء مصباح يفاجئنا فى ناحية اخرى فعدنا اليه ويظهر انه أدرك حيرتنا فوقف وأشعل مصباحيه الكشافين وظل يثبتهما قبالتنا ونحن نسير اليه حتى اذا ما قاربناه خجل السائق من موقفه وخشى ان علم الآخر بضلاله عن الطريق أساء الى سمعته خصوصا وانه كان يفاخر بأنه ابن تلك الصحراء وبينا كنا نتاهب لتحية هادينا وشكره واذا بسائقنا ينعرج عنه كأنه على دراية بالطريق وكأننا نحن الذين هدينا صاحبنا الآخر فكان ذلك جحودا منا يظهر ان السائق الآخر أدركه فانعرج الينا وصاح فى وجهنا قائلا (أتوضايعين ولا أيه ؟) فكانت صفعة قاسية لزميلنا السائق . تبينا بعد طريقنا ولبثنا كلما حاول السائق الشذوذ عنه نعيده الى حظيرة الحق رغم مكابرته وحمدنا الله ان انجانا من خطر محيق وقد كان حظنا حسنا لان اليوم يوم سفر من العراق الى الشام كثرت فيه السيارات العابرة وألا لما عثرنا على سيارات أخرى فى تلك البيداء المترامية المخيفة

فى الخامسة صباحا دخلنا دمشق بعد ان سرنا اربعا وعشرين ساعة سيرا متواصلا لم يتخلله الافترات قهوة عند الحدود ثم وقفة الحيرة التى ضللنا فيها طريقنا وبعد جولة وداع قصيرة فى دمشق قمنا فى سيارة اخرى الى بيروت مسافة مائة كيلو متر قطعناها فى ثلاث ساعات فى طرق مرصوفة وسط مزارع جذابة ثم اخذنا نعلو جبال لبنان وكانت مدن المصايف وقراها



فى «الرطبة» وسط البادية بين العراق والشام وليس بها الامعسكر ونزل

تنتثر على جنباتها فى بيوتها الحجرية وسقوفها الحمراء المتحدرة حولها تتموج النجاد يكسوها الشجر فى مشاهد ساحرة

وقدمرنا بصوفر وبحمدون وعندما وصلنا الذروة واخذنا ننزل الصفحة الغربية كانت المناظر ابهى وأروع وبدت بيروت مبسوطة فى زائدة من الارض ناتئة وسط مياه البحر الابيض الذى امتد الى الآفاق حتى اتصل ضبابه بسحاب السماء. وقبيل دخولنا بيروت رأينا (علية) من خير مصايف لبنان ثم تجلت بيروت ثغرا خفيف الروح جيد الطرق نظيفا يحكى جانبا من الاسكندرية الا أن جوه كان أميل الى الحرارة وهو اوه راكد رطب .



الميدان الرئيسى فى بيروت

هنا نال منى الجوع فآويت الى مطعم وطنى اكلنا به قديدا (شورمه) من لحم شوى على سفود (سيخ) يدور ومن حوله وهج النار وكلما نضجت طبقة منه أزالها الرجل بالمشرط وقدمها الى وسط خضرة من النعناع والى جانب ذلك طبق من (الحمص) سحق فى الزيت والبهار فكان شهيا لذيذا . فقمت بعد الظهر فى سيارة الى حيفا : مسافة (١٦٠ ك م) فى خمس ساعات ونصف فى طريق يجانب البحر ولم يتخللها وقوف الا عند الحدود زهاء نصف ساعة وقد مررنا من ثغور سوريا الهامة على : صيدا وكانت عاصمة مملكة كنعان ثم صور ومن ثغور فلسطين على عكا وقد كنت أخالها تقوم على ربوة

منيعة لكنى الفيتها مبسوطة السطح ولم تشعرنى بالمنعة التى قرأنا عنها ايام صلاح الدين ونابليون وعلمنا ان بها قبر نبى الله صالح وفى المساء كنا فى حيفا : وهى مدينة يبدو على مبانيها القدم والاهمال الا أن الانجليز بدأوا يعبدون طرقها ويصلحون ميناءها فى أرصفة هائلة ستجعلها من الثغور الرئيسية ويظهر انهم يميلون الى اتخاذها قاعدة حربية للجيوش والاساطيل والمطارات ومن ورائها يقوم جبل الكرمل الذى اخذت المبانى المستحدثة تقوم على مدرجاته وفوق سطحه المبسوط وهو هناك الحى الارستقراطى وجل ملاكه من اليهود . وهنا بدء سكة الحديد الى الجنوب وللبلدة محطتان محطة حيفا ومحطة الكرمل . قمت عائدا الى بلدنا العزيز فى قطار الصباح فكان جل الطريق بجانب البحر فى سهول زراعية ثم اخذت الارض تتغضن وكثرت بها منابت الفاكهة وبعد غزة سادت الرمال وكثبانها الناعمة الى الآفان ولما دخلنا الحدود المصرية زادت كثافة وحف النخيل شاطىء البحر كله وقد لبثنا بجانبه طويلا ثم اوغلنا فى طور سيناء حتى دخلنا القنطرة مساء

تمت الجولة بعون الله

فهرس

فهرس

صور الكتاب مائة وسبعة وثلاثون حسب هذه الموضوعات.

الجولات المطبوعة للمؤلف

---

(١) جولة فى ربوع أفريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح

عجائب القارة الغامضة وغابات جوفهـــا واسرار همجها وأخطار وحوشها

(٢) جولة في ربوع آسيا

بين مصر واليابان بدائع الشرق الاقصى ومدهشاته

(اليابان والصين والهند الخ)

(٣) جولة في ربوع أوروبا

بين مصر وايسلنده

طرائف المدنية الاوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

(٤) جولة فى ربوع الشرق الادنى

بين مصر وأفغانستان

نرجو ان يتفضل القارىء باصلاح الاخطاء الآتية وانا نعتذر عن بعض الهفوات البسيطة التى لا تخفى عليه :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢٠	١٩	المحال	المال
١٣١	٣	سوى	سدى
١٣١	٩	خاصعين	خاضعتين
١٧٢	١٣	احتاج	اجتاح
١٧٨	٢	وثلاثون	وثلاثين
١٩٧	٣	يدخلها	يدخلهما
٢١٩	٤	منهم	منهن
٢٤٠	٨	وحولهم	وحولهما

